محمد علي باشا والإمبراطور ميجي
مالهما وما عليهما

ムハンマド・アリと明治天皇
二人の功罪

النهضة المصرية الحديثة والنهضة اليابانية الحديثة
دراسة مقارنة



تأليف / هشام عبد الرءوف حسن

ヒシャーム・ハッサン著

محمد على باشا
والامبراطور ميجي

ما لهما وما عليهما

النهضة المصرية الحديثة والنهضة اليابانية الحديثة

دراسة مقارنة

محمد على باشا
والامبراطور ميجي

ما لهما وما عليهما

النهضة المصرية الحديثة والنهضة اليابانية الحديثة
دراسة مقارنة

ムハンマド・アリと明治天皇
二人の功罪

تأليف

هشام عبد الرءوف حسن

ヒシャーム・ハッサン著

الدار العالمية للنشر والتوزيع

رقم الإيداع

2008 / 16574

977-440-065-8.

ISBN

الطبعة الأولى

٢٠٠٩م

حسن ، هشام عبد الرءوف .

محمد علي باشا والإمبراطور ميجي مالهما وما عليهما / هشام عبد الرءوف حسن - ط١ - الجيزة ، الدار العالمية للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٩

٣٢١ص ، ٢٤سم .

تدمك : ٩٧٧-٤٤٠-٠٦٥-٨

الدار العالمية للنشر والتوزيع

١١١ شارع الملك فيصل - الهرم

ت : ٣٧٤٤٦٤٣٨ - ٣٧٤٤٦٣٢٤ ف : ٣٧٧١٩٨٩٩ - ٢٠٢

ص. ب : ٢٦٢ الهرم - ج.م.ع

E-MAIL : daralaalmiya@hotmail.com

إهــداء

إلى الراحل الفاضل السيد/ دن سوى هــارو الــذي علمنــي أن لــذة الكفــاح تعــادل أضــعاف لــذة النجاح .... إلى روحه أهدي هذا الكتاب.

هشام عبد الرءوف حسن

努力の結果の至福は成功から得られる至福の何倍にも相当するということを教えていただいた亡き田季晴氏の霊にこの本を奉げます。

ヒシャーム・ハッサン

مقدمة

لم نقصد بكتابنا هذا أن يكون كتاباً لسرد تاريخ نهضة محمد على فى مصر ونهضة عصر ميجى فى اليابان. بل قصدنا أن نتخذ من حقائق هاتين النهضتين الشرقيتين وأحداثهما بل وإرهاصاتهما دروساً وعبراً من التاريخ لنا.

لقد حرصنا على الإسهاب فى ذكر الأحداث والإرهاصات التى سبقت كل من نهضتى محمد على وميجى لندلل على تشابه مثل هذه الظروف التاريخية من إضطرابات وصراعات بل ومجاعات أيضاً على مسرح الأحداث فى البلدين .ولذلك فلقد خصصنا كل الباب الأول من أجل ذكر تلك الإرهاصات. فذكرنا مثلا تلك التجربة الصغرى أو الأولية لنهضة محمد على ، ونعنى بها محاولة على بك الكبير فى الاستقلال عن الدولة العثمانية. وذكرنا لماذا فشلت هذه المحاولة الاستقلالية .

ومن الطريف أن نوعية مشابهة للمماليك - وهم بالطبع محاربون- قبضت على مقاليد الأمور فى اليابان وهم الساموراى ، ونشأت بين بعضهم البعض أيضاً الاضطرابات والخلافات والنزاعات العديدة ، وعلى الأخص فيما يعرف فى التاريخ اليابانى الوسيط بعصر "الدويلات المتحاربة Sengoku Jidai " وهذا العصر يقع فى الفترة الزمنية نفسها من نهاية عصر المماليك فى مصر.

ولم يكن ذكرنا للإرهاصات التاريخية التى سبقت كلاً من نهضتى محمد على وميجى هو مجرد السرد التاريخى للأحداث ولكن لكى نكتشف من خلال الباب الأول ، أن فجر العصور الحديثة فى اليابان يرجع إلى موقعة ناجا شينو التى وقعت فى عام ١٥٧٥ وذلك عندما انهزمت النظم الحربية العتيقة

التى يمثلها تأكيدا شينجى على يد النظم الحديثة نسبياً بقيادة أودا نوبوناجا ، فى حين أن انهزام القديم على يد الحديث فى مصر تم فى عام ١٧٩٨ عندما تلاقى جيش المماليك أمام جيش نابليون فى موقعة إمبابة فكانت تلك بمثابة نوبة الصحيان الأولى التى انتابت مصر وحكامها ، ثم تلتها نوبة الصحيان الثانية أو بالأحرى النهوض من النوم على يد مؤسس مصر الحديثة محمد على.

ومن خلال الباب الأول سوف نتعرف على طبيعة الصراع بين المبشرين الأجانب والحكام اليابانيين الذين قاوموا التبشير بالمسيحية وخاصة الزعيم اليابانى طويوطومى هيديوشى الذى حارب المسيحية بضراوة. وسوف نكتشف أن محاولة اليابانيين حماية ديانتهم سواء كانت بوذية أم شنتوية لم تكن إلا من أجل حماية فكرهم وتقاليدهم التى جبلوا عليها منذ القدم ، وهذا هو فى الحقيقة ليس إلا اعتزازاً بهويتهم الوطنية التى سوف يبنوا عليها نهضتهم الحديثة فيما بعد . وكذلك سوف يكون أساساً ودعماً لشن العديد من الحروب ضد البلاد المجاورة وغير المجاورة . وقد حاولنا من خلال الفصول الثلاثة التى يتكون منها الباب الأول الإشارة إلى الإرهاصات العديدة التى مهدت لكلاً من النهضتين ونقاط التشابه والاختلاف بين تلك الإرهاصات . وحاولنا كذلك إزالة سوء الفهم أو سحابة الضباب الماثلة أمام القارئ العربى من أن اليابان قد انتفضت مرة واحدة وبطريقة فجائية ، فالبعض يظن أن هذه النهضة ارتفعت إلى عنان السماء منذ بداية عصر ميجى أى منذ عام ١٨٦٨م والكثير يظن أنها قامت وكأنها مارد خرج من قمقمه بعد الحرب العالمية الثانية فأصابت العالم كله بالدهشة والاستغراب مما حققته من تقدم. وهذا فى الحقيقة غير صحيح وفى ذلك ذكرنا العديد من الأدلة على قوة وفعالية اليابانيين منذ أوائل القرن الثامن عشر.

أما الباب الثانى فقد قسمناه إلى تسعة فصول ، حاولنا من خلالها ذكـر مظاهر وفعاليات و كذلك نتائج النهضة والإنفتاح على الحضارة الغربية فى كل من مصر و اليابان . كذلك حاولنا شرح الظروف التى أثرت فـى كـلا النهضتين .

على أية حال فقد تحدثنا عن مختلف النواحى فى النهضـتين مـن تعليميـة وإقتصادية وثقافية وإجتماعية وحتى الحربية قدر ما أتاحه الله لنا من جهـد ومن وقت . وسيرى القارىء مدى ما حققته كلا النهضتين وربمـا أعجبتـه التجربة المصرية ويعجب أكثر بقائدها الوالى محمد علـى الأجنبـى الـذى أستطاع ان يبدأ ربما من نقطة الصفر تقريبا . ولكن من المؤكد أن القارىء سيرثى بل سيشعر بخيبة الأمل و الحزن بسبب تراجع هذه النهضة العظيمة بعد أن وصلت إلى درجة كبيرة من التقدم والإزدهار . ونفس القارئ ربمـا يدهش ويعجب من تلك الطاقة العظيمة الكامنة عند الإنسان اليابـانى والتـى مكنته من الوصول بنهضته إلى هذه الدرجة من التفوق حتى على من تعلموا على أيديهم .

إلا أننا على الرغم من تقديرنا الكبير لكلا النهضتين فأن الشك يساورنا من أن حديثنا قد يصيب بعض المعجبين باليابان ونهضتها ببعض الإحبـاط عندما نطرح الكثير من نقائص هذه النهضة ومساوئها . ذلـك لأن هـؤلاء أعجبوا بتلك النهضة دون الولوج إلى حقائق تاريخية دامغـة لوثـت ثـوب الحضارة اليابانية ونهضتها . أو ربما لأن شدة الإعجاب باليابان ونهضـتها جعل المعجبون بها يتغاضون عن بعض أخطائها أو خطاياها . وكذلك ربما يصيب حديثنا عن النهضة المصرية غلاة الوطنيين الذين لا يرون فى بلدهم أى عيب أو نقيصة ، فكل شىء على ما يرام و جميل فى بلـدهم أو هكـذا يعتقدون . ولكن عزاؤنا أننا فى تحليلنا لنهضة البلدين لم نركن إلى عاطفـة

فى حالة الحديث عن التجربة المصرية ، ولم نركن أيضاً إلى الانبهار والدهشة فى حالة حديثنا عن النهضة اليابانية .

وأخيراً فلقد حاولت ألا يكون هذا الكتاب مجرد كتابين منفصلين عن التجربتين النهضويتين المصرية واليابانية ومن اجل ذلك حاولت قدر جهدى أن أجعل القارىء يعايش التجربتين فى آن واحد فلا ينصرف ذهنه عن أحدى التجربتين ونحن نتحدث عن الأخرى

ولا يسعنى فى نهاية هذه المقدمة إلا أن أقدم الشكر للقارىء الكريم على شروعه فى قراءة الكتاب ، واعتذر له أيضا مقدما إذا ما وجد خطأ ما ، فعلى الرغم من المجهود المضنى الذى بذلته من اجل إخراج هذا الكتاب إلا أن هذا لا يمنع خطأ أو فكرة لا تعجب القارىء .

الباب الأول

الأوضاع في مصر واليابان
قبل محمد علي وميجي

الفصل الأول

أحوال مصر

قبل الحملة الفرنسية

الفصل الأول

أحوال مصر
قبل مجئ الحملة الفرنسية

على الرغم من أن الغالبية العظمى من المؤرخين والمتخصصين في التاريخ المصري يرون أن الحكم العثماني في مصر في مجمله ، وكذلك العزلة التي ضربها هذا الحكم على مصر والمصريين كان وبالاً على هذا البلد وأبنائه ، إلا أن هناك بعض المؤرخين يرون أن هناك عوامل أخرى ساعدت على استمرار التدهور الذي ساد البلاد في أواخر العصر المملوكي . من ذلك تلك العزلة التي فرضت على المنطقة بصفة عامة وليس مصر فقط بسبب الحصار الاقتصادي الذي ضربه البرتغاليون على المنطقة مع بداية القرن السادس عشر في أعقاب كشف الطريق التجاري إلى الهند عبر رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨ . ثم ما لبث هذا الحصار أن تحول إلى حصار شامل شمل الفكر والحضارة بعد أن عمل العثمانيون من جانبهم أيضاً على دعم هذا الاتجاه ، فأغلقوا الملاحة في البحر الأحمر أمام السفن الأوروبية خوفاً من تهديد الأماكن الإسلامية المقدسة ، خصوصاً بعد فشل حملتهم على الهند عام ١٥٣٨. ثم راحوا يعارضون أية محاولة لإعادة الطرق العالمية إلى البحر الأحمر .

وفي الحقيقة فإن خوف العثمانيين من خطر الإستعمار الغربي الماثل على حدود الشرق العربي منذ بداية القرن السادس عشر جعلهم يمعنون في سياسة الحذر ، فأحاطوا الشرق الأدنى بسياج منيع من العزلة.وحالوا بينه وبين العالم الخارجي وكان مما ساعد على تأكيد عزلة العالم العربي خلال

تلك الفترة شعور من الشك والريبة شاع في البلاد الإسلامية إزاء الغرب إبان الحروب الصليبية وفي أعقابها.

ومع وجاهة الرأي السابق وصحته إلى حد بعيد ، إلا أن حقيقة الإحتلال العثماني وبدايته في مصر لم تكن تنذر إلا بكل الشر والأذى لمصر وللمصريين ، فقبل كل شئ فقدت مصر بهذا الإحتلال استقلالها وأصبحت تابعة لاستانبول بعد فترة طويلة نسبياً من الإستقلال سواء أثناء العصر الفاطمي أو الأيوبي أو المملوكي أيضاً. كذلك كانت أفعال السلطان سليم وجنوده في غاية القسوة بل والسطوة إبان إحتلالهم للقاهرة.

فقد قام السلطان سليم باختيار ما يحلو له في القاهرة وأمر بالبدء في فك رخام القلعة الذي كان موجوداً في قاعات البيسرية والدهيشة والبحرة والقصر الكبير وغيرها. وجمع العثمانيون الأهالي من شوارع القاهرة ، وقيدوهم بالحبال وصعدوا بهم إلى القلعة. وزاد خوف الأهالي من ذلك . ولكن سرعان ما علموا بأنهم قد جمعوا الأهالي لكي يسحبوا المكاحل النحاس الكبيرة التي كانت موجودة في القلعة ثم يجروها حتى ساحل النيل لكي تأخذ طريقها على السفن إلى إسطنبول.وقاسى الناس في سحبها غاية المشقة "وحصل لهم بهدلة من الضرب والسك" وكانوا يربطون الرجال بالحبال في رقابهم ويسوقونهم بالضرب الشديد على ظهورهم حتى وإن كانوا من أعيان الناس .

هكذا بدأ الحكم العثماني لمصر بداية سيئة للغاية.وللأسف كانت هذه البداية عنوان العصر العثماني ومضمونه خلال ثلاث قرون تقريباً .ومما زاد الضير بله وقسوة على المصريين تلك القسمة الغريبة للسلطات التي فرضها العثمانيون على مصر ، وهي متوزعة بين الوالي الذي يرسل من تركيا ولا

يستمر فى مصر أكثر من عامين فى معظم الأحوال.ولذلك حرص هذا الوالى التركى على أن يستفيد من تلك الفترة القصيرة أحسن الاستفادة .

ويذكر المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي أن الجبرتي لم يصف الإحتفال بقدوم الوالى الجديد تفصيلاً لأن حضور الولاة واستقبالهم كان أمراً عادياً ومألوفاً فى ذلك العصر. ثم يلي الوالي الديوان الذي كان يتألف من كبار ضباط الحامية العسكرية وكبار العلماء والتجار. وبعد الوالى والديوان أبقى العثمانيون على قوة المماليك وكانوا يتمتعون بسلطات كبيرة فى الأقاليم. وكان الباب العالى فى الأستانة يبغى من توزيع السلطات بين القوى الثلاث تحقيق التوازن بينهم حتى لا تنفرد إحدى تلك القوى بالاستقلال بالسلطات وبالتالى الاستقلال بالبلاد عن الدولة العثمانية. وهذا ما حدث بالفعل طوال سنوات طويلة.

وقد أستمر التشاحن والتنافر بين تلك السلطات الثلاث حتى الربع الأخير من القرن الثامن عشر .فمرة تشتبك الحامية بالمماليك ويستفيد من ذلك الوالى، وأخرى تشغب الحامية على الوالى، وينتفع بذلك المماليك وهكذا. أما الشعب نفسه فكان بمثابة الكرة التى تتقاذفها السلطات الثلاث !!

وتلوح لمصر فرصة لكى تستعيد مجد الاستقلال الغابر كان ذلك عندما ظهر على حلبة الصراع فى مصر على بك الكبير عندما تقلد منصب شيخ البلد فى عام ١٧٦٠ بعد مناوشات وصراعات مع عديد من البكوات المماليك.ثم عمل على بك الكبير على تكوين قوة عسكرية يمكن الإستناد عليها للقضاء على أى منافس له.كذلك أعتمد على بك الكبير على مبدأ الغدر الذى كان يميز المماليك فيقوم بنفى عبد الرحمن كتخدا الذى كان قد لعب دوراً هاماً فى توليته فى منصب شيخ البلد. ولكن خصوم على بك الكبير

ينجحون في نفيه مرة إلى الشام ومرة أخرى إلى مديرية الدقهلية . ونفوا رجاله الذين قدموا معه إلى أسيوط . ومن الدقهلية نجح على بك الكبير في حبك المؤامرات ، التي تمت في سنة ١٧٦٧ بجرح حسين بك ، وقتل الجرجاوى بك ، وإثارة الشكوك حول حمزة باشا ، فعزلوه ، واختاروا خليل بك قائمقام ، وخشوا من على بك فنفوه إلى أسيوط ، وكانت فرصة فريدة لكي يذهب إلى رجاله المنفيين في الصعيد ، ويتحالف مع مشايخ العرب ، وأصحاب العصبيات هناك .

وهكذا تستمر المناورات و المشاحنات وكذلك التحالفات ثم الخيانات بين كوادر المماليك بعضهم البعض حتى يستطيع على بك السيطرة على مصر في نهاية عام ١٧٦٨ ولكنه يستمر في إظهار الولاء للسلطان وإرسال الجزية كاملة وكذلك إرسال صرة الحرمين مع الغلال والأموال الموقوفة على فقراء الحجاز وكان على بك يرسل إلى استانبول علاوة على ذلك ، هدايا كبيرة وخيول مطهمة إلى السلطان ورجال دولته . وأظهر نفس الاحترام تجاه الوالى ، ولم يكن يقوم بحركة إلا بعد أن يطلب فرمان بها من الباشا فاكتسب عطف الاستانة كما اكتسب معاونة الباشا واحترامه له .

ثم عمل على بك الكبير على استتباب الأمن . ثم دان له كذلك صعيد مصر بفضل الحملة التي أرسلها بقيادة صهره محمد بك أبو الذهب الذى سوف يخونه بعد ذلك ويكون السبب في سقوط دولة على بك الكبير .

كذلك أتاحت له الظروف الدولية لأن يستقل بمصر ثم يضم الحجاز وبعدها الشام ، إلا أن خيانة تابعه محمد بك أبو الذهب له و اتصاله بالدولة العثمانية كان السبب في عرقلة أحلامه ثم قامت الحرب بين محمد بك أبو الذهب وبين سيده و انتهت بقتل على بك سنة ١٧٧٣ .وعادت مصر ولاية

عثمانية وخلصت إمارتها لمحمد بك أبو الذهب واستقر (شيخاً للبلد) وكافأته تركيا بفرمان تثبيته فى مشيخة البلد و توليته حكم مصر . وصار له الأمـــر والنهى فى البلاد ورجعت تركيا إلى إرسال الولاة كما كان الأمر قديماً .

لقد سردنا هنا فى عجالة قصة صعود وسقوط دولة على بـــك الكبيـــر قصيرة العمر ، و القصة مسرودة فى كتب كثر ولكننا هنا وجدنا سرد هـــذه القصة لنستخلص منها عدة دروس أو بالأحرى عدة أسباب جعلت من مصر حلبة كبيرة من الصراعات ليس بين السلطات الثلاث التى وزعـــت بيـــنهم السلطة فى البلاد ، أى الباشا أو الوالى ثم الحامية والديوان والمماليك ، لكن هذا الصراع و التشاحن كان واضحاً أيضاً بين أفراد الطائفة الواحدة وظهـــر هذا جلاء بين بكوات المماليك بعضهم البعض حتى ينتصـــر فـــى النهايـــة الأقوى والأكثر ذكاءاً ودهاءاً .كما رأينا فى تجربة على بك الكبير ولكن كان الشعب المصرى هو أكثر من تأثر بمثل هذا الصراع الدامى على السلطة .

كذلك نستطيع أن نرصد دور الدين فى خضوع المصـــريين للدولـــة العثمانية حباً فى الخلافة الإسلامية و إقتناعاً بدورها فى حماية المســـلمين ، فالإسلام جاء يدعو إلى (أخوة إسلامية) لا تعرف التفرقة بين الأقطار التى انضوت تحت رايتها . ومن ثم كان من العبث أن نحاول فهم التاريخ الوسيط لمصر و غيرها من الأقطار الإسلامية على ضوء الوطنية أو الإقليمية ، أو القومية العربية وربما لذلك لم تنجح دولة على بك الكبير المستقلة ولم تستمر طويلاً . ومعنى ذلك أن الدولة العثمانية لم تكن قد فقدت بعد إمكانيات عملها فى مصر . وإذا كانت هذه الدولة قد تميزت بالضعف العســـكرى و المـــالى والإدارى فى تلك الفترة ، إلا أنها كانت قوية بعامل معنوى، يتمثل فى سلطة الإسلام و فى ضرورة الإحتفاظ بالولاء للخلافة الإسلامية وخاصة فى وقت

تعرض فيه العالم الإسلامى لأخطار خارجية وهكذا كان الضعف أمام العدو الخارجى ، مع قوة العاطفة الدينية سلاحين دعما سلطة الدولة العثمانية على مصر ، رغم إفتقارها إلى الوسائل المادية التى كان من المفروض أن تتسلح بها لكى تحتفظ بممتلكاتها .

هذا إلى جانب موقع مصر الجغرافى المميز والمتوسط فى العالم وقربها من الدول الإستعمارية ووقوعها على طريق الملاحة بين الشرق صاحب الموارد و المواد الخام ، وبين الغرب الطامع فى تلك الموارد والثروات . كل هذا إلى جانب أسباب أخرى سوف نذكرها عند الحديث عن تجربة نهضة مصر فى عهد محمد على جعل من تجربة مصر فى العزلة ثم فى التحديث تختلف إختلافاً بيناً عن تجربة اليابان فيها كما سوف نبين من خلال بحثنا هذا .

الفصل الثانى
الأوضاع فى اليابان
قبل نهضة ميچى

الفصل الثانى

الأوضاع فى اليابان قبل نهضة ميجى

(١) صراعات داخلية طويلة حتى التوحيد

قبل بداية عصر إيدو الذى سبق عصر النهضة اليابانية الحديثة ، شهدت اليابان منذ عام ١٤٦٧ وحتى توحيد معظم مقاطعاتها على يد القائد العظيم أودا نوبوناجا فى عام ١٥٧٣ فترة طويلة من الاضطرابات والثورات وانقلاب الأوضاع .

وقد بدأ هذا العصر المضطرب منذ السنوات الأخيرة من حكم أشيكاجا يوشى ماسا Ashikaga Yoshimasa (١٤٣٦-١٤٩٠) والذى تولى منصب الشوجونية فى عام ١٤٤٩ حدثت مجاعة رهيبة فى عام ١٤٦١ أصابت كل أنحاء اليابان تقريباً ، وتفشت الأمراض المعدية ، وتحولت حياة المواطنين إلى جحيم . ويقال أن ٨٢ ألف من سكان العاصمة كيوطو فقط قد هلكوا جوعاً . وعلى الرغم من ذلك لم تحرك حكومة موروماتشى العسكرية ساكناً حتى تنقذ رعاياها . بل إنه فى عز هذه النكبة التى أصابت الناس كان الشوجون يوشى ماسا يقيم حفلات الربيع الصاخبة و الباهظة التكاليف . وكان ينتقل إلى أماكن تلك الحفلات مستقلاً محملاً مزيناً بالأزهار الجميلة . وعلى الرغم من أن اقتصاد اليابان فى عصر مورماتشى كان إقتصاداً هزيلاً إلا أننا نجد أن يوشى ماسا يقوم ببناء المعبد الفضى الذى اتخذه فى ذلك الوقت قصراً له . وسمى بالمعبد الفضى لأنه غطى بألواح من الفضة . ومازال السياح الأجانب يرتادون هذا المعبد الموجود فى مدينة كيوطو ، وفى نهاية عهد الشوجون يوشى ماسا حدثت ثورة أو هوجه أونيين بسبب مشكلة وراثة عرش الشوجون . وكانت هذه الثورة التى حدثت فى عام ١٤٦٧ بداية

لعصر من الثورات و الإنقلابات والتحالفات وكذلك الخيانات بين مختلف طوائف المحاربين وجماعاتهم . وعندما نطلع على أحداث هذه الفترة التى تسمى بعصر (الدويلات المتحاربة) نجد أنفسنا وكأننا نطالع صفحة من صفحات تاريخ المماليك في مصر ، ذلك التاريخ الملىء بالصراع و التناحر و الإنقياد التام للأقوى و المنتصر كما سرى .

كان الشوجون أشيكاجا يوشى ماسا على الرغم من وجود زوجة شرعية له وكذلك محظيات كثيرات لا يستطيع الإنجاب . ولما وجد أن عدم وجود وريث له يخلفه على عرش الشوجونية سوف يسبب قلاقل كثيرة إذا ما توفى فجأة فقد وجد أن ينصب أخيه الصغير يوشيمى - وكان حينئذ راهباً - خليفة له ليصبح الشوجون التاسع في شوجونيه موروماتشى . إلا أنه حدثت بعد ذلك المعجزة وأنجبت زوجته ولداً أسماه يوشى هيسا . والحقيقة أن زوجة يوشى ماسا والتى كانت تدعى طوميكو Tomiko وكان معروفاً عنها حب الظهور والأنانية، ومن أجل مصلحتها الخاصة فهى لا تتورع عن إهمال كل القواعد والتقاليد، فمثلاً كانت تجمع الضرائب لصالحها الخاص ، وكانت تشترى الأرز بكميات كبيرة حتى إذا ارتفع سعره باعته بسعر مبالغ فيه فتكسب من وراء ذلك الكثير من الأموال. ولم تتورع أيضاً عن تقبل الرشاوى مستغلة فى ذلك موقعها من الشوجون. كل هذا على الرغم من أنها كانت نبيلة خرجت من بيت شهير.

وإجتهدت طوميكو من أجل أن يصبح أبنها يوشى هيسا الشوجون التالى لوالده وليس أخيه يوشيمى. فأنقسم قادة كيوطو وزعماؤها إلى معسكرين معسكر يؤيد العم يوشيمي ، ومعسكر أخر يؤيد طوميكو وأبنها يوشى هيسا. وإندلعت المعارك بين المعسكرين، وإنخرط فيها حكام الأقاليم لتعم الحرب

الأهلية جميع أنحاء اليابان تقريباً. واستمر هذا الوضع لمدة إحدى عشر عاماً. وهذه الحرب الأهلية أطلق عليها ثورة أو هوجة أونين Onin no ran .

والطريف أن حرب أونين الأهلية هذه انتهت إلى نهاية لا تخلو من الطرافة، فبعد أكثر من عشر سنوات من الحروب والنزاعات المتواصلة، تعب المحاربون وأنهكت قواهم فتوقفوا دون أن يوقفهم أحد وبمحض إرادتهم عن القتال كذلك يأس حكام الأقاليم الذين جاءوا من أقاليمهم إلى العاصمة كيوطو من الوصول إلى حل للمشكلة فلم يجدوا أمامهم سوى أن يتركوا العاصمة كيوطو وعادوا إلى مدنهم وقراهم البعيدة، ولكن هذه الحرب الأهلية كان لها نتائج وخيمة، فقد جعلت من عاصمة البلاد الجميلة كيوطو مدينة محطمة محترقة، ولابد لنا أن نتذكر دائماً أن معظم بل ربما جميع مباني العاصمة فيما عدا بعض القلاع كانت تبنى من الخشب. ولذلك فعقب كل حرب كانت معظم البيوت والقصور قد تحولت إلى هشيم.

ولكن هذه الحرب الأهلية لم تحطم فقط البيوت والقصور بل حطمت أيضاً السلطة التقليدية والنظم التي كان المجتمع الياباني يقوم عليها. وتلك النظم كانت تجعل الشوجون أو بالأحرى الحاكم العسكري على قمة الهرم الإجتماعي. فقد أثرت هذه الحرب على مركز الشوجون إلى حد بعيد وأيضاً أدت حرب أونين الأهلية إلى فقدان الإمبراطور والنبلاء وكهان المعابد الكثير من امتيازاتهم وحقوقهم السياسية الإجتماعية والإقتصادية.

وإلى جانب ذلك كان لتلك الحرب نتيجة هامة وهي إنتاج الأفكار التي تجعل من القوي هو الذي يحكم. وكذلك بدأ حكام الأقاليم يعصون أوامر الشوجون، ويرفضون دفع الضرائب التي كان جزءاً منها يصل إلى الإمبراطور وللنبلاء ولذلك بدأت معاناة الإمبراطور والنبلاء في حياتهم

اليومية تتفاقم. ولذلك نرى أن الكثير من النبلاء اضطروا إلى إعلان إفلاسهم.كذلك أضطر العديد منهم إلى امتهان مهن جديدة لم يكن لهم بها عهداً من قبل. فعمل بعضهم معلمين للمحاربين وحكام الاقاليم ، وعمل اخرون كأطباء وخبراء للأعشاب وغير ذلك من المهن . وهذا الحراك الاجتماعي سوف نلحظه أيضاً في نهاية عصر إيدو أي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عندما عمل الكثير من المحاربين المثقفين كمعلمين للتجار وغيرهم من الطبقات.

ومع سقوط سطوة وسلطات الشوجون كان من المتوقع أن تتصاعد سطوة حكام الاقاليم (Shugo Daimyo) ، إلا أن هذا لم يحدث، والذى حدث هو أن سطوة حكام الأقاليم تهاوت ، واحتل اتباع هؤلاء الحكام منصب الدايميو ولقبوا بحكام الأقاليم المحاربين (Sengoku Daimyo) وهذا الحراك السياسي هو ما أطلق عليه في التاريخ الياباني بقانون أو ظاهرة Gekokujo أو ما يعني بإنقلاب الأوضاع بمعنى أن يسقط التابع سيده .

ولكن تبقى هنا نقطة هامة جدا يجب ملاحظتها جيداً على عصر الولاة المحاربين. فهذا العصر يكاد يتطابق زمنيا مع بداية العصر العثماني في مصر الذى بدأ في عام ١٥١٧، وحتى الربع الأخير من القرن السادس عشر عندما استطاع القائد أودا نوبوناجا توحيد معظم البلاد تحت سيطرة حكومة مركزية. ففي حين أننا نجد أن العثمانيين أهملوا تماماً أحوال البلاد الاقتصادية، وساءت أحوال الفلاحين وسكان المدن وأهملت المشاريع الزراعية وغيرها من المشاريع الهمة في البلاد.إلا أننا نجد أن الوضع في اليابان كان على عكس ذلك تماماً. فقد أسهم الحكام المحاربين على كل النواحي في البلاد سواء الإقتصادية والسياسية وغيرهما. ولم يسمحوا على

الإطلاق بوجود ممتلكات للنبلاء أو للمعابد أو لحكام الأقاليم العاديين. وبالتالي فإن ضرائب الأرز وكافة الضرائب الأخرى في مقاطعاتهم كانت تؤول لهم. ولذلك فإنهم بالمقارنة بالشوجو دايميو (حكام الأقاليم الذين كانو يتبعون الشوجون) وكذلك بالمقارنة بعمداء القرى والقرى فقد كانوا يمتلكون ثروة إقتصادية عظيمة.

ولما كان هدف هؤلاء الحكام المحاربين هو الارتقاء عن طريق الحرب . فقد كانت خطتهم الأساسية تتلخص في عبارة واحدة هي "إزدهار الوطن وتقوية الجيش" ومن أجل تحقيق هذا الهدف فقد خطط هؤلاء الحكام المحاربين لإعادة بناء جميع الصناعات داخل البلاد، وعملوا أيضاً على التحكم في الفلاحين وحمايتهم في نفس الوقت. ومن أجل تسهيل عمليات تحصيل الضرائب وإتمام الأمور العسكرية على خير وجه فقد منع الحكام المحاربين أتباعهم من أن يستغلوا الفلاحين على هواهم. وهنا أحب أن أذكر القارئ بما كان يفعله الملتزم الذي كانت تعينه الدولة العثمانية لكي يجمع الضرائب من الفلاحين وكيف كان يعتصرهم عصراً من أجل جباية الضرائب . كذلك قام حكام الولايات المحاربين بجهود كثيرة من أجل تحسين مشاريع الري . تقنية الزراعية. كذلك بذلوا جهوداً أخرى من أجل تحسين تكنولوجيا صناعة المناجم. وربما فعلوا ذلك لأنهم أبناء ذلك البلد وليسوا مستعمرين يعملون على حمل خيرات البلاد إلى وطنهم كما كان يفعل العثمانيون.

إلى جانب الميزة التي ذكرناها تواً من اهتمام حكام الولايات المحاربين بإقتصاد البلاد، كانت هناك سمة أخرى لهذا العصر وتلك هي افتقاد كيوطو المدينة التقليدية لمركزها الأوحد كعاصمة ثقافية للبلاد وأصبح هناك مراكز

ثقافية أخرى هامة غير كيوطو. والذى حدث أن مثقفى كيوطو من نبلاء ورهبان الذين كانوا يعيشون فى العهود السابقة فى سعة ورخاء أصبحوا فى فترة الحرب الأهلية لا يستطيعون تدبير أمور حياتهم مما جعلهم يلجأون إلى نفبن ما فى جعبتهم من ثقافة لحكام الأقاليم وأتباعهم كما ذكرنا آنفاً. كذلك عمل العديد من حكام الأقاليم على استقطاب واجتذاب مثقفى كيوطو إلى ولايتهم. واشتهرت فى ذلك على الأخص مقاطعة تشوشو (محافظة ياما جونشى حالياً) وهكذا تحولت مركزية الثقافة اليابانية من كيوطو إلى التعميم وانتشارها فى مختلف المدن القلاعية الأخرى وهكذا توزعت ثقافة كيوطو المركزية على المحليات بالتناسب مع قوة هذه المحليات وازدهرت الثقافة فى ذلك العصر . ومن ضمن الثقافات التقليدية التى ازدهرت فى أواخر عصر موروماتشى طقوس الشاى الأخضر (Sado) والتى تعد من أشهر الطقوس التقليدية اليابانية حتى يومنا هذا .

وفى زمن المقاطعات المتحاربة الذى إمتد إلى ما يقرب من مائة عام تعددت بالطبع المعارك وظهر قادة محاربين كثيرين . إلا أن أكثر قائدين اشتهرا فى ذلك العصر كانا تاكيدا شينجن (١٥٢١-١٥٧٣) Takeda Shingen وأوسيجى كنشين Uesugi Kenshin (١٥٣٠-١٥٧٨) أما الأول فكان على عكس والده نوبوتورا Nobutora بعيد النظر يفكر كثيراً قبل أن يقدم على المعارك ولذلك فقد وجد لكى يكسب المعارك أن يؤمن حياة الفلاحين والمواطنين ويبث فيها الرخاء ، وهو لذلك عندما اجتاحت فيضانات الأنهار التى تجرى فى مقاطعته فأنه على التو قام ببناء التحصينات و السدود على تلك الأنهار فحمى الأراضى الزراعية من الغرق واستطاع الحصول على محصول وفير من الأرز وغيره من المحاصيل .و مازالت آثار الحصون

التي بناها تأكيداً شنحرن على نهر كامانشي باقية حتى اليوم تشهد على نشاط هذا القائد العسكري الفذ وبعد نظره .

ونعلنا على ذكر هذا القائد الذي عاش حتى عام ١٥٧٣ ، وفي تلك الفترة التي تميزت بالحروب و الدمار في اليابان نتذكر نفس تلك الفترة في مصر ، فقد عانت خلال تلك الفترة أيضا من فساد الحكم العثماني ، إلا أننا لابد وأن نكون منصفين لنذكر بعض الولاة العثمانيين الذين بذلوا قصارى جهدهم من أجل تحسين سبل الحياة في مصر . ولعله من قبيل المصادفة أن يحكم مصر في تلك الفترة أيضا خلال مرتين "سنان باشا" المرة الأولى في عام ١٥٦٨ ، ولم يمكث خلالها سوى تسعة أشهر فقط ، ثم أمره السلطان سليمان الخليفة العثماني بالزحف على اليمن . و خلال حملته على اليمن التي استمرت سنتين و أربعة أشهر فتح اليمن وعاد ظافراً إلى مصر ، فرأى الأحوال هادئة ، والنظام مستتباً وذلك بسبب حكمة وحزم إسكندر باشا لأنه كان محباً للرعية ، فرفع الضرائب عن الفقراء و العاجزين ، و القسم الأعظم من طلبه العلم وكان شديد التعلق بالعلم وذويه . أما سنان باشا عندما تولى حكم مصر للمرة الثانية في ـايه عام ١٥٧١ فقد اهتم بتأييد النظام وحفظ رونق البلاد فأخذ حفر ترعة الأسكندرية ، ورمم وبنى فيها جامعاً وشارعاً وعدة حمامات ، وبنى في بولاق بالعاصمة القاهرة شارعاً ووكالات وجامعاً لا يزال معروفاً باسمه .

وهكذا نجد أن عصور الفوضى و الحروب لا تعدم حكاماً صالحين يعملون بضمير حي من أجل الرعية .

ونعود مرة أخرى إلى الصراع الدائر في اليابان ، فنجد أن طموح حاكم مقاطعة كاي (وهي الآن محافظة يامانشي) ووجه بصلابة وقوة من حاكم

مقاطعة ايتشيجو (محافظة نيجاتا حالياً) وكلاهما يحاول أن يستولى على المناطق المجاورة له وأن يدافع عن مقاطعته ويتحدث عن حدودها وكأنه يتحدث عن حمايتها من بلد آخر غير اليابان . كل هذا الصراع وكلاً من الأمبراطور و الشوجون ليس لهما أية سطوة أو تحكم فى المقاطعات وفى المنازعات الدائرة بينهم . ولن نجد اختلافاً بيناً بين هذه الصورة وبين الأحوال التى كانت سائدة فى مصر قبل قدوم الحملة الفرنسية . وكما ذكرنا أنفاً عند الحديث عن محاولة على بك الكبير من الإنفراد بحكم مصر وصراعاته مع زملائه الاخرين دون النظر إلى الوالى العثمانى القابع فى قلعة صلاح الدين . ثم نجاحه بالفعل فى الإستقلال بمصر عن الدولة العثمانية وسقوطه بسبب خيانة تابعه محمد بك أبو الذهب كل هذا حدث فى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر .أما فى اليابان فهذه الفوضى وذلك الصراع من أجل توحيد البلاد كان فى أواخر القرن السادس عشر وتوحدت البلاد بالفعل تماماً فى أوائل القرن السابع عشر .

وما حدث أن الحرب استمرت بين معسكر تاكيداشينجن و معسكر أوسجى كنشين منذ عام ١٥٥٣ حتى عام ١٥٦٤ ، أى ما يقرب من أثنى عشر عام . وسميت هذه المعارك التى وصلت فى عددها إلى خمس معارك كبيرة – بمعارك كاوا ناكاجيما وهى منطقة عرفت منذ القدم بموقعها الإستراتيجى الهام وأنها ملتقى للمواصلات و الطرق . وكانت المعركة الرابعة التى وقعت فى عام ١٥٦١ هى أشد تلك المعارك ضراوة إلا أن هذه المعارك الخمس لم تسفر عن غالب أو مغلوب بشكل واضح . ورغم ذلك أستطاع تاكيدا شينجن أن يبسط نفوذه على منطقة ناجانو.

كانت المعارك بين كلا من تاكيدا شينجن و أوسيجى كنشن متكافئة إلى حد بعيد نظراً لإعتماد المعسكرين على الوسائل القديمة فـي القتـال إلا أن جيش تاكيدا عندما اصطدم بجيش أودانوبوناجا المتحالف مع جيش طوكوجاوا إيياسو والذين كانا لا يزيدا عن ثلاثة آلاف جندى ، قد هزم جيش تاكيدا شر هزيمة على يد الجيش المتحالف فى موقعة ناجاشينو عـام ١٥٧٥ . وكـان السبب فى ذلك هو تسلح الجيش الثانى بالبنادق . كانت موقعة ناجاشينو تلك نقطة تحول كبيرة فى الحروب اليابانية القديمة . حيث إستخدم نوبوناجا خطة لقهر جيش تاكيدا المكون من الفرسان المسلحين بالرماح والسـيوف وذلـك بإقامة سور من خشب الأشجار لحجز الخيول الذين صادتهم بنـادق جنـود نوبوناجا من الناحية الأخرى بسهولة شديدة .

وهكذا سقط جيش تاكيدا الذى كان يتيه فخراً بفرقة فرسـانه التـى كـان لا يستطيع أحد مواجهتها .

(٢) نوبوناجا بطل التوحيد

هل لنا هنا أن نشبه موقعة ناجاشينو بين جيشى تاكيدا القديم ونوبوناجـا المسلح بالبنادق وبين موقعة إمبابة التى وقعت بين جـيش المماليـك وجـيش الحملة الفرنسية فى ٢١ يوليو ١٧٩٨ تلك الموقعة التى لم تستمر أكثـر عـن ثلاثة أرباع الساعة إنهزم بعدها جيش المماليك شر هزيمة بسبب تسليحه القديم سواء بالسيوف و الرماح أو حتى المدافع ذات الطراز العتيق التى لـم تطلـق قنابلها سوى مرة واحدة ، ولم يتمكن رماتها من أن يعيدوا الضرب بها مـرة أخرى إلا أننا نعود ونذكر القارىء بأن موقعة ناجاشينو كانـت عـام ١٥٧٥ وموقعة إمبابة كانت سنة ١٧٩٨ أى أن الفرق بين الموقعتين ٢٢٣ سنة .

بعد النصر الذى حققه نوبوناجا في موقعة ناجاشينو ، أصبح على بعد خطوات قليلة من هدفه الذى كان يحلم به و عمل له بكل جهده ألا وهو توحيد كل أرض اليابان ، إلا أنه تعرض لمؤامرة لاغتياله على يد تابع له يدعى أكيتشي ميتسو هيدى Akechi Mitsuhide ، إلا أن نوبوناجا أصيب إصابة شديدة ، وحتى لا يقتل بيد تابع خائن له قام بقتل نفسه على طريقة شق البطن (سبكو) . ولكن لم يمر أسبوعين حتى لقى هذا الخائن الهزيمة على يد الزعيم طويوطومى هيديوشى تابع نوبوناجا المخلص . ثم لقى قاتل مؤسس الوحدة اليابانية مصرعه على يد الفلاحين في منطقة أوجوروسو (Ogurusu) بالعاصمة كيوطو .

لقد إستطاع نوبوناجا أن يضع الأساس القوى لوحدة اليابان بعد كثير من التعارك و الحروب . صحيح أنه كان شديد البأس و العنف من أجل تحقيق هذا الهدف العظيم . إلا أنه يكفيه أنه استطاع إنهاء عصر موروماتشى Muromachi الذى أشتهر بضعفه بالمقارنة بالعصور اليابانية الأخرى وأزاح الشوجون الخامس عشر و الأخير أشيكاجا - يوشى أكى (١٥٣٧-١٥٩٧) في عام ١٥٧٣ . وكما يلتمس بعض المؤرخين العذر لمحمد على عندما أقدم على تنفيذ مذبحة القلعة وقتله ما يزيد عن ٤٠٠ مملوك حتى يستطيع أن يأمن شرهم و حتى يتفرغ لإصلاح البلاد ، كذلك يلتمس بعض المؤرخين العذر لأودانوبوناجا عندما قام بأحراق معبد انرياكوجى Enryakuji الموجود في مدينة كيوطو فى عام ١٥٧١ ، وقتل كل من فيه من الرهبان و الراهبات ذلك لأنهم كانوا يؤيدون أعداء نوبوناجا . ولذلك منذ ذلك الحين بات الشوجون نوبوناجا يعرف فى الوثائق البوذية بالشوجون المعادى للبوذية و الرهبان البوذيين .

إلا أن نوبوناجا عندما استتب له الأمر قام بإنشاء قلعة عظيمة فى مدينة أزوتشى . وجعل التجارة فى هذه المدينة حرة ، و ألغى الإمتيازات القديمة التى كانت تعطى لطائفة معينة من التجار ، كذلك ألغى الضرائب التى كانت تسمى بضرائب الأسواق وأمر كذلك بأن تتم تجارة الأحصنة فى هذه المدينة فقط دون غيرها من المدن اليابانية . ولذلك كله إنتعشت التجارة وازدهرت فى مدينة إزوتشى Azuchi ولا نعرف إذا ما امتد العمر بهذا الرجل القوى البأس لأن يتم وحدة اليابان كلها تحت يديه ، فربما قامت نهضة عظيمة تعم كل أنحاء البلاد وتكون مدينة أزوتشى عاصمة لتلك النهضة وليس مدينة إيدو التى سوف يؤسس بها الشوجون طوكوجاوا إيياسو عاصمة دولته التى استمرت قرابة الثلاثة قرون كما سنرى فيما بعد .

لم يكن هناك أنسب من طويوطومى هيديوشى لكى يكمل مهمة توحيد اليابان بعد موت أودا نوبوناجا واضع أساس هذه الوحدة . فالأول كان أكثر أتباع نوبوناجا إخلاصاً . ولم تكن الطريق مفروشة بالورود أمام طويوطومى من أجل خلافة منصب الشوجون بعد نوبوناجا ، إلا أننا لن نخوض فى مثل هذه التفاصيل التاريخية وسنحاول التركيز على ما قام به طويوطومى من إصلاحات وما اتخذه من سياسات سواء داخلية أو خارجية لقناعتنا أن مثل هذه الإجراءات التى سوف نتحدث عنها تعتبر إرهاصات مبكرة إلى حد ما للنهضة اليابانية العظيمة التى سوف تقوم فى عصر ميجى أى بعد حوالى ٢٨٥ سنة من تولى طويوطومى مقاليد الحكم فى اليابان و كذلك ما سوف يحدث لليابان فى عصر إيدو عصر العزلة الإختيارية التى فرضتها اليابان على نفسها .

لقد احتاجت وحدة اليابان كلها إلى ثلاثين عاماً من الحروب و المعارك وكانت البداية عندما هزم نوبوناجا القائد إيماجــاوا يوشــيموطو (١٥١٩ - ١٥٦٠) فى معركة أوكهزاما Okehazama عام ١٥٦٠ و كان إتمام وحدة اليابان الشاملة عندما هزم طويوطومى هيديوشى أسرة هوجو Hojo فــى قلعة أوداوار Odawara وبذلك خضعت البلاد كلها لسلطة طويوطومى الذى أقام نظام حكمه على أساس متين من الوحدة و كذلك على أساس اقتصــادى قوى . فقد خضعت له أراضى شاسعة تابعة له بطريقــة مباشــرة . وتلــك الأراضى كانت تدر حوالى ٢ مليون كوكو من الأرز (الكوكو مكيال يساوى حوالى ١٨٠ لتر) . كذلك تحكم طويوطومى فى مناجم الــذهب و الفضــة و غير ذلك .

(٣) هيديوشى العصامى المصلح

وكان لحذق وذكاء طويوطومى هيدوشى السبب المباشــر فــى تفــادى الصدام العسكرى بينه وبين القائد الشهير طوكوجاوا إيياسو و الــذى ســوف يؤسس حكومة إيدو العسكرية بعد سنوات قليلة من عهــد هيدوشــى القصــير نسبيا . فقد قام هيدوشى بنقل إقطاعات طوكوجاوا إلى منطقة الكانتو إى الأقليم الشرقى من اليابان ، فأبعده بذلك عن العاصمة كيوطو . ولــذلك عنــدما قــام طوكوجاوا بتأسيس حكومته فقد أقامها فى مدينة إيدو (طوكيو) ولــيس فــى كيوطو أو فى أى مدينة أخرى بمنطقة الكانساى (الأقليم الغربى) بوجه عام .

ومن الإيجابيات والإنجازات التى تذكر لفترة حكم طويوطومى أنه لم يحاول التسلط و التمسك برأيه ، بل إننا نزعم أنه طبق مبدأ الديمقراطيــة أو مبدأ الشورى فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ اليابان . فقام بإنشاء لجنتــين تقوما بإدارة شئون البلاد وتنفيذ السياسة التى أراد تطبيقها و أطلق على هاتين

اللجنتين لجنة المسئولين الخمس (Gobugyo) و لجنة الحكماء الخمس (Gotairo) وواضح من تسمية اللجنتين أن كلاً منهما كانت تضم خمس أعضاء من كبار رجال الدولة آنذاك . و ربما نستطيع أن نشبه هاتين اللجنتين وأعمالهما بذلك الديوان الذى شكله نابليون بونابرت فى مصر حين قدومه بحملته عليها . إلا أن الفارق واضح بين لجان اليابان و ديوان مصر فالأولى أقامها حاكم وطنى من أهل اليابان نفسها لتنظيم شئون البلاد ، والثانى فرضه المحتل الذى جاء غاصباً للبلاد ومضطهداً أبناءها و محارباً لهم .

وكان طويوطومى هيديوشي ايجابياً أيضاً فى سياسته الخارجية ، ولذلك إزدهرت التجارة الخارجية ، و لكنه عندما طالب الصين بإحياء التجارة معها فشل فى ذلك مما جعله يفكر فى غزو الصين وكوريا معاً. وبالفعل قام بمحاولتين لغزو كوريا فى عامي ١٥٩٢ (Bunroku no eki) و ١٥٩٧ (Keichō no aki) وكان هدف هيديوشى أن يجمع الثلاث بلاد اليابان والصين وكوريا فى وحدة معا وبالطبع تحت قيادة اليابان.وكانت وسيلته فى ذلك غزو كوريا وإستخدام جنودها فى غزو الصين. إلا أن جهوده فى ذلك لم تسفر عن نتيجة جيدة لليابان، فقد إخترع رجلاً كورياً سفينة حربية من المعدن إستطاع بها تحطيم سفن هيديوشى واحدة بعد الأخرى.وهكذا نرى أن الميول الإستعمارية اليابانية قد ظهرت مبكراً فى أواخر القرن السادس عشر ثم وضحت مرة أخرى فى عصر ميجى بسبب تأثيرات عديدة منها مثلاً فكر المفكر والمعلم اليابانى الشهير فوكوزاوا يوكيتشى كما سنرى بعد ذلك عند الحديث عن عصر ميجى.

أما فى الداخل فقد قام طويوطومى هيديوشى بأجرائين هامين لضمان تحصيل الضرائب على الأراضى الزراعية وكذلك لضمان الحفاظ على أستتاب الأمن فى ربوع البلاد .

أما الإجراء الأول فهو ما أطلق عليه عملية مسح وتقييم الأراضى الزراعية (Kenchi) وبفضل هذا الإجراء زادت الضرائب على الفلاحين بنسبة ٢٠% بالمقارنة مع المعدل الذى كان قبل ممارسة هذا التقييم، وبالطبع لم يرضى عامة الفلاحين عن هذا التقييم الجديد للأراضى الزراعية الذى رفع الضرائب بنسبة كبيرة. وإلى جانب هؤلاء الفلاحين البسطاء لم يرض أيضا كبار الملاك ولذلك قامت الثورات ضد هذا الإجراء الذى نفذه هيديوشى لكن هيديوشى أصر على تنفيذ عملية تقييم ومسح الأراضى الزراعية، ويبدو لنا هذا الإصرار الشديد عندما نقرأ الأمر الذى أصدره لمساعده أسانو ماساناجا (١٥٤٧-١٦١١) ،وكذلك يبدو لنا إستبداده من أجل تحقيق أكبر فائدة للبلاد من الأراضى الزراعية.يقول هيدوشى فى أمره ما يلى:

" عليك أن تبلغ ملاك الأراضى والفلاحين أن يقتنعوا بالموضوع الذى مررت به (موضوع مسح وتقييم الاراضى الزراعية) وإذا كان هناك أشخاص لا يوافقون عليه فعليك أن تحاصرهم فى قلاعهم إذا كانوا من أصحاب القلاع وأن تقتلهم عن بكرة أبيهم. وإذا كانوا فلاحين فعليك أن تتخلص منهم حتى لو قضيت على قرية أو قريتين قضاءً مبرماً وعليك تنفيذ هذا الأمر بحزم فيما يزيد عن ٦٠ مقاطعة فى كافة أنحاء البلاد.وحتى فى أبعد المقاطعات مثل دوا Dewa (التى تكون الجزء الأكبر من محافظتى ياماجاتا وأكيتا فى الوقت الحاضر) وأوشو (محافظات فوكوشيما ومياجى وإيواتى وأوموري) لابد وأن تأخذوا هذا الأمر مأخذ الجد وحتى لو قضيتم على الفلاحين وحتى

إذا كانت نتيجة هذا أن تبور الأراضى فهذا أيضاً لا بهم. وعليك تنفيذ هــذا الأمر بحذافيره فى قمم الجبال وفى أعماق البحار حيث تستطيع السفن أن تبحر وإذا لم تستطيعوا تنفيذ هذا الأمر فسوف يقوم هيدوشى بتنفيذه بنفســه وعليكم أن تقدموا تقريراً بالنتائج ".

إلى هذا الحد من الإصرار على تنفيذ ما خطط له يحاول هيديوشى أن يؤكد على مساعده أن يقوم بتنفيذ خطة مسح وتقييم الأراضى الزراعية وهى كانت إحدى أهم خطوتين قام بهما هيدوشى، أما الخطوة الثانية فكانت نــزع الأسلحة من الفلاحين وهى ما سميت بالكاتاناجارى Katanagari والكاتانـــا تعنى السيف أما لفظ جارى فيعنى حصد أو نزع، إذن فالكلمتين معاً يعنيـــان نزع السيوف أو الخناجر أو بالأحرى نزع الأسلحة البيضاء وقد نفذت هـــذه العملية أيضاً بكثير من الإجبار على المنوال الذى نفذت بـــه عمليـــة مســـح الأراضى الزراعية.وكما نفذت على الفلاحين فى المقام الأول نفذت أيضـــاً على الرهبان المحاربين Sohei وغيرهم. وقد أجريت هذه الخطة فى جميع أنحاء البلاد وقد أسهمت عملية نزع السلاح (التى نفذت فى معظمهـــا عـــام ١٥٨٨) على التعجيل فى إتمام عملية تقييم ومسح الأراضى الزراعية كذلك كان الهدف منها أن تمنع مسبقاً إندلاع الثورات من قبل الفلاحين الذين كانوا يعارضون عملية مسح وتقييم الأراضى الزراعية التى ذكرناها تواً. كذلك قام هيدوشى بأصدار بعض الأوامر من أجل تقييد حركة مختلف طوائف المجتمع اليابانى انذاك. فقام بمنع الفلاحين والتجار من الذهاب إلى المـــدن للتكســـب كذلك منع المحاربين المعينين من قبل السلطة لأن يتحولوا إلـــى مـــدنيين أو فلاحين. وأصبح هذا بمثابة النموذج المصغر للنظام الطبقى الذى عرف بعد ذلك فى عصر إيدو بالشينوكوشو Shinokosho أى مـــا يعنـــى أن طبقـــة

المحاربين (الساموراى) تأتى على قمة الهرم الإجتماعى ثم يأتى المزارعين فى المرتبة الثانية . ثم يلى المزارعين الصناع والحرفيين ثم فـــى المرتبـــة الرابعة يأتى التجار لأنهم يتكسبون من نتاج جهد وتعب طبقـــة المــــزارعين والصناع. لكن على الرغم من أن التجار وخاصة الأغنيـــاء منـــهم ســـوف يلعبون دوراً هاماً جداً فى التأثير على الثقافـــة اليابانيـــة خـــلال عصــــرى نوبوناجا وهيدوشى وكذلك طول عصر إيدو الذى سوف يستمر على ما يزيد عن قرنين ونصف القرن من الزمان

بعد موت طويوطومى هيدوشى فى سنة ١٥٩٨ ،حدثت عدة صراعات وحروب أدت فى النهاية إلى إستيلاء طوكوجاوا إيياسو على الحكم فى ســـنة ١٦٠٣ مؤسساً بذلك عصراً جديداً سمى بعصر إيدو . ولن نخوض فى مثـــل تلك الصراعات لأن هدف هذا الجزء من الكتاب ليس سرد التاريخ اليابـــانى قبل نهضة ميجى وبعدها ولكن الهدف منه إيضاح شكل وظـــروف الحيـــاة والإرهاصات التى أدت فى النهاية إلى نهضة يابانية شاملة امتدت جـــذورها من وجهه نظرنا منذ أواخر القرن السادس عشر الميلادى وليس كما يعتقـــد الكثيرون منذ منتصف القرن التاسع عشر.

بيد أننا لا نستطيع أن نتحدث عن تلك المقدمات والإرهاصات للنهضة اليابانية الحديثة بمعزل عن الحديث عن الصراع اليابانى مع الغرب ومحاولة حكام اليابان درء خطر انتشار المسيحية فى اليابان.

كان أول اتصال بين اليابان وبين الغرب فى عام ١٥٤٣ عندما قامت عاصفة شديدة بدفع التيار على أثرها سفينة برتغالية إلى مدينـــة تانيجاشـــيما بجزيرة كيوشو .وكانت تلك السفينة البرتغالية متوجهة فى الأصل إلى مينـــاء بنيحو فى الصين. والطريف أن اليابانيين من سكان جزيرة تانيجاشيما (تقـــع

فى محافظة كاجوشيما) عندما وقع بصرهم لأول مرة على هؤلاء الأوربيين، إستولى عليهم الخوف لاعتقادهم أنهم ليسوا سوى عفاريت حمراء، وذلك نظراً لضخامتهم وبشرتهم التى تميل إلى اللون الأحمر ثم هرولوا مسرعين نحو حاكم الجزيرة يبلغونه بأمر هؤلاء الشيطين الذين أتوا من البحر.

إلى هذا الحد كان ظهور الأوروبيون شيئاً غير مألوف على الإطلاق لليابانيين . فقد كان العالم الخارجى بالنسبة لهم حتى ذلك الوقت ما هو إلا كوريا والصين والهند فقط. على أية حال فقد أظهر تانيجاشيما توكيتاكا Tanigashina Tokitaka (١٥٢٨-١٥٧٩) حاكم جزيرة تانيجاشيما آنذاك إهتماماً كبيراً بالبنادق التى كانت فى حوزة البرتغاليين وقام بشراء إثنتين منها بسعر كبير جداً أغرى البرتغاليين لأن يعودوا مرة أخرى فى العام التالى (١٥٤٤) ومعهم البارود اللازم للبنادق. وقد كان هذا اللقاء الذى صنعته الصدفة بمثابة الفرصة التى بدأت بسببها التجارة بين اليابانيين والبرتغاليين .وبعد ذلك بأربعين عاماً انضم الأسبان أيضاً إلى البرتغاليين فى ممارسة التجارة مع اليابانيين وذلك منذ عام ١٥٨٤ وحققت تجارة الأسبان التى كانت بمثابة الوسيط بين اليابان والصين أرباحاً كبيرة ثم رحب حكام المقاطعات اليابانية (الدايميوات) بما جلبه الأسبان من منتجات الصين والبلاد الأجنبية الأخرى من بارود وجلود وحديد ورصاص وأدوية وتوابل وحرير إلى جانب البنادق إلا أن اليابانيين سرعان ما تخلوا عن الأعتماد على البنادق المستوردة فقط وانتشرت الصناعة المحلية منها فى جميع أنحاء البلاد . كذلك كان لتنافس حكام المقاطعات للحصول على البنادق أثره أيضاً على انتشارها فى كل أنحاء اليابان و لذلك ازدهرت تجارتها فى كيوطو و ساكاى إلى جانب انتشار تجارتها مبكراً فى كيوشو ، وكان لانتشار البنادق الفضل فى

تغيير نمط الحروب التى كانت تعتمد فى الأساس على الفرسان الخيالة ، وكذلك فى تغيير أنماط عمارة القلاع . كذلك جعلت تجارة البنادق اليابانيين يسافرون إلى البلاد المجاورة للحصول عليها .

أما التبشير بالمسيحية فى اليابان فقد كان أول ما كان على يد القديس الأسبانى فرانسيس زافيير عندما قدم إلى اليابان فى عام ١٥٤٩ وقد ركز جهوده فى التبشير على الأقاليم الغربية فبدأ من كاجوشيما ثم هيرادو ثم ياماجوتشى و أخيراً فى كيوطو . ولما كان الصراع بين الأمراء الإقطاعيين على أشده عندما حضر زافيير إلى اليابان فقد رحب هؤلاء الحكام المحليين بالبرتغاليين طمعاً فى الحصول على الأسلحة الحديثة التى كانوا يجلبونها إلى اليابان . لذلك لقى زافيير نجاحاً لا بأس به فى مهمته التبشيرية حتى أن أحد حكام الأقاليم (الدايميو) أرسل معه مبعوثاً عندما رحل عن اليابان فى عام ١٥٥١ واستطاع زافيير أن يقنع حوالى ألف يابانى بالتدين بالمسيحية، وبذلك مهد للمبشرين الذين جاءوا من بعده خلال العامين الذين قضاهما فى اليابان .

ولأن المبشرين الأجانب أعطوا العديد من الدايميوات الفرصة لتحقيق أرباح تجارية كبيرة ، ولأنهم أيضاً اجتذبوا انتباه العامة بسبب التبرعات التى قدموها لعديد من المجالات الإجتماعية ، فقد حققوا نجاحاً لا بأس به . ولم يتوقف حكام الأقاليم عند حد مساعدة وتعضيد التبشير و المبشرين فى مقاطعاتهم بل إن بعضاً منهم تدين فعلاً بالمسيحية . ومن أبرز هؤلاء الحكام أومورا سوميتادا Omura Sumitada (١٥٣٣-١٥٨٧) الذى يعتبر أول دايميو تدين بالمسيحية ، وكان قد قام بفتح ميناء (Nanbansen) فى ناجازاكى للتجارة مع السفن البرتغالية و الأسبانية وكانت هذه التجارة تعتمد

على تصدير الذهب و الفضة والنحاس للأوربيين واستيراد البنادق والبارود وغيرهما منهم .

وبرغم تأييد الدايميوات والشوجون الثالث عشر أشيكاجا يوشى تـرو في عصر مورو ماتشي (١٥٣٦-١٥٦٥) و القائد الفذ نوبوناجا للمبشـرين كما سنرى . على الرغم من ذلك فلا نستطيع أن نزعم أن طريق المبشـرين كان مفروشاً بالورود .فقد لاقوا على الأقل معتقدات شعبية تجزم بأن هؤلاء المبشرين الأجانب و إن كانوا على هيئة الإنسان إلا أنهم فى الحقيقة ليسـوا سوى شياطين أو رسل للشيطان . وأنهم يأكلون لحم البشر و يكدوسون عظام موتاهم في بيوتهم . وكان اليابانيون وخاصة سكان العاصمة كيوطو يتهكمون عليهم ويسبونهم . وقد شاع فى الفكر العامى أنه أينمـا يـذهب المبشـرون المسيحيون تكثر الحروب الأهلية ، و تجف الحشائش و تموت الأشـجار . وبسبب هذا الأعتقاد الشعبى فقد نمى الاعتقاد بأن المسيحية ماهى إلا نوع من أنواع الهرطقة . ولكن الغريب أيضاً أنه على العكس من ذلك الاعتقاد فقـد أعترف بعض الناس أن للمبشرين المسيحيين قوة خارقة قادرة علـى محـو جميع الالام والمتاعب الإنسانية ، ولذلك زاد عدد المؤمنين بالمسيحية وتذكر بعض المصادر أن عددهم وصل إلى ١٥٠ ألف فى عام ١٥٨٠ وأن هذا الرقم تضاعف فى مطلع القرن السابع عشر وبالطبع فإن هذا العـدد يمثـل فـى عصره شريحة من مجموع السكان أعلى مما تحمله اليوم زمرة المسـيحيين الموجودين فى اليابان .

وكان لتأييد الشوجون الثالث عشر أشيكاجا يوشـى تـرو للمبشـرين المسيحيين تأثيره الكبير فى ازدياد عدد المؤمنين بها فى العاصمة كيوطو إلا أن إغتيال هذا الشوجون فى مايو ١٥٦٥ كان بمثابة ضربة مؤلمة للمبشرين

أنذاك ، فترك الكثير منهم كيوطو ، وظلوا يحلمون بالعودة إليها مرة أخرى حتى تحقق لهم ذلك على يد القائد أودانوبوناجا عند دخوله منتصراً العاصمة كيوطو فى خريف عام ١٥٦٨. وربما كان عداء نوبوناجا للرهبان البوذيين هو الذى جعله يمد يد العون للمبشرين المسيحيين كما أسلفنا القول. حتى أنه سمح لهم ببناء كنيسة كبيرة من ثلاث طوابق فى مدينة كيوطو وذلك على طراز المعابد البوذية. وقد اشترك فى إنشاء هذه الكنيسة جميع طوائف العاصمة أنذاك بدءاً من الشوجون نوبوناجا نفسه وكذلك المرسلين المسيحيين، وإنتهاءاً بفقراء المدينة . وأصبح هذا المعبد المسيحى - إذا جاز القول - من معالم العاصمة حتى جاء طويوطومىهيدوشى الذى أظهر عداءاً واضحاً للمسيحية وأحرق هذه الكنيسة فى عام ١٥٨٧.

وربما كانت سياسة الغاية تبرر الوسيلة هى المبدأ الذى أمن به كلاً من نوبوناجا و هيديوشى فى سياستهما المختلفتين تماماً نحو المسيحية فبينما كان الأول إيجابياً إلى حد بعيد فى إدخال الثقافة الغربية ومن خلالها أيضاً استطاع إدخال البنادق والمدافع الغربية وكذلك استطاع إدخال إستراتيجيات حربية جديدة ، فتمكن من خلال ذلك كله أن يمد نفوذه إلى مقاطعات عديدة فى اليابان واضعاً بذلك حجر أساس الوحدة والدولة المركزية فى اليابان، والذين كانا قد غابا لفترة طويلة عنها وكذلك يمكن القول أن نوبوناجا أراد استخدام المسيحية كورقة ضغط على الرهبان البوذيين الذين كان يبغضهم بشدة لمعارضتهم المستميتة ضده.

أما خليفة نوبوناجا وتابعه الأمين طويوطومىهيديوشى فقد سار فى البداية على نهج سيده، ورحب فى عام ١٥٨٦ بوفد من المبشرين فى قلعته التى كان قد أتمها لتوه فى أوساكا.وقد صرح هيديوشى لهذا الوفد أنه بصدد

إعداد ألفيْ سفينة لغزو كوريا والصين.وإنه يرجو من المبشرين أن يتوسطوا لدى البرتغاليين من أجل الحصول على سفينتين مسلحتين تسليحاً جيداً ، وإنه إذا استطاع إخضاع الصين فإنه سوف يبنى كنائس فى كل أنحائها وسوف يأمر الصينيين بالدخول فى الديانة المسيحية بل إنه ذهب أبعد من ذلك ووعد المبشرين أن يعمل على جعل نصف اليابانيين أو معظمهم يؤمنون بالمسيحية.وكما سيتضح لنا بعد قليل عندما نرى كيف انقلب هيديوشى بدرجة شديدة على المسيحية والمبشرين المسيحيين أن هذا الترحيب وتلك الوعود لم تكن سوى سياسة مؤقتة نحو المسيحية والمؤمنين بها مطبقاً فى ذلك مبدأ الغاية تبرر الوسيلة. ولم يختلف كثيراً عن سيده نوبوناجا الذى شجع المسيحية أيضاً إنطلاقاً من نفس المبدأ وكان ينظر فى الحقيقة من مهادنته هذه إلى المكاسب التجارية وكذلك الضغط على البوذيين ولكنه عندما إطمأن من إخضاعهم لم يجد سبباً لمهادنة المسيحيين ولذلك لم يمر عاماً واحداً حتى غير هيديوشى سياسته تماماً نحو المبشرين المسيحيين وكذلك اليابانيين الذين دخلوا فى هذه الديانة الوليدة فى اليابان. فأصدر فى عام ١٥٨٧ أمراً بإبعاد المبشرين معللاً ذلك بأن نشر المفاهيم والتعاليم الشيطانية الخاصة بالبلاد المسيحية فى بلاد الآلهة (اليابان) شئ فى غاية السوء. وأن محاولة حكام المقاطعات لإقناع مواطنيهم بالدخول فى المسيحية عمل غير مسموح به . بل إن هيديوشى قبل أن يصدر أمره السابق بقليل أمر الدايميو المسيحى الشهير تاكاياما أوكون Takayama Ukon (١٥٥٢-١٦١٥) بترك المسيحية ولكن عندما رفض هذا الدايميو تنفيذ أمر هيديوشى استبعده من منصب الدايميو ثم هاجر تاكاياما إلى الفلبين وتوفى بعيداً عن وطنه . كذلك قام هيديوشى بمصادرة الأراضى الخاصة بكنيسة ناجاساكى فى مايو ١٥٨٨. ومن أشهر

ما قام به هيديوشى ضد المسيحيين ذلك عندما أمر بصلب ٢٦ من المرسلين الأجانب وأتباعهم من اليابانيين فى ٥ فبراير ١٥٩٧، وكان بينهم ٦ من الأباء الفرنسيسكان الأسبان و ٣ من الأباء اليسوعيين الفرنسيين . وإستطاع الهرب إلى خارج اليابان حوالى ١٢٠ من الأباء اليسوعيين الذين توجهوا إلى مالاقا وكانت محصلة حملة الإضطهاد للعام ١٥٩٧ هدم وإغلاق ١٣٧ كنيسة ومدرسة لتعليم اليابانيين أصول المسيحية .

ولكن لماذا قام هيديوشى بكل ما ذكرناه تواً ضد المبشرين المسيحيين وكذلك ضد اليابانيين الذين أمنوا بها ؟ . وجد هيديوشى أن صراع الأفكار بين الفكر الغربى الذى يتبنى لواء العقيدة المسيحية وبين الفكر اليابانى المتمثل فى الديانتين البوذية والشنتوية يمكن أن يهدم القيم و النظم الإجتماعية القائمة منذ القدم فى اليابان . ففى حين يرى الفكر المسيحى أن طاعة الإله (Dheus) شيئاً مطلقاً فإن الفكر اليابانى الاقطاعى يجعل من طاعة السيد شيئاً مطلقاً لا يمكن خرقه . و الحقيقة أن المبشرين حاولوا قدر وسعهم أن يوائموا بين فكرهم المسيحى والفكر الإقطاعى الذى يرتكز عليه التفكير اليابانى . إلا أنهم رغم ذلك لم يستطيعوا إيقاف هجومهم على المعتقدات البوذية و الشنتوية ومن ثم جاء الصراع بين الرهبان المسيحيين و الرهبان البوذيين و الشنتويين و قام بالفعل المسيحيون بمحاولة تحطيم المعابد البوذية و الشنتوية ، الأمر الذى أغضب هيديوشى تماماً .

وكان هناك أمراً اخر أغضب هيديوشى كثيراً من الأوربيين وعلى الأخص البرتغاليين حيث كانوا يشترون اليابانيين ويحتجزونهم فى سفنهم ثم يحملونهم بعيداً . وتذكر المصادر اليابانية أن البرتغاليين و الأسبان كانوا يحتجزون المئات من الرجال و النساء اليابانيين فى سفنهم التى كانت تأتى

إلى مينائى هيرادو و ناجاساكى . بل أنهم كانوا يقيدون هؤلاء العبيد من اليابانيين بسلاسل من الحديد ويرمون بهم فى مخازن السفن تحت ظروف غاية فى القسوة . إلى جانب ذلك إستاء هيديوشى من عادة الأوربيين فى أكل اللحوم . كل ذلك و غيره جعل هيديوشى يتعامل بقسوة مع المبشرين ومع من آمن بهم من اليابانيين . إلا أن الشئ الذى يثير الدهشة أن هيديوشى على الرغم من نظرة العداء و الريبة التين كانتا تتملكانه نحو الأوربيين إلا أنه كان يعمل على تشجيع التجارة معهم . و هنا نستطيع القول أن هيديوشى لم يكن يعنيه أمر المسيحية أو البوذية فى شئ و إن إيمان اليابانيون بهذه الديانة أو تلك العقيدة لم يكن يهمه فى شئ إلا قدر تأثير أى من تلك المعتقدات فى حكمه وفى أمر وحدة اليابان . و لذلك نجد أن هيديوشى عندما أصدر أمر طرد المرسلين الأجانب فى عام ١٥٨٧ ، فقد ضمن هذا الأمر سباباً واضحاً للدول المسيحية ولعقائدها الشيطانية وذلك فى المواد الثلاث الأولى من هذا الفرمان ، إلا أنه فى المادتين الرابعة و الخامسة يستثنى السفن البرتغالية ويثنى عليها بل و يرحب ترحيباً شديداً بالتعامل معها . وربما نلمس هنا رائحة مبدأ الغاية تبرر الوسيلة الذى يعتنقه الساسة فى كل زمان ومكان ، إلا أننا نستطيع أن نلمسه أكثر بالنسبة للساسة اليابانيين عبر تجارب تاريخية عديدة و هذا الشد و الجذب فى سياسة اليابان الخارجية كان دائماً فى صالح السياسة اليابانية فى أغلب الأحوال حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، والهزائم القاسية التى تلقتها على أيدى الحلفاء إلى أن جاءت الضربة الموجعة بضرب مدينتى هيروشيما و ناجاساكى بالقنابل النووية وهو ما أدى إلى حدوث تغيير جذرى فى السياسة الخارجية اليابانية نحو الغرب و الشرق على حد سواء .

(٤) اليابان دولة غازية منذ القدم

رأينا فيما تقدم طريقة تعامل القائدين أودا نوبوناجا وطويوطومى هيديوشى مع الغرب و المبشرين الغربيين ، و كيف تراوحت هذه السياسة بين الشدة و اللين بين الخوف من سيطرة الغرب وتغلغل المسيحية فى اليابان وبين الطمع فى التجارة مع الغرب و الإستفادة من هذه التجارة . وسوف يزداد الصراع مع المسيحية و الذى بدأه هيديوشى لكى يأخذ صورة إجراءات عنيفة منذ بداية عصر ايدو الذى أسسه الشوجون طوكوجاوا إيياسو فى عام ١٦٠٣ ، وحتى عام ١٦٣٧ ذلك العام الذى سيصل فيه الصراع ذروته بين الحكومة العسكرية (الباكفو) فى ايدو و بين الفلاحين اليابانيين و الذين كان أكثرهم من المؤمنين بالمسيحية ، فيما يطلق عليه بثورة شيمابارا Shimabara حيث قام ٣٧ ألف من سكان شبه جزيرة شيمابارا و التى تقع جنوب شرق مقاطعة ناجاساكى قاموا بثورة ضد حكومة الباكفو متحصنين داخل قلعة قديمة لمدة ثلاثة أشهر قاوموا خلالها ببأس شديد ضد جيش الحكومة العسكرية والذى بلغ عدده إثنى عشر ألف جندى . إلا أنه بعد هذه المقاومة الشديدة سقط هذا الحصن ، ولاقى هؤلاء الفلاحين سواء المؤمنين بالمسيحية أو غيرهم ممن لا يؤمنون بها نهاية مأسوية ، حيث تم ذبحهم عن بكرة أبيهم .

وهذه الكارثة الختامية المأساوية تمثل استئصالاً لجذور المسيحية اليابانية التى كفت منذئذ عن أن تحسب بين القوى الدينية النظامية فى البلاد . وبذلك ضربت حكومة الباكفو عصفورين بحجر واحد حيث قضت على أقوى بؤرة للمسيحيين فى اليابان ، و كذلك إستطاعت أن ترهب الفلاحين اليابانيين حينما قامت بمعاقبة الفلاحين من سكان شبه جزيرة شيمابارا الذين ثاروا ضد

الضرائب العينية الباهظة التى فرضتها حكومة الباكفو . وبذلك تأكدت سطوة حكومة الباكفو التى سوف تتمادى فى ممارسة الضغوط الرهيبة على المسيحيين اليابانيين . واتخذت ثورة شيمابارا كحجة لها فى ممارسة تلك الضغوط وكذلك سوف نخطو خطوات واسعة فى سبيل إبعاد الأجانب وخاصة الأسبان و البرتغاليين عن اليابان لتفرض عزلة إختيارية طويلة الأمد إستمرت لما يزيد عن مائتى عام حتى جاء بيرى بسفنه عام ١٨٥٣ إلى سواحل اليابان وهكذا نجد أن اليابانيين منذ هيديوشى وحتى منتصف القرن السابع عشر استطاعوا بمهارة فائقة إبعاد معظم الخطر الغربى عن بلادهم لدرجة أن مؤرخاً غربياً وهو ك. م . بنيكار يصف هيديوشى وكأنه مبعوث العناية الإلهيه لليابان لكى ينقذها من خطر الغرب فهو يقول فى كتابه (أسيا والسيطرة الغربية) " وكاد التشجيع الذى لقيته بعثات التبشير المسيحية فى عهد نوبوناجا أن يجلب على الدولة الكوارث ، لولا أن قيض الله للبلاد زعيماً عسكرياً خلفاً له جمع إلى الحكمة بعد النظر. لم يكن هيديوشى بالقائد العادى ، بل كان وطنياً عظيماً . ورجل سياسة وتدبير بعيد النظر واسع الخيال، وصاحب تنظيم عبقرى ، وقد حرص فى البداية شأن نوبوناجا على حسن العلاقة بينه وبين البرتغاليين ومبشريهم، بيد أنه كان يرقب الأمور ببصيرة شاحذه ، فلاحظ أن البرتغاليين أنزلوا المدفعية إلى البر لحماية المنطقة التى كان يعيش فيها من أدخلهم المبشرون إلى المسيحية . وعندما زار إحدى السفن البرتغالية ليرى الأب كويلهو لاحظ أن "المركب كان ثقيل التسليح وإن كان صغير الحجم. وكان منتبهاً تماماً إلى إهتمام دايميونات الغرب بأسلحة البرتغاليين وعتادهم الحربى، فضلاً عن محاولتهم تقوية أنفسهم بعقد أواصر

الصداقة مع الأجانب. وتصرف هيديوشي بحزم حتى إذا وافت ١٥٨٧ حظر على المبشرين القيام بأي نشاط في كل أرجاء اليابان " .

هكذا وجدنا هيديوشى يدفع عن اليابان كل خطر ممكن من العرب أو من المسيحية الاتية منه مستخدما كل الوسائل من أجل ذلك. ولكنه في نفس الوقت يحاول أن يفرض سيطرة اليابان على أقرب جاره لها وهي كوريا من خلال محاولتين لغزوها في عامي ١٥٩٢ و١٥٩٧ ويطلق على تلكما المحاولتين أي حملة بونروكو "Bunrokunoeki"- وحملة كيتشو Keichonoeki "نسبة إلى اسم الفترة الزمنية التي تمت فيها هاتين المحاولتين والشئ الذي يمكن أن يدهش القارئ المصري والعربي أن هيديوشي ما قام بهاتين المحاولتين لغزو كوريا إلا لهدف أكبر وهو غزو الصين في مثل هذا الوقت المبكر من الزمان. ولكن الشئ الملفت للنظر في أمر غزو كوريا انه لم يأت من تفكير هيديوشي فقط ولكن اجتمعت على هذه الإرادة عدة اتجاهات، فبعد أن توحدت اليابان اتجهت أطماع الدايمونات إلى خارج البلاد، وفي نفس الوقت كانت رغبة نظام هيديوشي أن يستنفذ القوة العسكرية الضخمة التي يمتلكها حكام الأقاليم في خارج البلاد حتى لا يثيروا القلاقل داخل البلاد. وهناك أيضاً أغنياء التجار المقربين من هيديوشي الذين وجدوا تجارتهم يصيبها الكساد نظراً لحالة الهدوء والسلم اللذين سادا البلاد بعد إتمام توحيد البلاد، وبالتالي توقفت لمرات كثيرة تلك المكاسب غير المشروعة التي كانوا يحصلون عليها من خلال استمرار حالة الحرب بين مختلف المقاطعات بعضها ضد البعض الآخر.

ولن نخوض في تفاصيل ما حدث في الحرب التي شنتها اليابان ضد جارتيها إلا أننا نذكر فقط أن الجيوش اليابانية الثلاث اللاتي قامت بالغزو

أحرزت في البداية انتصارات باهرة، ثم بدأت الدوائر تدور عليها، فتلقت الهزيمة تلو الأخرى، ذلك بعد أن أفاق الكوريون من نومهم وثباتهم العميق.

وهنا نقف عند قرار انسحاب جيش الحملة اليابانى من كوريا وذلك نتخذ من أحداث التاريخ اليابانى دروسا نتعلمها. فعلى الرغم من سطوة الشوجون سواء كان هيديوشى أو غيره إلا أن القرار فى اليابان منذ القدم وحتى يومنا هذا لا يكون فردياً على الإطلاق. وغالباً ما يكون ذلك من خلال عدة أشخاص أو عدة اتجاهات فكرية. وكذلك عندما فشلت الحملة الثانية التى بدأت عام ١٥٩٧ بسبب البرد القارص والمجاعة التى تفشت فى الجيش اليابانى. ثم جاءت وفاة طويوطومى هيديوشى فى أغسطس ١٥٩٨ لتزيد من عوامل فشل الحملة على كوريا.ورغم ذلك فإن قرار سحب الجيش اليابانى من كوريا لم يكن فردياً على الإطلاق، بل قام باتخاذه عدد من القادة أشهرهم طوكوجاوا إيياسو ومائيداطوشىإييه Maedad Toshiie (١٥٣٨-١٥٩٩)

وهناك حقيقة أخرى يمكن أن نستخلصها من محاولتى الغزو اللتين قامت بهما اليابان نحو كوريا استعداداً لغزو الصين، وهى أنه إذا لم تبلغ اليابان فى ذلك الوقت المبكر من القوة مبلغاً عظيماً سواء من الناحية العسكرية أو الإقتصادية لما أقدمت على هذه التجربة الصعبة التى تحتاج إلى قوة عسكرية شديدة البأس. ونستدل على هذه القوة الكبيرة من الإعداد القوى الذى قامت به اليابان من أجل هذا الغزو. فقد أعدت ما يقرب من ١٦٠ ألف جندى لتلك الحملة العظيمة وأعد لهم حوالى ٤٨٠ ألف وجبة غداء.كذلك تم صك آلاف القطع من العملة سواء الذهبية أو الفضية. ثم أننا يجب أن نتذكر أن كل هذا تم فى نهاية القرن السادس عشر.أى أن اليابان كقوة عسكرية واقتصادية لم تكن على الإطلاق حديثة العهد.وهذا ما سوف نوضحه بالتفصيل فيما بعد.

على أية حال استطاعت الجيوش اليابانية أن تحتاج أكثر مدينتين في كوريا والتي كانت موحده أنذاك. ولم تكن منقسمة إلى كوريتين شمالية وجنوبية. بل إن القائد العسكري الفذ كاطو ـ كيوماصا Katō Kyomasa (١٥٦٢ – ١٦١١) إستطاع أن يصل بقواته إلى منشوريا ويغزوها بنفسه.

إذن فإن أطماع اليابان في استعمار واحتلال الدول المجاورة وغير المجاورة سواء لأسباب سياسية أو اقتصادية أو شخصية لم تبدأ بعد عصر النهضة الأولى وهو عصر ميجي، بل إن هذه الأطماع ترجع كما شرحنا أنفاً إلى نهاية القرن السادس عشر. وإن مبدأ الغاب (Jakunikukyoshwku) الذي نادى بتطبيقه المفكر الياباني الشهيرفوكوزاوا يوكيتشي لم يكن من صنع أو إختراع هذا المفكر أو لم يكن هو البادئ بالمناداة به بل إننا نرى أن الساسة اليابانيين يطبقون هذا المبدأ منذ هيديوشي الذي لم يكد يسمع عن انتصارات جيشه في كوريا حتى أمر بالإعداد لغزو الصين أيضاً، وأن يعد لزيارة الإمبراطور الياباني لبكين، وكذلك إعداد الأراضي الخاصة بالبلاط الإمبراطوري الياباني حول بكين. إلى جانب ذلك كان يخطط لنقل ملك كوريا إلى اليابان ليعيش بها للأبد. وكذلك يتم إعداد مقر لإقامة هيديوشي نفسه في ميناء نينج-بو الصيني، وهذا الميناء كان يعد المحطة الرئيسية للسفن التجارية بين اليابان والصين. بل أن طموح هيديوشي الجامح أوصله إلى أن يعد لغزو الهند بعد غزوه للصين. ونزعم أن طموح هيديوشي الجامح ذلك لم يولد من فراغ بل يرجع إلى فكرة قديمة ظهرت في كتاب تاريخ قديم ظهر في عام ٧٢٠م.

وهذه الفكرة تزعم أن اليابان سيدة العالم وإنها لابد وأن تسيطر على الدول المحيطة،وقد تحدثنا عن هذه الفكرة باستفاضة فى كتابنا السابق تاريخ اليابان الحديث والمعاصر-عصرى طايشو - شوا"صـــــ ١٩٠ .

ومما لا شك فيه أن طموح اليابان الجامح فى السيطرة على دول الجوار قد أثر تأثيراً سيئاً إلى حد كبير على هذه الدول.وأن هذا الطموح أوجد حالة من العداء الرهيب والكراهية الشديدة ضد اليابان من شعوب هذه البلاد سواء فى محاولة هديوشى فى نهاية القرن السادس عشر أو فى محاولات اليابان فى السيطرة على هذه البلاد منذ مطلع القرن العشرين.

وعلى الرغم من نبذ اليابان لأساليب التعالى والغطرسة منذ أن لاقت هزيمتها الكبيرة فى نهاية الحرب العالمية الثانية، وعلى الرغم من تحولها لتكون بلداً مسالماً إلا أن هذا لم يشفع لها حتى تتجلى هذه الغصبة الأسيوية نحوها، ربما لعظم الجرم الذى أرتكبه اليابانيون نحو الشعوب التى حاربوا ضدها واحتلوها ردحاً من الزمان. وربما كان ما حدث فى دورة أسيا لكرة القدم التى أقيمت فى الصين فى صيف عام ٢٠٠٤ وما لاقاه الفريق اليابانى من مظاهر ومشاعر العداء الواضحة من الجمهور الصينى هو أحدث مظاهر الكراهية والعداء نحو المستعمر اليابانى القديم على الرغم من التغيير الواضح فى السلوك اليابانى-كما ذكرنا سواء على المستوى الرسمى أو المستوى الشعبى.

(٥)عزلة إيدو ماذا قدمت لنهضة اليابان

لن نستطيع القفز للحديث عن نهضة اليابان فى عصر ميجى دون الحديث عن عزلة عصر ايدو وتأثيرها الإيجابى على نهضة اليابان. فبعد أن تحققت وحدة اليابان بصورة تامة على يد طوكوجاوا إيياسو، وبعد أن

استقرت الأمور في البلاد وقبض إيياسو على مقاليدها بدأت اليابان تعرف السلام بمعناه الحقيقي. فبالانتصار الساحق الذى أحرزه طوكوجاوا إيياسو في موقعة سيكي جاهارا Sekigaharaعام ١٦٠٠ إستطاع ضم مساحات شاسعة من الأراضي. ثم عين في عام ١٦٠٣ من قبل الإمبراطور في منصب الشوجون الأعظم أو ما يمكن أن نطلق عليه الآن القائد الأعلى للقوات المسلحة. ثم دانت له البلاد تماماً عندما قضى قضاءاً مبرماً على فلول القوى التابعة لطويوطومي هيديوشي وذلك في معركتى الشتاء والصيف في أوساكا وذلك قبل وفاته بعام واحد.

وفي عصر ايدو نجد العديد من الشوجونات ووزرائهم حاولوا القيام بإصلاحات كبيرة، ويمكن أن نعدهم سابقين لعصرهم، مثل الشوجون الثامن يوشيموني Yoshionune الذى تولى الحكم من عام ١٧١٦ إلى عام ١٧٤٥. كذلك نجد الوزير تانوما أوكيتسوجو Tanuma Okitsugu الذى تولى منصب المستشار للشوجون التاسع إيشيجي Ieshige ، وإمتدت سلطاته في عهد الشوجون العاشر أيضاً أى منذ عام ١٧٤٥ وحتى عام ١٧٨٠. وقد قام هذا المستشار بعدة إصلاحات داخليه على الرغم من شهرته السيئة في تعاطى الرشاوى. إلا أننا هنا سوف نحلل بالتفصيل فترة الشوجون الثالث إيميتسو وقراراته التى أثرت إلى حد بعيد في اليابان لفترة طويلة. فعلى الرغم من تولى إيميتسو الشوجونية في عام ١٦٢٣ وهو في سن العشرين إلا أن وجود والده على قيد الحياة وممارسته لبعض السياسة جعل إيميتسو يتردد في اتخاذ قراراته السياسية بحرية وانطلاق. إلا أنه ما إن يتوفى والده في عام ١٦٣٢ حتى بدأ يتخذ القرارات القوية والمؤثرة إلى حد كبير في تاريخ اليابان. فكان أول قراراته الشهيرة هو إقرار نظام دوام حكام

الأقاليم (Sankin Kotai) وهذا النظام كان يجبر الدايميوات على إرسال أولادهم وزوجاتهم للمعيشة فى عاصمة البلاد بالقرب من مقر الحاكم ربما ليجعلهم الشوجون كرهائن عنده حتى لا يستطيع أى حاكم إقليمى أن يشق عصا الطاعة على سيده الشوجون. وكذلك من أجل إرهاق هؤلاء الدايميوات مادياً فقد كان عليهم أن يذهبوا للحياة فى إيدو عاماً بعد عام وهم يصطحبون حاشيتهم وأتباعهم فى مواكب عظيمة. ويمكن القول أن لهذه المواكب تأثيراً أخر لم يكن يقصده الشوجون وهو إنعاش حركة التجارة والسياحة بين مقرات حكام الأقاليم فى مختلف بقاع البلاد وبين العاصمة إيدو. نظراً للأعداد الكبيرة التى كانت تضمها تلك المواكب سواء من أقارب الدايميو أو حاشيته. كذلك عمل هذا النظام على تطوير العاصمة إيدو وازدهارها نظراً لإنشاء العديد من القصور والبيوت لأهالى الدايميو وكذلك بناء فنادق ليمكث بها حاشية الدايميو.

وإلى جانب نظام مداومة الدايميوات (Sankin Kotai) يمكن أن نعتبر إخماد ثورة شيمابارا (١٦٣٧-١٦٣٨) من أهم الأحداث التاريخية فى عهد الشوجون الثالث إييميتسو بل ربما فى التاريخ اليابانى بأكمله نظراً للنتائج الخطيرة التى نجمت عن هذه الثورة المسيحية الفلاحية. فقد إتحدت أهداف المؤمنين من الفلاحين المسيحيين بأهداف عامة الفلاحين اليابانيين من أجل الخلاص من سطوة وجبروت حكومة الباكفو سواء تساوى ذلك فى الخلاص من الضغط الدينى على المسيحيين اليابانيين أو الخلاص من الضغط المادى المتمثل فى فرض الضرائب على الفلاحين سواء كانو مسيحيين أم بوذيين أو حتى شنتويين أى الذين يعبدون الأمبراطور اليابانى وأسلافه. ولكن نظراً لإستعمال الباكفو للقوة المبالغ فيها فقد تم إخماد تلك

الثورة. وكما ذكرنا آنفاً استطاعت حكومة الباكفو بذلك أن تضرب عصفورين بحجر واحد، وذلك بالقضاء على أقوى مركز للمسيحيين باليابان وكذلك بإخضاع الفلاحين وضمان عدم ثورتهم على أية قوانين وأوامر جائرة عليهم وهذا ما تحقق بالفعل طوال عصر ايدو إلا من بعض الثورات التى قلما ما كانت تحدث. وفى هذا الصدد كان لفرمان كيان Keianno Ofuregaki الذى أصدره إيميتسو فى عام ١٦٤٩ الدور الرئيسى فى قهر الفلاح اليابانى خلال معظم فترات عصر ايدو وجعل حياة الفلاحين قاسية غير محتملة. وكأن ايميتسو أراد أن يطبق المبدأ أو النصيحة التى أطلقها جده طوكوجاوا إيياسو فى أن الحكام لابد وأن لا يجعلوا الفلاح يموت ولا يجعلوه يعيش أو بمعنى اخر أن الفلاح يجب أن يعيش على الكفاف وأن يحلب كالشاة لكى يعطى الخير للأخرين دون أن يكون له نصيب من هذا الخير الذى ينتجه. وحين نلقى نظرة على محتوى فرمان "كيان" نستطيع أن ندرك كيف تحولت حياة الفلاح اليابانى إلى جحيم. فطبقاً لهذا الفرمان فأنه يتعين على جميع الفلاحين أن يطيعوا تماماً أوامر الشوجون وحكومة الباكفو ثم بعد ذلك عليهم إطاعة أوامر العمد وممثلى الشوجون ورؤساء الجماعات وغيرهم من الموظفين العموميين. وعلى المزارعين أيضاً الإلتزام بزراعة الأراضى وألا يشتروا الخمر والشاى وكذلك عدم تناولوهما.ويجب عليهم الإمتناع عن التدخين. ثم أن عليهم ألا يجعلوا الأرز هو غذاءهم الرئيسى على الرغم من أنهم هم منتجوه وأنهم حظوا بالرتبة الثانية فى المجتمع اليابانى بعد المحاربين بسبب إنتاجهم لهذا المحصول الهام جداً لليابان. ولكننا على أية حال نرى مدى تعسف السلطات فى تعاملها مع الفلاحين. وهذا التعسف سوف نراه يتكرر مرات ومرات ليس فقط مع الفلاحين ولكن أيضاً

مع سكان المدن. بل أن القواعد الصارمة كانت تفرض حتى على حكام الأقاليم وكان عليهم أن يتبعوها بحذافيرها، وإلا واجهوا عواقب وخيمة. فقد شرحنا تواً ما كان على حكام الأقاليم من أداء ما عرف بنظام السنكين كوتاى. وثم قانون أخر كان يمنع خروج زوجات الذينوات من العاصمة ايدو حيث كن يعاملن كرهائن عند الشوجون. وكان ممنوعاً أيضاً دخول البنادق والأسلحة المختلفة إلى العاصمة ايدو حتى لا يحدث هذا فوضى وثورات ضد الشوجون وهذا ما عرف Irideppo De Onna .

وعلى الرغم من حدوث ثورات فلاحية وشعبية فى المدن بسبب القسوة الحكومية والمجاعات ونقص المواد التموينية إلا أن الملاحظ أن الطاعة وتنفيذ الأوامر كانا الغالبين على سلوك المواطنين. وربما يرجع ذلك إلى انتشار الثقافة الكونفوشية بسبب تشجيع الشوجون وحكومة الباكفو لهذه الثقافة التى تحض على طاعة المواطنين لأسيادهم الحكام. ونزعم من جانبنا أن هذا الفكر المتشدد بل والمتطرف فى إطاعة ولى الأمر ما زال متغلغلاً فى المجتمع اليابانى حتى يومنا هذا وأن طاعة الأوامر والقواعد العامة ما هى إلا إحدى نتائج هذا الفكر.

لقد أدى احترام كل فئة من فئات المجتمع اليابانى للقواعد والقوانين الصارمة التى كانت تصدرها حكومة الشوجون إييميتسو العسكرية إلى استتباب الأمن واستقرار قواعد حكومة ايدو. وقد إلتزم الساموراى بعدم التعدى على الفلاحين وسائر القوى المنتجة الأخرى. ولذلك بلغ التراكم الاقتصادى فى اليابان فى مطلع القرن الثامن عشر درجة من التطور والتنامى لم تصل إليها الكثير من الدول الأوربية ونعمت معظم المدن اليابانية بدرجة كبيرة من الأمن والسلام لذلك فإن اليابانيين قد لا يتذكرون من

الشوجونات الخمس عشر الذين حكموا خلال عصر ايدو سوى أربعة أو خمسة على الأكثر منهم الشوجون الثالث ايميتسو .

ونأتي للحديث عن أهم وأخطر قرار اتخذه الشوجون الثالث ايميتسو ألا وهو قرار العزلة الذى أصدره فى عام ١٦٣٣ وتلاه بعده قرارات حتى عام ١٦٣٦ نصت على ما يلى :

١- عدم خروج اليابانيين من اليابان أو العودة لها من الخارج .

٢- تحريم الديانة المسيحية فى اليابان.

٣- التحكم فى التجارة الخارجية .

ثم توالت بعد ذلك الإجراءات التى تؤكد وتعضد الاتجاه نحو العزلة وكان أكثرها قسوة تلك الهجمة الضارية ضد المسيحية عند حدوث ثورة شيمابارا المسيحية والتى تحدثنا عنها فيما قبل، ثم منعت حكومة الباكفو فى عام ١٦٣٩ قدوم السفن البرتغالية لليابان ، وبعد ذلك بعامين تم نقل المركز التجارى الهولندى إلى جزيرة دشيما الموجودة فى نجاساكى.

هذه العزلة المتطرفة إلى حد كبير والتى إستمرت أكثر من مائتى عام فرضت على الرغم من الخطوات الإيجابية التى اتخذها مؤسس حكومة باكفو طوكوجاوا إيياسو من أجل التعامل الإيجابى مع الغرب لتنمية التجارة الخارجية بين الطرفين،حتى أنه إستعان بملاحين هولندى وإنجليزى كمستشارين الأول تجارى والثانى دبلوماسى بل وحثهما على إقامة تبادل تجارى مع كل من بلديهما. بل أن التاريخ اليابانى يعطينا مثالاً أكثر إيجابية من أجل التعاون مع الغرب وذلك عندما أرسل حاكم مقاطعة سنداى داتى ماسامونى Date Masamune (١٥٦٧-١٦٣٦) تابعا له يدعى هاسكورا

تسونى ناجا Hasekura Tsunenaga على رأس بعثة تجارية لأوروبا فـــى عام ١٦١٣ وعادت إلى اليابان فى عام ١٦٢٠ وكانت تلك البعثة تضم ١٤٠ يابانيا ومعهم ٤٠ أجنبى، وقد حالت هذه البعثة عـدة دول مثــل المكســيك وأسبانيا. ولم يكن هدف البعثة تجارياً فقط بل كان عسـكرياً أيضــاً. لأن ماسامونى هذا كان يعد من المحاربين الأشداء الذين اشتهروا فـــى عصــر الحروب الذى ساد اليابان قبيل عصر ايدو، ولذلك فكان من ضـــمن أهدافــه جلب أحدث الأسلحة من بنادق وغيرها. وما يهمنا هنـــا لــيس ســرد هــذه الأحداث التاريخية من محاولة اليابانيين التقرب للغرب، ولكن ما يعنينا هــو كيفية التحول الشديد فى مجريات السياسة اليابانية منذ وقت مبكر فى بدايات القرن السابع عشر من محاولة التقرب للغرب ثم الابتعاد عنــه منــذ عهــد الشوجون الثالث ايميتسو كما ذكرنا انفاً. ثم بعد ذلك فى بداية عصر ميجى عندما إتجهت اليابان بكل جوارحها نحو الغرب تنقل عنه معظــم بــل كــل مظاهر حضارته من مأكل وملبس وطرائق التصنيع وطرائق التعليم والتسليح والتجييش وغير ذلك من نظم الغرب كما سوف يمر علينا عند الحديث عــن نهضة ميجى بإذن الله.

ثم عندما اصطدمت مصالح اليابان مع مصـــالح الــدول الغربيــة وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية منذ العشرينات من القــرن العشــرين وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية تحول الحب الجارف للغرب إلى كراهية متناهية حتى لدرجة أن السلطات حرمت تعليم اللغة الإنجليزية فى المدارس لأنها لغة العدو وهو ما ذكرناه باستفاضة فى كتابنا السابق "تاريخ اليابــان الحديث والمعاصر عصر طايشو-ايدو ١٩١٢-١٩٨٩"

وهنا يجدر بنا ذكر نقطة هامة جداً تتعلق بالقرارات التاريخية اليابانية إذ أننا نرى أن هذه القرارات قد تحررت تماماً من الناحية العاطفية والالتزام الدينى أو حتى القومى نحو الغرب أو حتى نحو الدول الجوار التى إذا كانت تشترك فى الموروث الحضارى إلى حد ما فهى لا تشترك فى اللغة مع اليابان فاللغة اليابانية مختلفة تماماً عن اللغة الكورية أو اللغة الصينية إلا من النظام الكتابى للغات الثلاث وحتى هذا النظام الكتابى ابتعدت عنه كوريا لتستعمل نظام كتابى جديد. ومن ناحية الدين فإذا كانت البوذية موجودة كعامل مشترك فى معظم دول جنوب شرق أسيا، إلا أننا نجد أن اليابان تتأثر بديانة مختلفة تماماً عن كل ديانات هذه المنطقة ألا وهى الديانة الشنتوية وهى عبادة أسلاف الأباطرة اليابانيين فالأختلاف إذن سوف يكون بيناً بالنسبة للغرب على جميع النواحى سواء اللغوية أو الإجتماعية أو التاريخية، وحتى الناحية الدينية التى كان يمكن أن تجد لها طريقاً إلى قلوب اليابانيين تم وأدها مبكراً عندما قضى على جذور المسيحية اليابانية فى ثورة شيمابارا كما ذكرنا انفاً، ولذلك فأن عدد المؤمنين بالمسيحية الآن فى اليابان لا يزيد عن واحد بالمائة.وهذا بالطبع لم يكن ليؤثر على الإطلاق فى اتخاذ القرارات اليابانية سواء السياسية أو الحربية حيال الغرب الذى يؤمن فى الأساس بالديانة المسيحية. وهذا الوضع وتلك الظروف لم تكن متاحة لمصر عند تعاملها مع دول الجوار أو مع الدولة العثمانية التى أضطر المصريون أن يتحملوا مساوئ حكمها لبلادهم لقرون عديدة بسبب العاطفة الدينية، فالسلطان العثمانى هو خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك نجد أن الحركات القومية والثورية التى حدثت فى مصر فشلت جزئياً أو كلياً بسبب هذه التأثيرات الدينية كما

حدث في تجربة على بك الكبير في الربع الأخير من القرن الثامن عشر وتجربة محمد على النهضوية في النصف الأول من القرن التاسع عشر والثورة العرابية في نهاية القرن نفسه .

نعود مرة أخرى للحديث عن عصر إيدو ونستأذن القارئ الكريم في أن نطيل قليلاً في الحديث عن هذا العصر وأثر ما ساده من أمن وسلام وارتقاء ثقافي على النهضة اليابانية الكبيرة والعظيمة التي حدثت منذ بداية عصر ميجي. فما من شك أن ما يزيد عن قرنين ونصف القرن من الاستقرار الأمني والسياسي وكذلك الإقتصادي أثرت إلى حد كبير في حياة اليابانيين ومجتمعهم على مختلف النواحي. ولذلك كان لاستقرار حياة الفلاحين وضمان حكومة الباكوفو لأمنهم وحمايتهم من استبداد الساموراي أو المحاربين إلى جانب الاهتمام بمشاريع الري المختلفة الأثر الإيجابي في ارتفاع إنتاج المحصول الرئيسي والهام جداً لليابانيين ألا وهو الأرز. وكانت الضرائب العينية على الأرز والمحاصيل الأخرى تتراوح بين ٤٠ - ٦٠% حسب مساحة الأرض التي كان يمتلكها الهونبيكوشو أو ما يعني الفلاحين الأغنياء الذين يمتلكون بالفعل الأراضي وليس الأجراء. وكل هذه الضرائب كانت تذهب لحكومة الباكوفو التي أثرت كثيرا بها وبضرائب أخرى فرضت على الجبال والغابات والبراري والأنهار وحتى البحار . هذا الى جانب الضرائب التي كانت تفرض على محطات الإقامة الواقعة على الطرق الخمس الرئيسية. وكما ذكرنا آنفا فإن هذه المحطات وتلك الطرق كانت تعج بالمسافرين سواء بسبب فرض إجراء الدوام للديميوات (سانكين كوتاي) أو بهدف ديني يتمثل في قيام الكثير من المؤمنين سواء

بالشنتوية أو بالبوذية برحلات حج مختلفة لكثير من المعابد المتناثرة فى كل أنحاء البلاد.

ومن أبرز مظاهر التطور الإقتصادى والإجتماعى فى عصر ايدو هو ازدياد عدد المدن بشكل واضح وذلك خلال مائة وخمسون عاما. ففى حين كان عدد المدن فى عام ١٦٠٣ أى فى بداية عصر ايدو حوالى ٣٠٠ مدينة نجد أن هذا العدد يزداد ليصل إلى ١٦٨٧ مدينة فى عام ١٧٤٥ أى ما يزيد على ٥ أضعاف عددها فى عهد طوكوجاوا ايياسو، وهذا بالطبع يوضح لنا مدى التنامى الإقتصادى والإجتماعى خلال عصر ايدو بسبب الاستقرار الإقتصادى و الإجتماعى و السياسى أيضاً .

ونظرة على عدد سكان المدن الرئيسية اليابانية فى النصف الأول من القرن الثامن عشر يعطينا دلالات واضحة عن مدى تطور تلك المدن وازدهارها ففى عام ١٧٣١ كان سكان العاصمة ايدو يتكونون من ٥٢٧٠٠٠ نسمة من المدنيين و التجار ثم ٢٦ ألف من رجال الدين ونحو نصف مليون نسمة من المحاربين (الساموراى) و أسرهم . وهذا يعنى أن عدد سكان ايدو فى النصف الأول من القرن الثامن عشر تجاوز المليون نسمة وهو ما لم يكن له مثال فى أى مدينة كبرى من المدن الأوربية ، أما عن سكان أوساكا فقد وصل إلى ما يقرب من ٣٥٠ ألف نسمة فى عام ١٧٠٣ . أما كيوطو العاصمة القديمة ومكان تواجد الأمبراطور فقد وصل عدد سكانها فى مطلع القرن السابع عشر إلى ما يقرب من ٣٥٠ ألف نسمة أيضاً وذلك لأهميتها السياسية و التاريخية أما المدن التى كان يقل عدد سكانها عن المائة ألف نسمة فكانت عديدة مثل ناجويا و كانازاوا وكاياما

وأوكاياما و كذلك المدن الملاحية مثل ناجاساكي و ساكاى فقد وصل عدد السكان فيها إلى ما يقرب من ٦٠ ألف نسمة .

إلا أن وضعاً غريباً ساد أحوال الطبقات الأربع التى قسم إليها المجتمع اليابانى و هى على الترتيب المحاربين ثم المزارعين ثم الصناع وفى ذيل القائمة يأتى التجار . ذلك لأن المجتمع اليابانى خلال عصر إيدو كان مجتمعاً إقطاعياً صرفاً و كان اليابانيون يميلون ميلاً طبيعياً للزراعة . ولذلك أعطت القيادة السياسية اليابانية قيمة كبرى للزراعة و المزارعين ولذلك وضعتهم فى المرتبة التالية للمحاربين ومع ذلك فرضت عليهم رسوماً ضريبية عالية كما ذكرنا آنفاً.

أما التجارة التى كان ينظر إليها بازدراء فلم تفرض عليها سوى رسوم ضريبية قليلة و غير مباشرة ، و قد نتج عن هذا الوضع الغريب وفى ظل التكامل الإقتصادى على مستوى الأمة كلها ، نمو طبقة من تجار المدن الأثرياء ، و خصوصاً تجار المدن الكبرى مثل مدينة أوساكا التى نمت نمواً عظيماً خلال عهد طوكوجاوا و ذلك فى ظل حماية مباشرة من حكومة الـ"كفو . و لذلك ظهرت البيوت التجارية الكبرى مثل بيوت تخمير البيرة و تخزين سلع الجافة ، و بيوت الإقراض المالى ومن أبرز هذه البيوت التجارية بيت "ميتسوى " الذى تخصص فى الأعمال المالية وإقراض النقود ، و بيت سوميطومو الذى تخصص فى تشغيل مناجم النحاس و تجارته و غيرهما من البيوت المالية التجارية التى مازالت تتحكم فى الأقتصاد اليابانى حتى يومنا هذا .

إلا أنه على الرغم من تلك الظاهرة السلبية التى تفشت خلال عصر إيدو من ارتفاع مرتبة التجار و عظم ثرواتهم المالية على حساب الفلاح

الذى يدفع الضرائب سواء عينية أو نقدية فى حين أن التجار لـــم يكونـــوا يدفعوا إلا أقل القليل من الضرائب كما ذكرنا آنفاً ، إلا أن ظاهرة إيجابيـــة أخرى ظهرت فى عصر طوكوجاوا وهـــى انصـــهار المحـــاربين داخـــل المجتمع الريفى . وذلك يرجع الفضل فيه إلى الشوجون هيديوشـــى لأنـــه وضع خطاً دقيقاً للفصل بين الفلاحين و الفرسان ، و هذا مـــا أدى إلـــى تحرر الريف من إشراف الإقطاعيين الصارم .

فقد وضع هيديوشى المحاربين بين خيارين إما أن ينتقلوا من الريف مـــع سادتهم الإقطاعيين إلى مدنهم القلاعية بوصفهم الساموراى التـــابعين لهـــم مقابل رواتب ثابتة يتقاضونها ، وإما أن يواصلوا حياتهم فـــى أراضـــيهم وينضموا إلى طبقة الفلاحين . و قد اختار كثير من الســـاموراى الوضـــع الثانى و هو البقاء فى الريف خشية فقدان أراضيهم . و مع الوقـــت تحـــول هؤلاء المحاربون إلى رؤساء للقرى و زعماء فى المجتمع الريفى . و بذلك تكونت قيادات محلية تحلـــت بكثيـــر مـــن مواقـــف طبقـــة الســـاموراى وأخلاقياتهم . و هذا ما عاد بالإيجاب على المجتمع الريفى اليابانى حتـــى اليوم .

و على الرغم من أن موضوع كتابنا الرئيسى هذا ليس عصـــر إيـــدو ومظاهره في التقدم و الرخاء و الاستقرار التى سادت معظم فتـــرات هـــذا العصر . إلا أننا نجد أن الحديث عن هذه المظاهر على أهمية كبيـــرة جـــداً للرد على سؤال يحير أذهان العديد من الباحثين عن ســـر التقـــدم اليابـــانى المفاجئ بل أنه يحير المواطن المصرى العادى حينما يأتى الكلام عن تقـــدم اليابان و تأخر مصر أو بالأحرى عدم تقدمها بنفس اليون الذى تقـــدمت بـــه

اليابان ومعظم الناس سواء الباحثون أو العاديون يعتقدون خطأ أن النهضة المصرية بدأت مبكرة عن النهضة اليابانية .

ومن وجهة نظرنا نجد أن مظاهر النهضة التى سادت عصر ايدو وخاصة فى نهاية القرن الثامن عشر مما عرف بنشاط علماء الرانجاجوشا Rangakusha أو ما يعنى علماء الهولندية وهم العلماء اليابانيون الذين نقلوا العلم الغربى عن طريق الكتب الهولندية ما هو إلا إرهاصاً كبيراً لنهضة ميجى أو ما يمكن أن نطلق عليه النهضة الصغرى .فربما يندهش القارئ لهذا النشاط العلمى المبكر لهؤلاء العلماء اليابانيون ويندهش أيضاً بل ليحزن عندما يرى المستوى المتدنى للعلم و العلماء فى مصر عند مجئ الحملة الفرنسية لمصر وما حصل للجبرتى ورفاقه من إندهاش عندما شاهدوا التجارب العلمية وكذلك الوسائل العلمية الحديدة التى أتى بها علماء الحملة الفرنسية الذين أتى بهم نابليون مع حملته على مصر . و هذا ما سوف نتحدث عنه بعد الحديث عن مظاهر التقدم العلمى الذى حدث فى اليابان حتى قبل مجئ الحملة الفرنسية على مصر بحوالى عشرين عاماً . و هنا أحب أن أنبه القارئ أن محاولة المقارنة هذه التى نعقدها ليس هدفها الإنبهار بالمعجزة اليابانية فى تحقيق نهضة شاملة فى جميع نواحى الحياة . بل إن هدفنا هو فى الحقيقة هو العكس تماماً ، وهو نزع هذا الانبهار و الإعجاب بالمعجزة اليابانية الحديثة . لأن الحقيقة هى أن هذه التجربة وتلك المعجزة لها جذور عميقة فى المجتمع اليابانى . و الهدف الثانى هو إزالة الظلم الواقع على التجربة النهضوية المصرية التى بدأت متأخرة عن التجربة اليابانية وعلى أساس طموح فردى وشخصى من الوالى محمد على كما سيجئ الحديث فيما بعد .

ونعود للحديث عن نشـــاط علمـــاء الهولنديـــة ، ويعـــد ســـوجيتاجنباكو Sugita Genbaku (١٧٣٣-١٨١٧) ومابنوريبووتــــاكو Maeno Ryōtaku (١٧٢٣-١٨٠٣) من أشهر العلماء الذين قاما بمجهود وافـــر من أجل ترجمة و تأليف كتب الطب و التشريح . ويعد كتب "الكتاب الجديد في التشريح " Kaitaishinsho من أشهر تلك الكتب التي قام بترجمتهـــا هذان العالمان في عام ١٧٧٤ ، وقد إشترك معهما ستة علماء أخرون عـــن أماكن متباعدة ومناصب مختلفة في ترجمة هذا الكتاب المهم في التشـــريح ، والذى قام بتأليفه عالم تشريح ألماني في عام ١٧٣٤ بأسم " طاهير أناطومي " و الذى يلفت النظر هنا هو روح الفريق التي كانت منذ القدم سبيل التقـــدم والرقي في اليابان . وهذه الروح مازالت قوية حتى الان . ولربما ندهش أن نجد قاموساً في الأدب لا تتعدى صفحاته ٤٠٠ صفحه يشترك فيه ما يزيـــد عن ٤٠٠ عالم متخصص

وقصة ترجمة الكتاب السالف ذكره و ما حاط به من مصاعب تستأهل ذكرها . فلم يكن يعرف الهولندية من بين العلماء الذين قاموا بترجمة كتـــاب التشريح الهولندى سوى العالم مينوريورتاكو ، وقد تعلم ماينو الهولندية على يد رجل هولندى كان يعيش في مدينة ناجاساكي ، وبعد انتهاء فترة مكوثه في ناجاساكي و دراسته لبعض اللغة أعطاه هـــذا الهولنـــدى كتـــاب التشـــريح المكتوب بالهولندية ، و عاد الى أيدو عازماً على ترجمة هذا الكتـــاب إلـــى اللغة اليابانية نظراً لأهميته الكبيرة في علم التشريح و في الحقيقة فإنه كـــان هناك كتاب قديم في التشريح ألفه رائد العلماء الهولنديين في اليابـــان و هـــو الطبيب ياماواكي طويـــو Yamawaki Toyo (١٧٠٥ – ١٧٦٢) إلا أن كتاب "طاهيرو أناطومي" للتشريح أدق منه ،ولكن ما يسترعي انتباهنا هنا هو

أن الطبيب ياماوأكى المتوفى فى عام ١٧٦٢ كان قد قــام بتشــريح جثــث المحكوم عليهم بالإعدام وأجتهد وأصدر كتاب التشريح الأول فــى اليابــان والذى يعرف بأسم Zoshi

على أية حال قام ماينور يووتاكو بتدريس بعض الهولندية لســوجبتا جنباكو إلا أنهما عندما كانا يعجزان عن الترجمة فقد كانا ورفاقهما يقومــون بالأستعانة بالهولنديين الذين كانو يأتون أحياناً إلى إيدو. وأخيرا وبعد تعــب وشقاء استطاعا أن ينجزا ترجمة كتاب التشريح فــى عــام ١٧٧٤ وبعــد وفاتهما أخذ تلميذهما فى العلوم الهولنديــة أوتســوكو جنتــاكو Ootsuki Gentaku (١٧٥٧-١٨٢٧) على عاتقه ليس فقط الارتقاء بالطــب ولكــن أيضا بعلوم الحيوان والنبات والعلوم الطبيعية وعلم الفلك وغيرها من العلوم.

الفصل الثالث

الأوضاع فى مصر

قبل نهضة محمد على

الفصل الثالث

الأوضاع فى مصر قبل نهضة محمد على

ولكن ماذا كان الحال فى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر قبل مجئ الحملة الفرنسية على مصر وقبل مجئ محمد على إلى مصر.

الحقيقة أنه مهما كان الوضع سيئاً فى اليابان من مثل حدوث اضطرابات سياسية فى بعض الأحيان وثورات شعبية فى أحيان أخرى بسبب نقص الأغذية وغير ذلك من الأسباب، إلا أنه فى الحقيقة كان الوضع فى مصر أسوأ بكثير فقد كان هناك اضمحلال شديد على كل الأصعدة والمجالات تقريباً. فقد آلت الحالة الإقتصادية فى البلاد إلى وضع يرثى له بسبب إهمال معظم الولاة العثمانيين والبكوات المماليك أمور الرى وتوزيع المياه وإقامة القناطر والجسور وحفظ الأمن، فجفت الترع وتلفت الأراضى وتعطلت الزراعة وفقد الأمن وذهبت ثروة البلاد وهاجر الكثير من سكان القطر إلى البلاد المجاورة.

وليس هناك أفضل من كتاب المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتى "تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار" كى يعطينا صورة واضحة على اضمحلال الأحوال الاقتصادية فى البلاد فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر. ففى معرض حديثه عن أحداث عام ١٨٧٤ وكان حاكم مصر آنذاك يدعى محمد باشا، يقول الجبرتى أن أيامه كلها كانت "محناً وغلاءً" ثم يذكر بعد ذلك أن هذه السنة كانت تشبه السنة السابقة لها "فى الشدة والغلاء، وقصور النيل" وربط الجبرتى بين هذه الأوضاع وبين الفتن المستمرة، وانتشار أتباعهم لجمع الأموال من القرى والبلدان وإجبارهم للأهالى على دفع الأتاوات والفرده إلى حد أن ذلك قد أهلك الفلاحين وضاق ذرعهم وأشتد كربهم، ولم يجدوا سوى أن يطفشوا من البلاد. ولم تكن هذه الحالة المذرية

هى حالة الفقراء من المصريين فقط بل أن المساتير من الناس -على حد قول الجبرتى - اضطروا هم أيضاً إلى بيع أمتعتهم ودورهم . وكان رجال السلطة يتتبعون كل من "يشم فيه رائحة الغنى" وكانوا يزجون به فى السجن،ويطالبونه بأضعاف ما كان يقدر عليه. ولقد أدى ذلك إلى خراب الأقليم، وجلاء الفلاحين عن أراضيهم بسبب هذا الظلم وإنتشار الكثير منهم فى العاصمة، ومعهم نساءهم وأولادهم،يصيحون من الجوع، ويأكلون ما يجدونه فى الطرقات،لدرجة أن الزبال كان لا يجد شيئاً يكنسه.

ويصل الحال كما يروى الجبرتى، إلى أنهم قد أكلوا ما يموت من الخيل والحمير والجمال، ولقد مات الكثير من الفقراء بالجوع. وظل هذا الغلاء مستمراً وكانت الدراهم قليلة فى أيدى الناس، فقل التعامل إلا فيما يؤكل ، وأقتصر حديث الناس على ذكر المأكل والقمح والسمن. وضاعت مصلحة الأهالى تماماً نتيجة لموقف رجال السلطة من بعضهم، ومن غبنهم للمصريين، ونتيجة لهذه الفوضى التى كانت تتمثل فى خروج طائفة ورجوع طائفة أخرى.

وفى مصدر أخر يحدثنا محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى فى كتابه " كشف الكربة فى رفع الطلبة" عن تدهور حالة الأمن فى الريف المصرى ومدى معاناة الفلاحين من الأعمال الإجرامية التى كانت تقوم بها الوجاقات العثمانية، والمعترض فيهم أنهم كانو يحملون مسئولية حفظ الأمن فى الأرياف ومراقبة الأراضى الزراعية والمحافظة على شبكات الرى، والإشراف على توزيع المياه فى القرى، وحماية الفلاحين من غارات البدو، إلا أنهم استغلوا نفوذهم فى الريف إلى درجة كبيرة مكنتهم من السيطرة على كثير من الالتزامات حتى أصبحوا يشكلون النسبة الغالبة من الملتزمين ،

وبدلاً من أن يكونوا مصدرا للأمن والنظام صاروا مصدراً لترهيب وتخويف أهل الريف فسلبوا الغلال، ونشروا الموبقات واشتهرت من بين هذه الوحاقات جماعة السباهية فقد كانت أحطهم خلقاً وأشدهم في ممارسة الأعمال الإجرامية. وكان الفلاحون يرهبون هؤلاء العساكر العثمانية ويبغضونهم أشد البغض، فقد كان مجرد اقترابهم من القرية يسبب القلق والفزع لسكانها، لأن ذلك لا يعني إلا طلب الأموال.وهتك الأعراض. وعندما حاولت السلطة المركزية وضع حد لما يسمى (الطُلبة) وهي المغارم والإتاوات المعروفة بأسم (حق الطريق) عندئذ ثار السباهية، وانطلقوا كالوعول الهائجة يدمرون ويسفكون الدماء.

ويستمر محمد بن أبي السرور البكري الصديقي في وصف أحوال مصر المتدهورة فيقول " إن مصر اختل أمرها، وضاقت معيشة أهلها، وكثر شرها، وضربت قراها، وضعف فلاحوها، وانفصمت عراها، وانقلبت أحوالها. وخست أموالها، ونقصت غلالها" .

ويستطرد محمد بن أبي سرور في وصف هذه الحالة المذرية من الخراب والهلاك، إلا أن القارئ يمكن أن يصيبه الحزن والغم عندما يعلم مدى التدهور الأخلاقي الذي ساد البلاد من جراء أفعال هؤلاء الجنود العثمانية على الرغم من أنهم مسلمون مثل من يتحكمون فيهم من المصريين فهو يقول "وذلك غير ما صدر منهم من الأمور الشنيعة، والأفعال المنكرة الفظيعة، من الزنا واللواط جهاراً وافتضاض الأبكار نهاراً لا يتناهون عن منكر فعلوه ، ولا يأتمرون بأمر ولاتهم ولا يمتثلون ولا يتورعون عن تهديد الكشاف بما فيه القتل. ولما حاول والي البلاد إلغاء (الطُلبة) أو ما يمكن أن نطلق عليه الآن الإتاوة، فما كان من السباهية إلا أن قاموا بقتله ومعه أمير

آخر وطافوا برأسيهما فى شوارع القاهرة وهم يصيحون صيحات هيستيرية وعلقوهما على باب زويلة.

وعندما استطاع الوالى محمد باشا كسر شوكة السباهية المتمردة وقتل من قادتهم عدداً كبيراً، ونفى الباقيين إلى اليمن فقد عد ذلك انتصاراً كبيراً بل وفتحاً عثمانياً ثانياً لمصر. واستحق محمد باشا على هذا الانتصار أن يطلق عليه ألقاب مثل " معمر مصر " و "مبطل الطُلبة" وفى هذا دلالة على ضعف الدولة وقوة المتمردين وقسوة معاناة المواطنين الذين كانت معاناتهم من سوء الأحوال أشد كثيراً من الحكام.

وهنا لابد وأن نقارن بين الوضع الأمنى المتدهور السابق ذكره وبين الوضع الأمنى المستتب فى اليابان والذى أعطاها الفرصة لكى تنتج وضعاً إقتصادياً وثقافياً مزدهراً متمثل فى ازدهار الزراعة والتجارة والصناعات الصغيرة. إلى جانب ازدهار ثقافى تجلى فى أزهى صورة فى ثقافة الجنركو .

وفى حين رأينا كيف تقدمت مختلف النواحى العلمية فى اليابان منذ نهاية القرن الثامن عشر نجد أن هذه النواحى لاقت اضمحلالاً شديداً فى تلك الفترة نفسها وحتى مجئ الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ م ولنا فى حديث الجبرتى ودهشته ومعه صفوة المصريين مما رأوه من التقدم العلمى الذى وصل إليه الفرنسيون دليلاً واضحاً على هذا التدهور. فحتى هذه الفترة لم يكن هناك منارة علمية ذات قيمة فى مصر سوى الأزهر، وحتى الأزهر ذاته كانت علومه تقتصر على النواحى الدينية ومبادئ الحساب. ففى حوادث عام ١٢١٣ هجرية ١٧٩٨ م يذكر لنا إعجابه بأبسط الوسائل التى كان الفرنسيون يستعملونها فيقول " كانوا يجعلون بدل الغلقان والقصاع عربات

صغيرة ويداها ممتدتان من خلف يملؤها الفاعل تراباً أو طيناً أو أحجاراً من مقدمها بسهولة بحيث تسع مقدار خمسة غلقان، ثم يقبض بيديه على خشبتيها المذكورتين ويدفعها أمامه فتجرى على عجلتها بأدنى مساعدة إلى محل العمل فيميلها بإحدى يديه ويفرغ ما فيها من غير تعب ولا مشقة، وكذلك لهم فؤوس وقزم محكمة الصنعة متقنة الوضع، وغالب الصناع من جنسهم ولا يقطعون الأحجار والأخشاب إلا بالطرق الهندسية على الزوايا القائمة والخطوط المستقيمة" وإذا كنا نستشعر هنا إعجاب و دهشة الجبرتى من ألة يدوية بسيطة إستخدمها الفرنسيين ، فسوف نجد أن هذا الإعجاب وتلك الدهشة سوف تتضاعف بطبيعة الحال عندما يرى ما كان يقوم به الفرنسيون من تجارب معملية فى الطب و الكيمياء فهو يذكر لنا فى حوادث نفس السنة (١٢١٣ هـ) ما يلى " و أفردوا مكاناً فى بيت حسن كاشف جركس لصناعة الحكمة و الطب الكيماوى و بنوا فيه تنانير مهندمة و آلات تقاطير عجيبة الوضع و ألات تصاعيد الأرواح و تقاطير المياه و خلاصات المفردات و أملاح الأرمدة مستخرجة من الأعشاب و النباتات و استخراج المياه الجلاءه و الحلاله وحول المكان الداخل قوارير و أوان من الزجاج البلورى المختلف الأشكال و الهيئات على الرفوف و السدلات و بداخلها أنواع المستخراجات " ويستمر الجبرتى فى إبداء إعجابه ودهشته فيقول " ومن أغرب ما رأيته فى ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة ، فصب منها شيئاً فى كأس ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى فعلا الماء و صعد منها دخان ملون حتى انقطع و جف ما فى الكأس و صار حجراً أصفر ، فقلبه على البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا و نظرناه ، ثم فعل كذلك بمياه أخرى

فجمد حجراً أزرق و بأخرى فجمد حجراً أحمر ياقوتياً . و أخذ مـــرة شـــيئاً قليلاً جداً من غبار أبيض ووضعه على السندان و ضربه بالمطرقة بلطـــف فخرج له صوت هائل كصوت القرابانه انزعجنا منه فضحكوا منــا" و فـــى الحقيقة فإن الأمثلة التى ذكرها الجبرتى و التى تظهر مدى التخلف العلمـــى الذى كان يعانى منه المصريون متعددة و لذلك فإن الباحث يرى أنـــه علـــى الرغم من فداحة و بشاعة الحملة الفرنسية مما اقترفته نحو المصريين سواء أثناء ثورتى القاهرة الأولى و الثانية أو عندما كانت تهاجم القرى و تحرقهـــا عن بكرة أبيها إذا عارضت قوات الحملة أو إذا لم تطـــع أوامرهـــا ، علـــى الرغم من كل هذه الأهوال فأننا لا نستطيع إغفال الآثار الإيجابيـــة للحملـــة الفرنسية على مصر و منها على سبيل المثال إذكاء الروح الوطنيـــة عنـــد المصريين و إشعارهم بذاتهم بعد مئات السنين من السبات العميق . و كذلك أثرها العلمى العميق الذى جاء نتيجة الأبحاث التى قام بها العلماء الفرنسيون فى مختلف المجالات التى تبلورت فى النهاية فى كتاب " وصف مصر " وما حواه هذا الكتاب العظيم من معلومات شتى عن مختلف النواحى فى مصر . هذا إلى جانب الإجراءات الفعلية التى أتخذتها الحملة الفرنسية و لـــم يكـــن للمصريين علم بها من ذى قبل ، مثل فرض الضرائب المباشرة و تســـجيل عقود الملكية و تسجيل المبانى و الحوانيت ، ووضع ميزانية لها إيـــرادات ومصروفات ، و البدء فى دراسة المشروعات الزراعية و الصناعية كـــذلك قام الفرنسيون أثناء وجودهم بمصر بإنشاء بعض المصانع اللازمة لتزويـــد قواتهم بالذخائر و الملابس و المواد الإستهلاكية . و كانت الحملـــة أيضـــاً بمثابة معول قوى هز بشدة قواعد النظام الإقطاعى الذى كان يسود مصر ، و بذلك نستطيع أن نقول أنها مهدت الطريق أمـــام الإجـــراءات والعمليـــات

الكثيرة التى قام بها محمد على بعد خروجها من مصر . بل إنه يمكن القول بأن محمد على حاول بكل جهده أن يحقق ما أخفقت فيه الحملة الفرنسية من تكوين دولة كبرى مستقلة فى آسيا و أفريقيا تكون مصر قاعدتها ، و كاد ينجح بالفعل فى تحقيق هذا الهدف لولا اصطدامه بالقوى الأوروبية كما سوف نذكر فيما بعد .

الباب الثانى

نهضتي

محمد علي وميجي

نهضتي محمد علي وميجي

إذا بدأنا حديثنا فى الباب الثانى عن نهضة محمد على التى أقامها بمصـــر . فلا نعتبر أن هذا تحيزاً منا لتلك النهضة العظيمة . و لكن السبب فى ذلـــك بسيط و منطقى إلى حد كبير ، و هو أن نهضة محمد على ســبقت نهضـــة ميجى بنحو ما يقرب من نصف قرن . و ذلك على الرغم من أن إرهاصات نهضة ميجى فى اليابان كانت أقدم و أقوى إلى حد كبير إذا قارنا بينها وبين نهضة محمد على و هذا ما ذكرناه بالتفصيل فى الباب الأول .

ويهمنا فى الحديث عن محمد على أن نتذكر دائماً أنه لم يكن مصـــرياً . وعلى الرغم من أن تلك حقيقة يعرفها العامة من الناس و ليس المتخصصين فقط ، إلا أن فى هذه الحقيقة على مشاعها ، فهى تدل على مدى عظمة هـــذا الوالى القادم من بلاد الألبان البعيدة عن مصر . و جاء لمصر ليقـيم بهـــا نهضة جعلت الغرب يتحسب لها بل لنقل إرتعب من خطورتهـــا و تأثيرهـــا عليه ، عندما وجد أنها قوة عظيمة و ليدة سوف تشكل نفس الخطر الـــذى شكلته الدولة العثمانية عليه عند بدء ظهورها . ولذلك أرادت الدول الأوروبية بزعامة بريطانيا أن تئد هذا الخطر الداهم . و عملت على عرقلته فى مهده . و ان كان فى غفلة منها قد كبر و تعاظم خطره . ولم يكـــن أمامـــه ســـوى خطوات قليلة حتى يسقط الرجل المريض .

والذى يسترعى نظرنا فى نهضتى محمد على وميجى أن هناك عـــدة نقاط تتشابه بين النهضتين . فمثلاً كل من النهضتين كانت نهضـــة شـــاملة ضمت تقريباً جميع النواحى ، سواء تعليمية أو إقتصـــادية أو صـــناعية أو زراعية أو حتى إجتماعية . هذا فضلاً عن أن كلا النهضتين حققتا تطـــوراً

حربياً بارزاً بسبب الأهداف الإمبريالية التى كانت تهدف إليهـا كـل مـن النهضتين .

ولكن برغم كل تلك النقاط المتشابهة بين النهضتين ، ألا أنه كان هناك أيضاً نقاط خلافية بينهما تتمثل فى الظروف الدولية المحيطة بالبلدين مصـر واليابان . بسبب الموقع الجغرافى المختلف تماماً بين البلدين . و كذلك بسبب إختلاف الظروف العقائدية . كذلك كان لعنصر التماثل العنصرى أثره الكبير فى الحالة اليابانية وعدم و حوده فى حالة مصر أثره الواضح أيضـاً هـذا فضلا عن أسباب أخرى ثانوية .

الفصل الأول

التعليم و البعثات فى نهضة محمد على

على الرغم من أن محمد على لم يعرف الكتابة و القراءة إلا بعد وصوله لمرحلة متقدمة من عمره ، ويقال أنه تعلمها بعد سن الأربعين ، إلا أنه رأى بثاقب ذهنه أن التعليم هو حجر الزاوية الهام جداً من أجل بناء إمبراطوريته التى طالما حلم بها . و لذلك حرص على إقامة نهضة تعليمية شاملة ضمت تقريباً كل النواحى التعليمية و تخصصاتها . ولكن لأن محمد على كان يؤمن بمبدأ الغاية تبرر الوسيلة فإنه بدأ أهتمامه بالتعليم العالى وليس بالتعليم الأولى أو الأبتدائى لأنه كان فى احتياج شديد له لسد العجز فى التخصصات التى تخدم الجيش الذى كان فى بؤرة اهتماماته . ثم فى مرحلة تالية أتجه للإهتمام بالتعليم الإبتدائى . وقد أنشأ محمد على عدة مدارس عليا كان أولها مدرسة الهندسة بالقلعة فى عام ١٨١٩ ، فى حين أننا نجد أول مدرسة ابتدائية فى اليابان قد أنشئت فى العام التاسع من عهد ميجى أى عام ١٨٧٧ أى أن الملاحظ أن نهضة ميجى اهتمت بالتعليم الإبتدائى قبل اهتمامها بالتعليم العالى و فى عام ١٨٢٧ أنشأ محمد على أول مدرسة عالية للطب فى مصر بأبى زعبل على مقربة من المستشفى العسكرى هناك حتى يتم تدريب الطلاب بهذا المستشفى . و هذا دليل واحد من عدة أدلة تشرح لنا كيف أن النهضة التعليمية التى قام بها محمد على كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالناحية العسكرية التى أهتم بها محمد على و ذلك لإنشاء إمبراطوريته التى طالما حلم بها .

وفى عام ١٨٣٦ تم إنشاء مدرسة الألسن ، بفضل جهود رفاعة رافع الطهطاوى ، ذلك العالم الفذ الذى أرسله محمد على ليكون مجرد إماماً للبعثة العلمية الأولى التى أرسلها إلى فرنسا ، إلا أنه تعلم اللغة الفرنسية و أتقنها ، و أرتحل إلى معاهد العلم فى باريس ، ثم عاد لمصر ليضطلع بالنهضة العلمية تأليفاً و ترجمة و تعليماً . وقد عرفت مدرسة الألسن فى بداية إنشائها بمدرسة الترجمة ثم أطلق عليها مدرسة الألسن . و كانت عدة لغات تدرس فى هذه المدرسة مثل الفرنسية و الإيطالية و الإنجليزية و الفارسية و التركية هذا بالإضافة للآداب العربية و التاريخ و الجغرافيا .

كذلك أنشأ محمد على ٤٠ مدرسة إبتدائية بالوجه البحرى و ٣٦ بالوجه القبلى ، و مدرستين تجهيريتين (ثانوية) أحداهما بالقاهرة و الأخرى بالأسكندرية .

وقد شجع محمد على العديد من العلماء الأجانب ، على الأخص الفرنسيون فى النهوض بمختلف النواحى العلمية بمصر . نذكر منهم على سبيل المثال العالم جومار الذى جعله مشرفاً على البعثة الأولى لفرنسا عام ١٨٢٦ و كانت مؤلفة من ٤٠ شاباً من الأتراك و المصريين . وأثبت بذلك أن العلم لا يعترف بالجنسيات أو القوميات فها هى تلك البعثة تتألف من أكثر من ثلاث قوميات . كذلك كان محمد علي يقدر مجهود العلماء ولنا فى ذلك أكثر من دليل و مشاهد . فها هو يولى رفاعة رافع الطهطاوى رئاسة البعثة العلمية المصرية فى باريس بعد أن أبلى بلاءً حسناً فى الناحية العلمية ، على الرغم من أنه أرسله فقط من أجل إمامة طلاب تلك البعثة فى الصلاة . ومثال ثانى نجده عندما قام بتعيين العالم المصرى مصطفى بك مختار كأول مدير للمعارف ، و قد أنشئت هذه الإدارة فى عام ١٨٣٦ و ذلك للإشراف

على شئون التعليم و تنظيمه فى جميع أنحاء البلاد . و لم يحاول محمد على هنا تعيين أحد من أقربائه أو معارفه ليدير هذه الإدارة الهامة بل عين مصرياً لذلك . ونذكر مثال ثالث و ذلك لتشجيعه العالم العبقرى الفرنسى جان فرانسوا شامبليون وغيره من العلماء الفرنسيين على دراسة الاثار المصرية . و عندما كللت جهود شامبليون بنجاحه فى فك رموز حجر رشيد قام بتكريمه و ذلك بإهداء بلده فرنسا مسلة رمسيس الثانى التى كانت قائمة أمام معبد الأقصر . فقد أيقن محمد على بثاقب نظره و ذكائه الحاد أهمية فك رموز حجر رشيد من أجل معرفة قيمة الآثار الكثيرة التى تنعم بها مصر . و هو لذلك أصدر أمراً بمنع خروج الآثار المصرية من مصر بل وقام بتأسيس داراً لحفظها .

أما عن إهتمام محمد على بالبعثات إلى أوروبا و غيرها من البلاد فقد كان إهتماماً بلا حدود . فقد بلغ عدد البعثات التى أرسلها محمد على خارج البلاد تسع بعثات ، و كانت أول بعثة فى عام ١٨٢٦ بأشراف المسيو جومار كما ذكرنا من قبل . و كانت آخر بعثة أرسل بها إلى أوروبا كانت فى عام ١٨٤٧ وكان عدد أعضائها ٢٥ دارساً من طلبة المهندسخانة المتفوقين . وأرسل معظمهم إلى إنجلترا للتخصص فى الميكانيكا و الشئ الذى يثير الأعجاب فى تجربة محمد على عندما أرسل البعثات هو تعدد أهدافها و تنوع تخصصات أفرادها بل و اختلاف جهات تلك البعثات من بلد لآخر حسب احتياجات مصر من تلك البعثات . فعلى سبيل المثال أوفد محمد على البعثة الثالثة فى عام ١٨٢٩ إلى كل من فرنسا و النمسا و إنجلترا ، وكان عدد طلابها ٥٨ طالباً ، وكان أبرز تخصصاتها هى المجالات الصناعية . و نجد أن الطلبة الذين أرسلوا إلى فرنسا قد تم تدريبهم على صناعة الأدوات

الجراحية و صناعة الساعات وشمع العسل و النقش و الزخرفة و الدهان والسروجية و الشيلان و الأحذية و شمع الأختام ، أما الذين ذهبوا إلى فيينا فقد تعلموا نسج الأجواخ و العبوات ، أما في إنجلترا فدرسوا آلات البوصلات وميزان الهواء و النظارات و مقاييس الأبعاد و آلات الفلك وصناعة الآلات الهندسية و التنجيد و الفراشة و الميكانيكا و الصيني والفخار وصب المدافع و القنابل و صناعة و بناء السفن و الفنون البحرية والهندسية .

أما البعثة الرابعة فقد خصصت لدراسة الطب و لذلك سميت بالبعثة الطبية الكبرى . و قد كان عدد هذه البعثة ١٢ مبعوثاً من أوائل خريجي مدرسة الطب المصرية بأبى زعبل . وأثبتت هذه البعثة أن المصرى إذا ما وجد المناخ المناسب تفوق و أجاد و هذا باعتراف العلماء الأجانب أنفسهم ، فهذا كلوت بك يثنى على أعضاء هذه البعثة بسبب تفوقهم في امتحان الدكتوراه أمام الأكاديمية الباريسية و الذى أجرى باللغة الفرنسية .

أما البعثة الخامسة فقد أثبتت بالفعل حب و تقدير محمد على للعلم ، وحث أقرب الناس إليه على تلقيه فقد كانت هذه البعثة أكبر البعثات التى أرسلت إلى فرنسا و أعظمها شأناً ، و كانت تضم بعض أنجال محمد على وأحفاده ، و لذلك أطلق عليها على باشا مبارك بعثة الأنجال . و يلاحظ على هذه البعثة أن من أنتخب أكثر أعضائها كان سليمان بك الفرنساوى ، و كان الناظر أو المشرف عليها لامبير بك . وقد غلب الطابع العسكرى الحربى على هذه البعثة حيث ضمت ٥٢ مبعوثاً لهذا التخصص و ذلك من أصل ٨٣ مبعوثاً هم كل عدد أعضاء البعثة و التى ضمت فى ثناياها خمس من أنجال محمد على و أحفاده .

ومن الجدير بالأعجاب بالفعل فى النهضة المصرية التى أقامهـا محمـد على أنها لم تهتم فقط بالعلماء من خريجى المدارس العليا أو التخصصية بل أنها أهتمت أيضاً بالصناع أو بمعنى أدق بالحرفيين ، فها هى البعثة الثامنـة التى أرسلت إلى إنجلترا فى عام ١٨٤٧ قد خصصت فقط للنجـارين ، فقـد ضمت واحداً وعشرين نجاراً من نجارى دار الصناعة و ذلك ليتقنـوا فـن النجارة فى إنجلترا .

هكذا نجد أن نهضة مصر التعليمية ربما حوت جميع مجـالات الحيـاة ولذلك كان المردود عاماً و شاملاً على حميع نواحى الحياة ، وهو ما سوف نتناوله فيما بعد .

وإذا ما عرجنا للحديث عن نهضة ميجى و مظاهرها وأشـكال التشـابه والخلاف بينها و بين نهضة محمد على ، فأن أول ما يسترعى الأنتباه مـن وجهة نظر الباحث هو أن نهضة محمد على التى سبقت نهضة ميحى نحو ما يقرب من خمسين عاماً جاءت برغبة أكيدة من عزيز مصر أى الوالى محمد على كما كان يطلق عليه أنذاك . صحيح أن محمد على حالفه الحـظ فـى وجود معاونين مخلصين له مثل أبنه القائد الحربى الفـذ إبـراهيم و القائـد العسكرى الفرنسى الفذ الكولونيل سيف الذى أسلم و أطلق عليه سليمان باشا الفرنساوى و غيرهما ، و الأهم من هذا و ذاك ذلك الشعب الذى قامت على أكتافه قواعد النهضة ، لأن الشعب المصرى على الرغم مـن طـول فتـرة الأستعمار الأجنبى له إلا أنه يحمل مقومات حضارة عريقة تستقر تحت جلده و لا تظهر إلا إذا حان الحين أو إذا نادى المنادى و قد لبى الشـعب نـداء محمد على و أخلص له بل و تحمل فى كثير من الأحيان تبعـات النهضـة وسلبياتها حتى يستطيع أن يفيق من كبوته الطويلة .

الفصل الثاني

النواقيس الغربية

تدق أبواب اليابان

الفصل الثانى

النواقيس الغربية تدق أبواب اليابان

وفى مقابل ذلك نجد أن نهضة اليابان أو نهضة ميجى كما نطلق عليها فى كتابنا هذا قد قامت على أثر سماع النواقيس الغربية التى توالت دقاتها منذ عام ١٧٩٢ عندما رست السفينة الروسية "كاترين" فى ميناء نمرو Nemuro الواقع فى منطقة إيزوتش- Ezochi وهى المنطقة التى تضم جزيرة هوكايدو والجزر الواقعة شمالها- وذلك لتسليم ثلاث مواطنين يابانيين للسلطات اليابانية كانوا قد ضلوا طريقهم فى المحيط الهادى فى عام ١٧٨٢ ولكن إحدى السفن الروسية أنقذتهم وأخذتهم إلى مدينة بطرسبرج حيث قابلوا الإمبراطورة كاترين الثانية، ثم سمح لهم بالإقامة فى روسيا. ورأت الحكومة الروسية أن تنتهز فرصة إنقاذ وإرسال اليابانيين الثلاث للسلطات اليابانية فى أن تقيم علاقات دبلوماسية مع اليابان. ولذلك أرسلت بمبعوث خاص حملته رسالة رسمية لتسليمها لحكومة الباكفو إلا أن مستشار حكومة الباكفو آنذاك، ماتسودايرا سادانوبو Matsudaira Sadanobu رفض أن ترسوا السفينة الروسية فى إيدوا وإن لم يرفض استلام اليابانيين الثلاث على أن تكافأ حكومة الباكفو الروس على ذلك. وإلى جانب ذلك وافق المستشار الياباني على إعطاء المبعوث الروسى لاكسنوف التصريح بالرسو فى ميناء ناجاساكى ، إلا أنه لم يذهب لنجاساكى ولم يستعمل هذا التصريح. وبعد ذلك بثمانية وأربعين عاماً أى فى عام ١٨٤٠ عادت روسيا بنفس الأسلوب الناعم

التقرب من اليابان،وكررت نفس المحاولة وهى تسليم مواطنين يابانيين من منطقة سنداى كانوا قد ضلوا طريقهم أيضاً فى عرض البحر. وفى هذه المرحلة حمل المبعوث الروسى ريزانوف التصريح الذى سبق وأن حصل

عليه المبعوث لاكسنوف للسماح للسفن الروسية في الرسو في ميناء ناجاساكي ، إلا أن الباكفو لم تعترف بهذا التصريح بحجه أن الذى أصدر التصريح لم يعد موجوداً فى سدة الحكم بل لم يعد موجوداً على وجه الحياة . وبذلك تهربت حكومة الباكفو من مسئولية فتح أبواب اليابان أو حتى فتح ثغرة ضيقة يمكن أن تمر من خلالها رياح التغيير إلى أرض اليابان . ورغم ذلك ورغم أوامر منع اقتراب السفن الأجنبية من الموانئ اليابانية بل وبرغم إصدار الأمر بإطلاق النيران على السفن الأجنبية في عام ١٨٢٥ إلا أن السفن الأجنبية ظلت تحاول الوصول إلى أرض اليابان . وغير المحاولتين الروسيتين السابق ذكرهما كانت هناك محاولة أخرى شهيرة من قبل سفينة أمريكية تدعى " موريسون " جاءت أيضاً لإيصال بحارة يابانيين ضلوا طريقهم فى البحر وحاولت النزول إلى ميناء أوراجا ، إلا أن المدافع اليابانية أطلقت عليها نيرانها و أبعدتها عن الشاطئ اليابانى .

وهكذا ظلت اليابان تقاوم رياح التغيير ورباط التعاون مع الحضارة الغربية إلى أن أجبرها على تقبل هذه الروابط القائد البحرى الأمريكى بيرى فى عام ١٨٥٣ وذلك عندما قاد أسطوله المكون من أربع قطع بحرية ضخمة مزودة بالمدافع توقفت فى عرض البحر أمام منطقة أوراجا Uraga الواقعة بمحافظة كاناجاوا Kanagawa . كان عمر بيرى وقتها قد قارب على الستين سنة و نكاد نجزم أنه قد سمع عن المحاولات العديدة التى قام بها كل من الروس و الأنجليز و الأمريكان أنفسهم وباءت جميعها بالفشل . ومن المؤكد أنه أعتقد أن النوايا الحسنة واللين لن يجديا شيئاً مع حكومة الباكفو العنيدة التى أوصدت كل الأبواب أمام أى اقتراب غربى للتعامل مع اليابان . و لذلك صمم بيرى على استعمال القوة وبالفعل فقد أتت القوة بنتائجها كما سنرى فيما يلى .

كان اليابانيون فى نهاية عهد طوكوجاوا الذى سبق إصلاح و نهضة عهد الميچى يطلقون على السفن الأجنبية أسم " السفن السوداء " وخاصة السفن الأمريكية التى كانت عادة تطلى باللون الأسود سواء كانت سفن شراعية أو بخارية . و عندما أتت سفن بيرى السوداء هذه المرة حدثت جلبة عظيمة وهرج و مرج لم يحدثا من قبل لأن اليابانيين أدركوا أن هذه المرة تختلف عن المرات السابقة .

كان ظهور سفن بيرى الضخمة كفيلاً أن يحدث اضطراباً فى كافة قطاعات اليابان و فى مختلف أنواع الناس ، الفلاحين و الصيادين الجميع ظن أن الحرب قد قامت و لذلك جمع الكثيرون منهم أثاث بيوتهم ومتاعهم وحملوها على عربات اليد و ذهبوا بعيداً محاولين إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، أما المحاربين أو ما يطلق عليهم الساموراى فقد أيقظتهم هذه السفن من نوم عميق طال عهده أثناء فترة طوكوجاوا الطويلة و التى اتسم معظم عصرها بالهدوء و السلام . فما كان منهم إلا أن قطبوا عن جبينهم متحسسين مقابض سيوفهم المثبتة فى خصورهم مهرولين هنا و هناك وكان من الواضح عدم إدراكهم مما سوف يفعلونه مع هذا العدو الذى فاجأهم بأسطول ليس لهم به عهد.

وهنا هل لنا أن نستعير العبارة الشهيرة التى تقول " إن التاريخ يعيد نفسه " و لكنه يعيد نفسه فى مكان آخر بعيد عن مصر آلاف الكيلومترات وبعد أقل قليلاً من نصف قرن من الزمان . ألم يكن هذا هو حال المماليك عندما واجهوا حملة نابليون عندما أتت لمصر ؟ الباحث يعتقد أن التشابه موجود إلى حد كبير ، إلا أن قدر مصر و حظها جعلها فى موقع يطمع فيه كل الطامعين ، و لذلك نجد الفارق الهائل بين الحملة التى قادها نابليون لغزو مصر و التى كانت تضم حوالى ٣٦ ألف مقاتل يحملهم عدد كبير من السفن

و تحرسها سفن حربية عديدة . و هذه الحملة التى قادها بيرى و التى لم يتجاوز عدد سفنها إلا أربع سفن فقط . ويمكننا أن نطلق عليها " حملة إنذارية " هى وتلك التى تبعتها بعد ذلك بسبعة أشهر أى فى يناير من عام ١٨٥٤ و التى لم يزد عدد سفنها على سابقتها إلا بثلاث سفن فقط . وعلى الرغم أن الحملتين لم ًحملا سوى مجرد التهديد و الوعيد وليس الغزو الفعلى كما حدث فى حملة نابليون على مصر إلا أنهما أضجتا مضجع الساموراى الذين كانوا يغطون فى نوم عميق طوال قرنين من الزمان بسبب الهدوء والسلام اللذين عما اليابان طوال معظم عصر طوكوجاوا .

على أية حال عندما أيقنت حكومة الباكفو أن رد الأسطول الأمريكى سوف يكون بالغ القوة سمحت لبيرى أن ينزل إلى البر. وكان بيرى يحمل عند نزوله إلى الأراضى اليابانية رسالة من الرئيس الأمريكى فليمور إلى الشوجون أو الحاكم العسكرى اليابانى. وكان الخطاب يحتوى على عدة مطالب من الحكومة الأمريكية لحكومة الباكفو اليابانية. ومنها عقد معاهدة صداقة وتبادل تجارى مع أمريكا، وإمداد السفن الأمريكية بالفحم والمؤن وإنقاذ السفن التى تطلب النجدة وأيضاً السماح لسفن صيد الحيتان الأمريكية بالصيد ووعدت الباكفو بالرد على هذه المطالب فى العام التالى. ولم يكد عام ١٨٥٤ يطل برأسه على اليابان حتى جاءها بيرى بحملته الثانية فى شهر يناير من هذا العام كما ذكرنا آنفاً. وقد نجح بيرى خلال المرتين اللتين جاء فيهما إلى سواحل اليابان فى إضفاء الفخامة والقوة والسطوة على نفسه وعلى أسطوله وذلك بناء على نصيحة مستشارين له أوضحوا له أن اليابانيين لا يعترفون إلا بالقوة و الفخامة . و لذلك فقد أقنع المسئولين اليابانيين بأنه ليس

أقل من حاكمهم العسكرى أو من الإمبراطور اليابانى نفسه و ذلك عن طريق إضفاء الفخامة و العظمة على موكبه الذى نزل إلى الأراضى اليابانية .

وبالفعل نجح بيرى فى مهمته كما سنرى . فلقد وجدت حكومة الباكفو أنه لبس فى مقدرتها مواجهة هذا العملاق الذى ظهر أمامها فكان أن لجأت إلى الإمبراطور الذى كان مهمشاً لعشرات السنوات . وذهب وفد من الباكفو لأخذ رأى ومشورة الإمبراطور كومى Kōme والذى كان معروفاً عنه عداؤه للأجانب و بالتالى لم يوافق على إعطاء التصريح للباكفو للتعاون مع الأمريكان و الموافقة على مطالبهم . وهكذا نجد أنه لأول مرة و منذ زمن بعيد تخرق فيه الباكفو النظام الذى سارت عليه وتطلب مشورة وموافقة الإمبراطور . وكان هذا إيذاناً بعودة نفوذ الإمبراطور الذى سوف يظهر جلياً فى عام ١٨٦٨ وذلك عندما أعلنت الحكومة اليابانية الجديدة التى حلت محل الحكومة العسكرية القديمة (الباكفو) عن استعادة النظام الإمبراطورى لنفوذه .

نعود مرة أخرى لبيرى و مطالبه من حكومة اليابان حيث قدم عدة مطالب من أهمها :

١- بيع المواد التى تلزم السفن الأمريكية من مواد غذائية و فحم الوقود وكذلك الفحم العادى و المياه وغير ذلك من المؤن و المواد التى تحتاجها .

٢-مساعدة السفن الأمريكية التى يجرفها التيار إلى السواحل اليابانية .

٣- على اليابان أن تفتح على التو مينائى شيمودا بمحافظة شيزوأوكا وهاكوداتى بجزيرة هوكايدو حتى تستطيع السفن الأمريكية استخدامهما ملاحياً .

وبالفعل نجحت القوة الأمريكية فى إجبار حكومة الباكفو فى عقـد معاهـدة الصداقة اليابانية الأمريكية و ذلك فى الثالث من مارس ١٨٥٤ . وفى شهر أغسطس من نفس العام عقدت اليابان معاهدة أخرى مشابهة مـع إنجلتـرا ، وفى شهر ديسمبر عقدت معاهدة ثالثة مع روسيا ، و بعدها بعام واحد فقـط أى فى ديسمبر ١٨٥٥ عقدت اليابان معاهدة أخرى مع هولندا و فـى عـام ١٨٥٦ حضر أول قنصل عام أمريكى فى اليابان و هو هاريس ، و لم يمض عام على وجوده فى اليابان حتى طلب من الحكومة اليابانية تطوير معاهـدة الصداقة اليابانية الأمريكية لكى تصبح تجارية أيضاً. وطلب الشوجون هـذه المرة أيضاً الانتظار حتى يمكن الحصول على موافقة الإمبراطور كـومى. لكن الإمبراطور عارض عقد هذه المعاهدة أيضاً وأيده فى ذلك جميع حكـام الأقاليم (الدايميو) فى جميع أنحاء البلاد. وكـان رأى الإمبراطـور هـو أن التعامل مع البلاد الأجنبية سوف يلوث أرض اليابان وهذا ما سوف يختلـف تماماً عند الحديث عن الإمبراطور التالى له وهو الإمبراطور ميجى الـذى كان على الرغم من صغر سنه عند تولى مقاليد الحكم إلا أنـه ومسـاعدوه ومستشاروه فضلوا الإنفتاح على الغرب والاستفادة من كل روافد الحضـارة الغربية كما سنرى فيما بعد.

وبذلك وعلى الرغم من معارضة الإمبراطور وحزب معاداة الأجانـب والذى كان يتزعمه حاكم مقاطعة ميتـو وهـو طوكوجـاوا نـارى آكـى Tokugawa Nariaiki (١٨٠٠-١٨٦٠) إلا أن المستشـار الأول إى ناؤسوكى Il Naosuke (١٨١٥-١٨٦٠) وقـع علـى معاهـدة الصـداقة والتبادل التجارى اليابانية الأمريكية فى يوليـو ١٨٥٨ وذلـك فـى مدينـة يوكوهاما التى تقع بمحافظة كاناجاوا، ولذلك أطلق على هذه المعاهدة أسـم

"المعاهدة كاناجاوا" واطلق عليها أيضاً اسم "المعاهدة اليابانيــة الأمريكيــة الجديدة Shinnichibei washin Jōyaku " وذلك لوجود معاهــدة ســابقة والتى عقدت فى عام ١٨٥٤. وقد عوقب نارى آكى على معارضته للبــاكفو ومعارضته لتوقيع معاهدة الصداقة اليابانية الأمريكية وذلك بتحديد إقامته فى بيته، ولم يلبث أن مات مريضاً فى منزله عام ١٨٦٠.

على أن معارضى المستشار "إى" المناصر لإقامة علاقات صداقة وتجارة مع الغرب لم تكن فى مقاطعة ساتسوما (محافظة كاجوشيما حالياً) فقط ولكنها اشتعلت أيضاً فى مقاطعة تشوشو (محافظة ياماجوتشى حالياً) وكذلك خطــط المعارضون للتعامل مع الأجانب لتنصيب يوشيدا شوأين Yshida Shoin لتولى منصب المستشار الأول بدلاً من أى ناأوسكى، إلى جانب أنهم حاولوا أيضاً إغتيال مانابى أكيماتسو (١٨٠٤-١٨٨٤) والذى كان يقوم بدور حمامة السلام بين البلاط الإمبراطورى وبين حكومة الباكفو.

إلا أن هذه المؤامرة قد تم اكتشافها بواسطة حكومة الباكفو ولذلك قامــت على التو بالقبض على أعضاء هذا الحزب المعارض والذى كان يطلق عليه "حزب ميتو" نسبة إلى المكان أو المدينة التى انتشر فيها أعضاؤه فى محافظة إيباراكى . ثم قامت حكومة الباكفو بإعدام ما يقرب من مائة شخص تنوعت طوائفهم ما بين دايميو وحكام مقاطعات وساموراى عاديين. وأطلق على هذه الحركة اسم "محاكمة أنسى الكبرى Anseinodaigoku " نظراً للعدد الكبير من المتهمين الذين قبض عليهم وعوقبوا أشد العقاب. إلا أن عائلات وأســر بل وأصدقاء من حكم عليهم بالإعدام لم ينسوا جميعاً ما حدث لذويهم وقرروا الأخذ بالثأر من المستشار "أى" وبالفعل تجمع ثمانية عشــر محاربــاً مــن مقاطعتى ميتو وساتسوما فى منطقة أتاجويا بالعاصمة إيــدو فــى مــارس

١٨٦٠، وترقبوا موكب المستشار الأول أى، وبالفعل تمكنوا من اغتياله فيما يعرف بحادثة ساكورادا مونجاى Sakurada Mongai . وكان لاغتيال المستشار الأول لحكومة الباكفو مغذى كبير إذ إنه إن دل على شئ فهو يدل على ضعف حكومة الباكفو بل إنه كان يعد أيضاً نذير شؤم لسقوط الباكفو وهذا ما حدث بالفعل بعد سنوات قليلة. اعتبرت حادثة ساكورادا مونجاى . بمثابه وقود أشعل حركة معاداة الأجانب وتوقير الإمبراطور لكى تشتعل أكثر وأكثر.

هكذا وجدنا اليابان تموج بعدة إتجاهات متباينة فى تجربة التعامل مع الغرب وزاد الطين بلة عندما ارتفعت أسعار الأرز وأرتفع عدد اليابانيين الذين فقدوا عملهم بسبب التعامل التجارى مع الغرب. وبذلك عم مناخ من عدم الرضا والتذمر فى كل أنحاء البلاد وكنتيجة مباشرة لذلك ظهرت حركة المعارضة للانفتاح على الغرب و نشأت كذلك الأفكار التى تدعو لطرد الأجانب من اليابان . وهذا ما أطلق عليه فى التاريخ اليابانى سونوجوى Sonnojoi وهو ما يعنى توقير الإمبراطور و طرد الأجانب . و بسبب هذه التفاعلات المتداخلة تضخم التفكير لأن يكون الأمبراطور هو مركز السلطة و ليس حكومة الباكفو والتى كانت آخذة فى الضعف رويداً رويداً . وربما أخطأت حكومة الباكفو عندما تحاورت فى معاقبة من عارضوا التوقيع على المعاهدة التجارية مع أمريكا ، فيما عرف بقضية آنسى Ansei الكبرى والتى تحدثنا عنها تواً و لذلك فكر بعض مسئولى الباكفو فى تجاوز هذه الأزمة بالتقرب من البلاط الأمبراطورى ، و ذلك بتزويج الشوجون إيموتشى Iemochi من الأخت الصغرى للإمبراطور كومى الذى أشتهر بكراهيته للأجانب ، ولكن الإمبراطور وفق على هذا الزواج السياسى بشرط

أن تقوم الباكفو بطرد الأجانب من اليابان . و بالفعل وافقت الباكفو على إلغاء المعاهدات التى وقعتها مع الغرب و لكن فى غضون عشر سنوات تصاعدت الأحداث لدرجة الاشتعال و ذلك عندما أعترض أربعة من الإنجليز وهم يمتطون أحصنتهم موكب الدايميو هيسا ماتسو فى منطقة ناماموجى الواقعة بمدينة يوكوهاما . حينئذ غضب حراس الدايميو فهاجموا المعترضين الإنجليز فقتلوا أحدهم و أصابوا أثنين و هذا ما يعرف فى التاريخ اليابانى بحادثة ناماموجى .

وبالطبع لم تسكت إنجلترا على هذه الجرأة اليابانية و لذلك قام الأسطول الإنجليزى المكون من ٧ سفن حربية بمهاجمة سواحل مقاطعة ساتسوما (كاجوشيما) التابع لها الدايميو شيمازو هيسا ماتسو السابق ذكره بل لقد دخل الأسطول الإنجليزى إلى خليج كاجوشيما وضرب طابيتها و تم إحراق حوالى ثلثى مدينة ساتسوما . و لما وجدت المقاطعة اليابانية إنها لا يمكنها محاربة إنجلترا فقد دخلت فى مفاوضات معها . وبالفعل تم الاتفاق على أن تدفع ساتسوما مبلغ ١٠٠ ألف جنيه تعويضاً لإنجلترا .

وفى حين نجد أن مقاطعة ساتسوما قد خففت من وطأة العداء للأجانب بعد الدرس الذى تلقته من الأسطول الإنجليزى ، فأننا نجد أن مقاطعة تشوشو (محافظة ياماجوتشى الحالية) صعدت من عدائها للدول الغربية لدرجة أن قام أسطول دول التحالف الأربع المكون من أمريكا و إنجلترا و فرنسا وهولندا بمهاجمة تشوشو فى عام ١٨٦٤ و لم تفلح دفاعات مقاطعة تشوشو التى لم تكن تملك سوى ٦٠ مدفعاً فقط فى مواجهة الأسطول المتحالف الذى كان يمتلك ٢٩٠ مدفع بل أن ما زاد الأمر سوءاً بالنسبة لتشوشو أن دانات مدافعها لم تصل فى الأصل إلى الأسطول المعادى .

ونظراً للهجوم الأجنبى العنيف فإن دفاعات تشوشو فقدت قوتها تماما . كذلك كان لنزول القوات البرية الإنجليزية إلى أرض المقاطعة أسوء الأثر لأن القوات الإنجليزية أجهزت على البقية الباقية من قوات تشوشو وظهر فى تلك المعركة مدى ضعف تدريب جنود مقاطعة تشوشو وفى خلال ثلاثة أيام فقط استسلمت مقاطعة تشوشو لقوات دول التحالف الأربع . وبعد ذلك مباشرة أقدمت حكومة الباكفو على إخضاع تشوشو .

وكنتيجة مباشرة لهذه المعركة فقد زادت قوة و سطوة حزب الإصلاح و التجديد . و بالفعل قام حزب الإصلاح و التجديد بالقبض على مقاليد الأمور فى عام ١٨٦٥ ومن بين أعضاء هذا الحزب سوف يبرز أسم إيتو هيروبومى الذى سوف يصبح أول رئيس للوزراء فى حكومة عادية فى عصر ميجى و ذلك بعد إنتهاء عصر إيدو الإقطاعى .

لم يقتصر تأثير حزب الإصلاح و التجديد على مقاطعة تشوشو فقط بل أمتد إلى ساتسوما أيضاً . فقد كان المحاربون الصغار الذين شكلوا حزب الإصلاح و التجديد هم الذين يقبضون على مقاليد الأمور فى المقاطعة المذكورة . و قد أظهر هؤلاء المحاربين من أمثال سايجو تاكاموري Saigō Takamori و أوكوبوتوشيميتشي Ōkubo Toshimichi و غيرهما أظهروا عداوة واضحة لحكومة الباكفو . و بما أن مقاطعة تشوشو تبدى العداء للباكفو أيضاً فقد تأصلت روابط التعاون مع ساتسوما . وهكذا عملت كلا المقاطعتين على إسقاط الباكفو و القبض على مقاليد الأمور فى كل أنحاء البلاد .ولكن المشكلة التى واجهت تشوشو هى عدم وجود أسلحة لديها بسبب منع الباكفو لها من شراءها. و هنا اتفقتا المقاطعتين على أن يبعث بطل

ساتسوما ساكاموتوريوما Sakamoto Ryōma (١٨٣٥-١٨٦٧) بالأسلحة إلى تشوشو بواسطة أسطوله التجارى الذى كان قد أسسه لتوه .

وفى ظل تحركات تشوشو المريبة ، قامت حكومة الباكفو فى عام ١٨٦٦ بأعداد جيش للهجوم على تشوشو ، إلا أن جيش الأخيرة استطاع محاصرة جيش الباكفو و تحطيمه تماماً بالمدفعية طويلة المدى .

وفى خضم هذه الأحوال العصيبة للباكفو توفى الشوجون الرابع عشر طوكوجاوا إييموتشى ، ويتولى بدلاً منه الشوجون الخامس عشر و الأخير طوكوجاوا يوشينوبو Tokugawa Yoshinobu (١٨٣٧-١٩١٣) .

أما فى البلاط الأمبراطورى فقد تنازع الحزب الذى ينادى بالتعاون مع الباكفو وذلك بتعضيد من الإمبراطور كومى نفسه ضد الحزب الذى ينادى ببعث سيطرة الإمبراطور على مقاليد الحكم بدلاً من الباكفو ، وكان يتزعم هذا الحزب السياسى الشهير إيواكورا طومومى Iwakura Tomomi (١٨٢٥-١٨٨٣) و غيره من المنادين بالإصلاح السياسى و بموت الإمبراطور كومى و تولى الإمبراطور ميجى مقاليد الحكم نشط إلى حد كبير حزب إيواكورا الذى كان ينادى ببعث سطوة الإمبراطور ، وعضده فى ذلك الزعيم الشهير ساكاموتوريوما حيث كان يرى أن الباكفو لابد لها و أن تترك مقاليد الحكم للإمبراطور ، وكان ريوما يكافح أيضاً من أجل تعديل نصوص المعاهدات المبرمة مع الدول الغربية لتصبح أكثر توازناً بين الطرفين ، وكذلك كان يريد إنشاء الدستور و إعلاء كلمة اليابان بين الدول .

وبالفعل تضافرت الجهود من أجل إسقاط الباكفو ، وفى هذا صدر القرار الإمبراطوري بإسقاطها وذلك فى أكتوبر ١٨٦٧ ، والطريف أن حكومة

الباكفو أيضاً قد تقدمت بطلب لإعادة السلطة للإمبراطور و ذلك عندما وجدت حكومة الباكفو أن الظروف الداخلية و الخارجية أيضاً كلها تسير فى غير مصلحتها . ولكن كلاً من مقاطعتى ساتسوما و تشوشو أصرتا على إبعاد الباكفو بقوة السلاح ، و تحركت قواتيهما بالفعل و معها تحرك جيش مقاطعة اكى (هيروشيما) إلى كيوطو و قامت قوات المقاطعات الثلاثة بإرساء دعائم الحكومة الجديدة .ثم اجتمع زعماء التغيير فى القصر الإمبراطوري بكيوطو لتحديد مصير عائلة طوكوجاوا ، فقرروا أن تنقل سلطات و ممتلكات و أراضى الشوجون طوكوجاوا يوشينوبو إلى الإمبراطور ميجى . و عندما علمت الباكفو بتلك القرارات العنيفة غضبت بشدة و قررت مواجهة ذلك ، وبالفعل تقابل جيش الباكفو مع جيش الحكومة الجديدة و الذى قاده سايجو تاكامورى فى مدينتى توبا وفوشيمى، وانتهت المعركة بانتصار جيش الحكومة الجديدة الذى كان مسلحاً بالأسلحة المتطورة. ثم أجتمع سايجوتاكامورى مع مسئول الباكفو عن مدينة إيدو وهو كاتسوياسويوشى واتفقا على تجنيب إيدو ويلات الحرب وتسليمها لجيش الحكومة الجديدة بسلام و أمان.

وبعد ذلك أعلنت الحكومة الجديدة ميثاقاً من خمس مواد، وهى كالتالى:

١) إقرار الأمور الهامة بعد استشارة وسماع العديد من وجهات النظر (أو بالأحرى إقرار مبدأ الديموقراطية).

٢) تحكم البلاد بإتحاد مختلف القوى سواء كانت كبيرة أو صغيرة.

٣) على الجميع سواء كانوا نبلاء أو فرسان أو مواطنين أن يجمعوا قواهم وأن يكونوا دائماً لديهم إحساس متجدد.

٤) على الجميع تغيير العادات القديمة السيئة والتعامل مع العالم الخارجى على أسس القانون الدولى (أى بمعنى إنه يجب نبذ وإلغاء القوانين اليابانية التى تتناقض مع القوانين الدولية).

٥) إدخال المعارف من البلاد الأجنبية وتطوير اليابان إلى أقصى درجة.

وفى عام ١٨٧١ تم إلغاء نظام المقاطعات، وبذلك ألغيت ٢٦١ مقاطعة فى كل أنحاء البلاد، وقامت بدلاً عنها مجموعة من المحافظات. وفى نفس العام أيضاً أرسلت اليابان وفداً كبيراً من الساسة إلى أمريكا، وكان هذا الوفد يضم أكثر من مائة عضو. وفى سان فرانسيسكو أقيم حفل استقبال عظيم للترحيب بالوفد اليابانى.

ويجب هنا ملاحظة أن اليابانيين كانوا يُستقبلون فى الغرب كضيوف لهم وزنهم جاءوا من بلد مستقل.

مما سبق نستطيع أن نستنتج أن ميلاد عصر النهضة اليابانية الحديثة والملقب بعصر ميجى أو بنهضة ميجى ولد بعد فترة اضطرابات شديدة أشترك فى صنع فاعلياتها العديد من الجهات سواء الداخلية أو الخارجية والعديد أيضاً من الشخصيات ذكرنا فى كتابنا هذا أقل عدد منهم حتى لا نثقل على القارئ العربى بذكرها جميعها. والصورة هنا قد لا تختلف كثيراً عن الصورة والأحداث التى سبقت نهضة محمد على، فنحن نستطيع أن نذكر عدة جهات والكثير من الشخصيات التى تصارعت على حلبة السلطة، حتى استطاع محمد على أن ينفرد بها .

ولكن الذى أختلف فى النهضتين هو ما حدث بعد بدايتهما. ففى مصر قد لا يتراءى أمامنا على مسرح النهضة سوى البطل محمد على وبعض الشخصيات قليلة العدد سواء كانت رئيسية مثل أبنه إبراهيم والكولونيل سيف الفرنساوى (سليمان باشا الفرنساوى) أو بعض الشخصيات الثانوية التى تظهر على استحياء على حلبة النهضة المصرية.

أما على الحلبة اليابانية فنستطيع أن نذكر إلى جانب الإمبراطور ميجى المستتير -والذى تولى العرش وعمره لا يتجاوز السادسة عشرة- نستطيع أن نذكر العديد من الجهات والقوى المختلفة وكذلك نستطيع ذكر العشرات من الشخصيات التى لعبت أدواراً هامة فى صنع النهضة اليابانية سواء من مقاطعتى ساتسوماوتشوشو اللتين لعبتا الدور الرئيسى فى قيادة دفة البلاد بعد قيام النهضة اليابانية أو من المقاطعات والمناطق الأخرى، بل إننا لندهش حينما نجد أن عدداً ليس قليلاً من حكومة الباكفو البائدة قد أشترك فى صنع الأحداث بعد النهضة أيضاً. وهنا نستطيع أن نجزم بأن الصورة كانت مختلفة من أجل مخاض وميلاد كلا النهضتين. فالفردية واضحة أشد الوضوح فى عملية ميلاد النهضة المصرية والجماعية واضحة كل الوضوح فى ميلاد النهضة اليابانية. وربما كان هذا الاختلاف هو أحد أسباب عدم استمرارية الأولى والعكس فى الثانية. هذا إلى جانب اختلاف الدور الذى لعبته القوى الدولية وخاصة الغربية فى كلا النهضتين. فمن رأينا أن دور الغرب فى النهضة المصرية كان فى معظمه سلبياً هداماً، وعلى العكس فى النهضة اليابانية كان فى معظمه إيجابياً بناءً. ونحن أيضاً لا نستطيع إغفال انه على الرغم من مساعدة الغرب لليابانيين من أجل إقامة نهضتهم -كما سنرى فيما بعد - إلا أن كل الأدوار الرئيسية من أجل صنع هذه النهضة

كانت يابانية مائة بالمائة، الأمر الذى نجده مفقوداً في التجربة المصرية حيث نجد أن بطل النهضة المصرية وهو محمد على لم يكن مصرياً ولذلك لم نجده عندما طبق إصلاحاته يُعنى بالمصريين. صحيح أن آثار نهضة محمد على أتت ثمارها على مصر فى نهاية المطاف، إلا أن معاناة المصريين من جراء تطبيق المشروعات النهضوية كانت شديدة. وهذه المعاناة كانت موجودة أيضاً لدى اليابانيين أثناء قيام نهضة ميجى ولكن لم تكن على الإطلاق مساوية لمعاناة المصريين بل كانت أقل بكثير . وهذا ما سوف نلقى عليه الضوء فى موضع آخر.

الفصل الثالث

التعليم فى عصر ميچى

الفصل الثالث

التعليم فى عصر ميچى

من خلال هذا الفصل نلقى الضوء على العملية التعليمية والبعثات فى نهضة ميجى، وقد شكل اهتمام المسئولين والحكومات خلال عصر ميجى بالتعليم أهم عنصر أثرا على حياة اليابانيين ليس فقط خلال عصر ميجى بل لقد امتد هذا التأثير خلال العهود التى تلت عصر ميجى وحتى يومنا هذا. ولكننا نود أن نذكر القارئ أنه ليس هناك شئ ينشأ من فراغ. ونعنى بذلك أن مرحلة الطوكوجاوا التى سبقت نهضة ميجى شهدت أيضاً تطلعاً للمعرفة، وهى فى الحقيقة روح متأصلة فى الشعب اليابانى-وقد ذكرنا ذلك بشئ من التفصيل فى الفصل الثانى من الباب الأول- ونحن نذكر هذا لأن هناك خطأ واضح يقع فيه الكثير من الباحثين فى الشئون اليابانية حيث يرون أن مرحلة ميجى هى بداية البعث اليابانى أو نهضتها ولا يرون فى المرحلة السابقة عليها إلا كل سالب ومعيب.

وعلى أية حال فنحن لا نناقض أنفسنا إذ: قلنا أن مرحلة الميجى هى الانطلاقة الكبرى نحو التقدم اليابانى، واحتلال اليابان مكانة بارزة فى كل المجالات التى خاضتها تقريباً. وليس أدل على اهتمام نهضة ميجى بالتعليم وما يخدمه من أن واضعى ميثاق عهد ميجى - الذى أقسم عليه الإمبراطور نفسه فى السادس من إبريل ١٨٦٨ - قد جعلوا المبدأ الخامس من هذا الميثاق يتعلق بالمعرفة والتعلم واعتبارهما أساساً للحكم الإمبراطورى حيث ينص على " أنه يتم التماس المعارف من كل أنحاء العالم وبذلك يتدعم أساس الحكم الإمبراطورى".

وإن كان محمد على وكما رأينا فى الفصل الأول من الباب الثانى قــد اهتم بالتعليم العالى أولاً على حساب التعليم الإبتدائى، وذلك نظــراً لحاجتــه للكوادر الفنية والإدارية والعسكرية التى تمكنه من بناء جيشه الذى أراد بناءه من أجل إمبراطوريته التى طالما حلم ببنائها، ولا نســتطيع أن ننكــر أثــر إصلاحات محمد علي في الدولة المصرية، ولا نستطيع أن ننكر أنــه بــانى مصر الحديثة ولكن هذا لم ينبع من حبه لمصر وولائه لها بقــدر مــا كــان بمثابة رغبة منه لبناء مجد شخصى له ولأولاده وأحفاده من بعده، وهذا مــا استطاع تحقيقه بجدارة لا شك فيها. ونستطيع أن نلمس هذا من خلال المجد والإحترام الذى ناله إبراهيم باشا ابن محمد علىّ عندما تلقى دعوة من الملك لويس الثامن عشر ملك فرنسا لزيارتها زيارة رسمية مع أركان حربه سليمان باشا الفرنساوى. وبالفعل استقبلته باريس استقبال الأبطال بــل أن الصــحف الباريسية شبهته بالإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر ونابليون. ولــم يتوقــف احترام الأوربيين عند فرنسا فقط بل أنسحب على إنجلترا أيضاً، تلك الدولــة التى ناصبت محمد علىّ وسياسته التوسعية العداء. فقد فوجئ إبراهيم أثنــاء زيارته لفرنسا بدعوة من الملكة فكتوريا ملكة بريطانيا وإمبراطورة الهند وما وراء البحار تدعوه لزيارة بريطانيا والنزول ضيفاً مكرماً عليهــا. بــل أن رئيس وزراء بريطانيا آنذاك بالمرستون وهو الخصم اللدود لإبــراهيم أقــام حفل وداع كبير لتوديع القائد الفذ .

هكذا نال محمد على وأولاده وأحفاده المجد والحكم. الحكم للعظماء مثل محمد على وإبراهيم وإسماعيل إلا أن هذا لم يمنع ظهور حكام ضعاف أيضاً مثل عباس الأول وسعيد وتوفيق وغيرهم.

ولكننا فى الحقيقة نجد أن تجربة النهضة اليابانية فى عهد ميجى اختلفت كثيراً عن نهضة محمد على فى كثير من النواحى أهمها من وجهه نظرنا أن من قاموا بالعملية التعليمية أو النهضة التعليمية كانوا يابانيون بالروح والجنسية والعاطفة، علاوة على ذلك فقد كان المفكرون الوطنيون هم عماد هذه النهضة. وأشتهر منهم المفكر العظيم فوكوزاوا يوكتشى Fukuzawa Yukichi (١٨٣٤-١٩٠١) وموري أرينوري Mori Arinori (١٨٥٧-١٩٠٧) وغيرهم. وهؤلاء جميعاً اعتقدوا وآمنوا أن التعليم ونشره فى كل قطاعات الدولة هو فى الحقيقة واجب وطنى وقومى لابد من القيام به لبناء دولة متقدمة تضاهى الغرب بل وتتفوق عليه. وها هو ذا فوكوزاوا المفكر التقدمى يعلن فى أشهر كتبه "تشجيع العلم" (Gakumon Nosusume) أنه "ينبغى لكل أهل البلد، سواء كانوا من النبلاء أو من الطبقة الدنيا، أن يؤمنوا بأنه تقع على عاتقهم مسئولية شخصية تجاه البلد ". ويكفى أن نذكر أن هذا الكتاب يعتبر المثال الذى يحتذى به فى الكتب التنويرية فى عهد ميجى ، وقد حقق هذا الكتاب أفضل المبيعات فى ذلك الوقت حيث وصلت النسخ المباعة منه إلى ٧٠٠٠٠٠ نسخة، وهذا بالطبع رقم ضخم جداً بالنسبة لذلك الزمان. كذلك يذكر مورى أرينورى فى رسالة له للكاتب هيربرت باسين نشرها فى كتابه "المجتمع والتعليم فى اليابان" يذكر فى رسالته هذه "أنه ينبغى لبلدنا (اليابان) أن ينتقل من وضعه الحالى فى الدرجة الثالثة إلى الدرجة الثانية،ثم من الدرجة الثانية إلى الأولى ، وأخيراً إلى مركز الصدارة بين كل بلدان العالم. وأفضل طريقة لبلوغ هذا هو إرساء أسس التعليم الأولي ونحن نضع تحت كلمة "الأولي" عدة خطوط لأن الاهتمام الشديد بالتعليم فى تلك المرحلة التاريخية كان له أكبر الأثر على حياة اليابانيين التعليمية حتى الآن.

إذن فنحن أمام تفكير منطقى يبغى صـالح الـوطن ولا يبغـى المجـد الشخصى لحاكم ذكى مثل محمد علىّ فى مصر. بل إنى أريد أن أدفع القارئ إلى عقد مقارنة بين أكثر من أربعين شخصية إصـلاحية تقدميـة اختلفـت وظائفها بين رجال حكم ورجال أعمال وعسكريين من صغار الساموراى هذا إلى جانب المفكرين التنويريين مثل فوكوزاوا وأينورى. كل هؤلاء اشتركوا فى صنع نهضة ميجى، أقول أن نقارن بين هذا الحال فى اليابان وبين الحال فى نهضة محمد على التى قاد دفتها حاكم واحد ومعه قليل من المعـاونين. بالطبع أن فكر مجموعة كبيرة من الإصلاحيين كان معظمهم مـن خـارج المدينتين الرئيسيتين فى اليابان كيوطو وايدو (طوكيو فيما بعد). وقاد هؤلاء جميعاً إمبراطور صغير السن ولكنه كان على درجة كبيرة من العلم والثقافة. ويذكر الشيخ أحمد الجرجاوى فى كتابه " الرحلة اليابانية" الذى كتبه قبل نحو مائة عام أن الإمبراطور ميجى لما بلغ السادسة من سنه أحضر لـه والـده الإمبراطور (كومى) المعلمين الخصوصيين. فكان فى كل أطوار التعليم يظهر نجابة وذكاءاً مفرطاً. ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره إرتقى إلى عـرش أجداده حيث توفى والده وذلك فى سنة ١٨٦٧ وكان فى هذا السن حائزاً على كثير من العلوم والفنون التى ثقفت عقله وهذبت نفسه ونشأ كامل العقل وافر الفضل. والذى زاد فى تهذيبه هو أن والده وكل به إلى المؤدبين الذين كانوا يرافقونه فى غدواته وروحاته فتشرب عقله بمزايا عقول هؤلاء الرجال "وقد كان الإمبراطور موتسوهيتو – وهو الإسم الأصلى للإمبراطور ميجى – أول إمبراطور ينبذ العادات القديمة ومن أهمها أنه على الإمبراطـور ألا يغـادر قصره. وهو لذلك قام برحلات عديدة داخل اليابان، وهو فى ذلك فى نظـر

اليابانيين آنذاك كأنه ترك علياءه ليندمج مع المواطنين لأول مرة فى تاريخ اليابان.

إذن نحن أمام منظومة حضارية مكتملة وضعت نصب أعينها أن تصبح اليابان دولة عظمى من خلال عدة أعمده أساسية أهمها التعليم.

بدأت حكومة ميجى أولى خطواتها من أجل إقامة نهضة تعليمية شاملة بأن أوضحت اهتمامها بإنشاء الكثير من المدارس الإبتدائية وذلك فى العام الثانى من عصر ميجى أى فى عام ١٨٦٩، وكانت مدينة كيوطو هى السباقة فى هذا المجال حيث أنشأت فى نفس العام ما يزيد عن ٦٤ مدرسة إبتدائية . وفى عام ١٨٧٠ أفتتح فى طوكيو ٦ مدارس إبتدائية أخرى.

وفى عام ١٨٧١ أنشأت حكومة ميجى وزارة التعليم حتى تقوم بتنفيذ العملية التعليمية. وفى عام ١٨٧٢ أصدرت حكومة ميجى اللائحة التعليمية (Gakusei). وحسب ما جاء فى هذه اللائحة – التى تذكرنا بلائحة رجب التى أصدرت فى مصر فى عهد الخديوى إسماعيل وذلك فى عام ١٨٦٨ – جاء بها أنه ينبغى على الجميع رجالاً ونساءً أن يتلقوا التعليم وأن يحصنوا أنفسهم به وأن يوسعوا من معارفهم. ولكن لائحة التعليم اليابانية ضمت أيضاً مبدأ أن يتحمل المواطنون أعباء تعليم أولادهم، وذلك تبعاً للمذهب النفعى. وهذا المبدأ هو ما سوف يكون السبب فى أن يثقل كاهل المواطنين إلى حد بعيد. فقد كانت تكاليف تعليم الطالب تصل إلى ٥٠ سن شهرياً، وهذه تكلفة عالية جداً خصوصاً إذا علمنا أن حوالى كيلو جرامين من الأرز كانت تساوى ٧ سن فقط. ولم تتوقف اللائحة عند تكاليف تعليم الطلبة فقط بل امتدت مسئولية المواطنين نحو إنشاء وصيانة المدارس بل وكذلك أعطاء المدرسين رواتبهم. والطريف أن لائحة التعليم هذه تشابهت إلى حد كبير مع

لائحة رجب التي صدرت في مصر قبل ثلاث سنوات فقط ، إلا في المبدأ الأخير حيث نصت لائحة رجب على أن يكون التعليم الإبتدائي بالمجان للطلبة وراعت ذلك على الأخص المدارس الأهلية. أما المدارس المركزية فلم تسر على النحو الذى رسمته لائحة رجب، فقد ظل النظام الداخلى المجانى أساس الحياة الدراسية فى المدارس المركزية ، ولكن منذ عام ١٨٧٢ فرضت رسوم دراسية بسيطة على التلاميذ. وكان هذا الإتجاه الذى يؤمن به على مبارك. وكان على مبارك يرى أنه من الأفضل إبطال مبدأ المجانية البحتة وتكليف الأهالى بتعليم أولادهم ولو إنفاقاً يسيراً فى بادئ الأمر، وهو فى رأيه هذا يتفق إلى حد كبير مع المبدأ الثالث من لائحة التعليم اليابانية.

وبسبب التكاليف الباهظة التى كان على الفلاحين تحملها – وهم السواد الأعظم من الشعب اليابانى انذاك – فقد قاموا بثورات وهوجات عديدة معترضين على هذه الأعباء التعليمية. إلا أن هذه الثورات لم تصل فى عنفها مثلما حدث فى الثورات والهوجات التى كان يقوم بها الفلاحون وهم يعترضون على قانون التجنيد الإجبارى وقانون مسح الأراضى الزراعية . وربما كان ذلك لقناعة الفلاحين من جدوى العملية التعليمية ومنفعتها وأثرها على البلاد.

على أية حال فإن الحكومة عندما رأت أن تكاليف التعليم الباهظة وجعله بمصروفات من شأنه أن يؤدى إلى حرمان السواد الأعظم من أبناء البلاد من تلقى العلم، فيصبح بذلك وقفاً على أبناء الموسرين وحدهم فأنها رأت أن تتحمل ٩٠% من تكاليف الدراسة ، فلم تحصل من أولياء أمور التلاميذ إلا على مصروفات ضئيلة تمثل عُشر نفقات التعليم. وهذا الإجراء هو ما جعل

نسبة تلقى الأولاد والبنات للتعليم الإبتدائى تصل إلى ما يقرب من مائة بالمائة. ومن الجدير بالذكر أن الدراسة بالمدارس الإبتدائية بدأت بأربع سنوات،ثم تحولت لتصبح ست سنوات على أن تكون إجبارية . وفى البداية كانت نسبة تلقى الفتيات للتعليم أقل من الأولاد وذلك بسبب انشغالهن فى الأعمال المنزلية، إلا إنها اتجهت لتصبح بعد ذلك متساوية تقريباً لنسبة تلقى الأولاد للتعليم الإبتدائى.

وقد قدمت لائحة التعليم النموذج الفرنسي لكي يحتذى به فى التعليم اليابانى هدا إلى جانب استعارة الفكر التربوى الأمريكى . وقسمت البلاد إلى ثمانية مناطق تعليمية بكل منطقة تعليمية ٣٢ مدرسة إعدادية و ٢٢٠ مدرسة إبتدائية. وطبقاً لهذا التقسيم الدقيق والطموح الكبير ، يصبح فى الإمكان إنشاء ثمانى جامعات وأكثر من ١٥٠ مدرسه إعدادية وأكثر من ثلاث وخمسين ألف مدرسه إبتدائية فى كل أنحاء البلاد. ولكن لأن هذه الخطة كانت طموحة أكثر من اللازم فلم يمكن تطبيقها على الوجه الأكمل، ولذلك تم إلغائها طبقاً لقانون التربية Kyoikurei الذى صدر فى عام ١٨٧٩.

ونعود مرة أخرى إلى أهم ما تضمنته لائحة التعليم حيث نصت على أن كل فرد من الأفراد لا يستطيع أن يشق طريقه فى الحياة أو يستثمر ثروته أو ينمى تجارته ومواهبه ومعرفته ، دون أن ينال قسطاً من التعليم. ولتحقيق هذا الغرض أنشئت المدارس وما التعليم إلا نوع من الإستثمار من أجل تحقيق النجاح فى الحياة، فكيف يستطيع المرء إغفاله. ومن هذا النص أو المبدأ يتضح لنا أن التعليم ساوى بين كل فئات المجتمع ولم يميز طبقة على الأخرى. ولذلك ففى هذا تعضيد لمبدأ المساواة بين طبقات المجتمع اليابانى الأربع وهم المحاربون والمزارعون والصناع والتجار. كذلك أكد هذا المبدأ

على مسئولية التجنيد الإجبارى على الجميع ، ولم يقتصر ذلك على الساموراى فقط كما كان الحال فى الماضى. وهذان المبدآن ونعنى بهما المساواة بين الفئات الأربع للمجتمع اليابانى والتجنيد الإجبارى كانا يؤلفان اللبنة الأساسية للحكومة الجديدة. وهذا بالطبع كان له أبعد الأثر على تنفيذ سياسة التعليم الإجبارى. ولذلك نجد أن اليابان استطاعت إنشاء ثمانية آلاف مدرسة حكومية وحوالى أربعة آلاف وخمسمائة مدرسة خاصة فى عام ١٨٧٣ فقط. واستطاع لذلك ما يقرب من ٤٠ % من الأطفال أن يتلقوا تعليمهم الأولى من خلالها.

إننى لا أستطيع إخفاء إعجابى الشديد بذكاء وطموح محمد على الذى استطاع فى سنوات قليلة أن يغير من وجه الحياة على أرض مصر. ولكننى أيضاً لا أستطيع إخفاء إعجابى الأشد بهؤلاء القوميين اليابانيين الذين قاموا ببناء نهضة ميجى، وخاصة نهضته العلمية والتعليمية فقد كان حبهم لبلدهم يفوق ربما بكثير طموح محمد على لبناء إمبراطوريته. ولذلك فقد بدأوا بالقاعدة الشعبية أى أنهم بدأوا بتشييد أساس المجتمع. وتجاوزت فلسفتهم ونظرتهم الجوانب النفعية والمنافع العماية. وتشربت نظرتهم بالتطلعات الوطنية، والحفاظ على الهوية الثقافية، وبناء الشخصية الرامى إلى إعداد المواطن المتمسك بالأخلاق الوطنية.

وبذلك نستطيع أن نقول أن النظرة التعليمية فى عصر ميجى وخاصة فى بدايته هدفت لبناء الأمة وليس لبناء إمبراطورية. إلا أن هذا لم يمنع إنه عندما وجدت اليابان نفسها في مصاف الأمم المتقدمة بعد ربع قرن فقط من ميلاد نهضتها من أن تطبق المبدأ السائد فى العالم آنذاك من إستثمار الدول

القوية قوتها فى إخضاع الدول الأضعف منها .فتدخل فى حرب مع كل من الصين وروسيا فى أقل من عشر سنوات وتفرض كلمتها فى الحربين.

بعد أن وضعت النهضة أساس العملية التعليمية . بدأت فى الاهتمام بالتعليم العالى. ففى عام ١٨٧٧ تم إنشاء جامعة طوكيو بعد أن مرت بعدة مراحل وذلك كجامعة حديثة شاملة وأصبحت كعبة للبحث العلمى وللتعليم العالى. ونحن هنا وفى معرض حديثنا عن هذه الجامعة نستطيع أن نلتمس التطور المنطقى فى نمو الأشياء فى اليابان. فقد نشأت جامعة طوكيو عن طريق ضم مدرسة كايسى Kaise القديمة ومدرسة طوكيو العليا للطب ليكونا معاً أكبر وأقدم جامعة فى اليابان. ثم يزداد التعليم العالى صلابة بإضافة جامعتى طوهوكو الإمبراطورية Tōhoku وهى فى منطقة سنداى وكيوطو الإمبراطورية فى عام ١٨٩٧،وفى عام ١٩١٠ تأسست جامعة كيوشو الإمبراطورية فى مدينة فوكوأوكا وكانت بمثابة مركز للأبحاث العلمية. وكان هناك إلى جانب تلك الجامعات الإمبراطورية العديد من المدارس العليا المتخصصة إلا أنه لم يُعترف بها كجامعات مثل الجامعات الإمبراطورية التى ذكرناها تواً غير أن قانوناً خاصاً بالمدارس العليا المتخصصة صدر فى عام ١٩٠٣ أتاح لتلك المدارس العليا صفة الجامعات ما دامت تحتوى برامجها الدراسية على نفس مستوى برامج الجامعات العادية. ومن أشهر تلك الكليات الخاصة كلية طب النساء التى قامت بتأسيسها الطبيبة يوشىأوكا يايوى Yoshioka Yayoi (١٨٧١-١٩٥٩) والتى أصبحت بعد ذلك تدعى باسم كلية طب طوكيو للنساء . وفى عام ١٩١٨ أنشأت جامعة هوكايدو فى سابورو، إلا أن اليابان كانت قد استقبلت عصراً آخر هو عصر طايشو .

أما عن البعثات فنجد تشابهاً واضحاً بين الأسلوب الذى اتبعه محمد على وذلك الذى اتبعه مسئولى وقادة إصلاح ميجى .فلقد أتجه كلا البلدين للغـرب ليس فقط لإرسال بعثاته إليه ولكن أيضـاً لاسـتقدام المدرسـين والعلمـاء والخبراء والذين كانوا يكلفون خزانة البلدين وخاصة اليابان أشـد التكلفـة . وبالطبع أبتعد البلدان عن الحضارتين القريبتين منهما . اليابان ابتعدت عن الصين التى كانت تمثل فى الماضى مصدر الإلهام ونبع الثقافة لها وذلك بعد أن تهاوت تلك الحضارة العريقة وأصبح التخلف ينخر فى عظامها. ومصر أيضاً ابتعدت عن كل الحضارات القريبة منها سواء كانت عربية أو تركيـة فكلاهما أيضاً عرف طريق الضعف والجهالة . ففى الحالة اليابانيـة وجـد المفكرون اليابانيون أن كل شئ حديث وقوى جاءهم عن طريق الغرب، فقد دخلت البندقية لأول مرة لليابان فـى عـام ١٥٤٣ عـن طريـق التجـار البرتغاليين، وكان للعلوم الغربية مثل الطب الذى تعلمه اليابانيون علـى يـد الهولنديين، كل هذا جعل النموذج الغربى وعلومه هو المـؤثر علـى فكـر وعقول المفكرين اليابانيين . ولم يختلف الوضع كثيراً فى مصر عنـه فـى اليابان إلا فى التوقيت الذى جاء فيه التأثير الغربـى ، ففـى حـين وجـدنا اليابانيون يشعرون بمدى البون الواسع بينهم وبين الغرب مبكراً وعملوا على الإستفادة من هذا العلم الغربى مع عدم إستقدام الغرب إلى اليابان فى محاولة منهم لرد خطره نجد المصريين يفيقون متأخرين بعض الشئ ،وذلـك علـى الصوت الهادر لمدافع وجنود حملة نابليون.

وقد آمن الكثير من المفكرين اليابنيين وفى طليعـتهم المفكـر الكبيـر فوكوزاوا يوكيتيشى بالقيمة العملية للعلم الغربى. ونجد هذا واضحاً فى كتاب يوكتتشى الأشهر " تشجيع العلم Gakumono Susume " فيذكر المفكر فى

الفصل الأول من الكتاب ما يلى " إن التعلم لا يقتصر بالضرورة على طلب ما هو غير عملى كدراسة التراكيب الصينية الغامضة وقـراءة النصـوص القديمة التى تتسم بالصعوبة أو قراءة أو قرض الشعر . فمثل هذه الإهتمامات قد تكون نافعة ولكن لا يجب أن نبالغ فى قيمتها على نحو ما فعـل علمـاء الكونفوشيه والثقافة اليابانية فى الزمن القديم. فمثل هذا النوع من التعلم يفتقر إلى القيمة العلمية ولا يخدم حاجات الحياة اليومية.ومن ثم يجب أن يأتى هذا النوع من التعلم فى مكانة ثانوية وأن يكون اهتمام المرء منصـباً بالدرجـة الأولى على تعلم الأشياء العملية التى هى أقرب إلى حاجات الإنسان العادية.

إذن فأعظم وأشهر مفكرى النهضة اليابانية رأى فى حضـارة وعلـوم الغرب فعالية التطبيق وعملية أكثر كثيراً من علوم الشرق النظرية. وقد دافع يوكيتشى عن هذا الاتجاه عندما أسس مدرسة كيئو العليا فـى عـام ١٨٥٨ لتدريس العلوم الغربية ، وجعل الطلبة يدرسون فيها العلوم الطبيعية بصورة مركزة. ولكننا أيضاً يمكننا أن نلحظ التطور المنطقى للعملية التعليمية عنـد رائد الفكر اليابانى الحديث فوكوزاوا عندما نراه يصمم على دعم التعليم العام الأساسى أولاً. وحتى بعد تأسيس جامعة طوكيو عام ١٨٧٧ أحس أن الوقت مازال مبكراً بالنسبة لمدرسة كيو لتدخل مرحلة التعليم العالى فى برامجهـا، ولم يقم فوكوزاوا بتنظيم الأقسام الجامعية بالمدرسة إلا فـى عـام ١٨٩٠. واستطاع عندئذ أن يحصل على تبرعات قدمها لأربعة آلاف مـن خريجـى المدرسة ومن غيرهم من المواطنين. وهنا نلحظ أيضاً مدى إيمان اليابـانيين واقتناعهم بتطوير التعليم من خلال هـذا الـرقم الكبيـر مـن المتبـرعين والمساهمين من أجل إنشاء أول جامعة خاصة باليابان تلـك التـى أسسـها فوكوزاوا يوكيتشى وهى جامعة كيئو وذلك فى عام ١٨٩٠.

وبالطبع لم يكن فوكوزاوا هو وحده الذى أسهم فى تطوير التعليم فـى اليابان إبان حقبة ميجى ، ولكن كان هناك مفكرون آخرون أيضاً أدلوا بدلوهم من أجل هذا الهدف. ومن أشهرهم المفكر الكبيـر مورىأرينـورى Mori Arinori (١٨٤٧-١٨٨٩) الذى أوفدته حكومة الباكفو للدراسة فى أوروبـا والولايات المتحدة فى أواخر عهد الطوكوجاوا. وكان مـورى أول وزيـر للتعليم فى أول حكومة حديثة شـكلتها حركـة نهضـة ميجـى برئاسـة إيتوهيروبومى. ويعد مورى من طليعة الكتاب التنويريين فى اليابـان ،وقـد وضح ذلك الإتجاه مبكراً عندما نشر مورى كتاباً له باسم "التربية فى اليابان" وكان ما يزال فى العشرين من عمره، وقد نشره فى نيويـورك فـى عـام ١٨٧٣ أثناء وجوده فى واشنطن كأول ممثل يابانى رسمى فـى الولايـات المتحدة الأمريكية ويرجع إلى مورى أرينورى الفضل الأكبـر فـى إنشـاء جمعية ميرروكوشا Meirokusha فى عام ١٨٧٣ والتى تعد أول جمعية أو بالأحرى جماعة علمية فى اليابان تأخذ العلم الغربى كنبراس لها. وقد ساعد مورى فى إنشاء هذه الجماعة وجريدتها التى تأسست فى عام ١٨٧٤ العديد من المفكرين البارزين أنذاك مثل فوكوزاوا يوكيتشى ونيشى مورا شـيجكى Nishimura Shigeki (١٨٢٨-١٩٠٢) وكـاطو هيرويـوكى Kato Hiroyuki (١٨٣٦-١٩١٦) ونيشـى أمـانى Nishi Amane (١٨٢٩-١٨٩٧) . وقد قام مورى ومعه جهود هؤلاء العلماء وغيرهم بنشر مفـاهيم جديدة مفادها رعاية العلوم الحديثة وكذلك المعارف والأفكار التنويرية .وقـد كان لجمعية "ميروكوشا" أثرها الكبير والواضح على التعلـيم اليابـانى فـى عصر ميجى بل لنقل أن أثرها امتد حتى يومنا هذا.

ومن الجدير بالذكر أن كلاً من فوكوزاوا وموري اختلفا في اختيار الوسيلة المثلى لنشر التعليم في اليابان على أفضل الطرق، ففيما آمن الأول أن الجهود الخاصة هي التي تستطيع القيام بهذا الدور خير قيام آمن الثاني بأن الطريق الرسمي الحكومي هو الطريق الأفضل من أجل تحقيق هذا الهدف، نقول على الرغم من هذا الاختلاف إلا أن موري يصف ويمدح فوكوزاوا قائلاً " سوف يبقى إسم فوكوزاوا يوكيتشي مرتبطاً أبداً بالفكر التربوي في اليابان بصورة مشرقة. كان معلماً للقادة والشعب وستبقى ذكراه معنا " هذا على الرغم من أن موري قد رحل قبل فوكوزاوا بنحو إثني عشر عاماً أي في عام ١٨٨٩، وذلك عندما اغتاله المتطرفون اليمينيون المغالون في الإيمان بالوطنية معتقدين أنه تطرف في الإيمان بالفكر الغربي على حساب الفكر الوطني الياباني.

لقد شابت العملية التعليمية أو النهضة التعليمية في عصر ميجي بعض العيوب مثل الاهتمام بتعليم الفتيان أكثر من الفتيات،وذلك نظراً لانتشار مبدأ "الزوجة الصالحة والأم الرءوم" والذي يجعل دور الفتاة أكثر مثالية في المنزل وتربية الأبناء واحتضانهم ودور الزوج هو الأساسي والزوجة هي المساعدة له. وهذا المبدأ عملت الحكومة على نشره من خلال دروس علم الأخلاق المدرسية. كذلك عابها وخاصة في بدايتها – أنها أرهقت المواطنين وخاصة الفلاحين مما جعلهم يقومون بالثورات ضد تعليم أولادهم نظراً للنفقات الباهظة التي كان عليهم تحملها.

إلا أنه على الرغم من ذلك وصل التعليم في اليابان إلى درجة راقية في بدايات القرن العشرين. وخير دليل على ذلك ما ذكره الشيخ عليّ أحمد الجرجاوي في كتابه "الرحلة اليابانية" الذي كتبه في بداية القرن العشرين

والذى حققه وقدم له الدكتور رعوف عباس ، ذكر الشيخ علــى الجرجــاوى مدى تقدم النهضة التعليمية قائلاً "إذ يمكن لو عملنا نسبة بينهــا وبــين أمــة متمدنة غيرها أن نقول أن ما كانت تخطوه اليابان فى هذا السبيل فــى يــوم تخطوه غيرها فى أسبوع وما تخطوه فى أسبوع تخطوه غيرها فــى شــهر وهكذا. حتى لقد عذ بعضهم هذا التقدم الباهر من خوارق العــادات. ومــن القوى التى هى فوق طبيعة البشر." هكذا نجد شيوع شهرة تقدم التعليم فــى اليابان بين كل الناس فى جميع أنحاء العالم منذ أوائل القرن العشرين . ولــم لا إذا ما عرفنا أن نسبة الأطفال المتلقين للتعليم وصلت إلى نحو ٩٨% فــى عام ١٩٠٧. وهكذا نرى أيضا شيوع فكرة المعجزة فيما يتعلق بأداء اليابانيين منذ هذا الوقت المبكر من بداية القرن العشرين .

أرانى قد أسهبت فى الحديث عن التعليم وتطوره وأثره على المجتمــع اليابانى فى عهد ميجى، ولكن لم لا وأثر النهضة التعليمية التى قامت فى عهد ميجى تمتد آثارها حتى يومنا هذا. ويبدوا أن المفكرين والساسة اليابانيين قد فطنوا إلى امتداد أثر التعليم ليس فقط فى عهد واحد بل لعهود عديدة. وها هو السياسى الشهير إيتوهيروبومى (١٨٤١-١٩٠٩) يلخص فلسفة المســئولين اليابانيين عن التعليم فى عهد ميجى بالقول الآتى "إذا كنت تخطط لسنة أزرع حبة وإذا كنت تخطط لعشر سنوات أزرع شجرة، وإذا كنت تخطــط لمائــه سنة، علم الناس فعندما تبذر حبة فأنك ستحصد محصولاً واحداً، وعندما تعلم الناس فستحصد مائه محصول. "

عزيزى القارئ ألا ترى معى نجاح هذا المبدأ السابق فى اليابان بدرجــة كبيرة فعلى الرغم من مرور اليابان بمحن الحرب ودمارها أثنــاء الحــرب العالمية الثانية إلا أن اليابان استطاعت أن تعيد بناء نفسها من جديد. صحيح

أن هناك ظروفاً دولية ساعدت اليابان من أجل إعادة بناء نفسها ومن مثـل هذه الظروف قيام الشيوعية بالصين ولجوء أمريكا لجعـل اليابـان قاعـدة عسكرية وفكرية وثقافية لها فى الشرق الأقصى بدلاً من الصين. إلا أننا نرى أن أهم من مساعدة الولايات المتحدة الأمريكية لليابان، فإن وجـود مـواطن يابانى متعلم بل وعنده نهم من أجل تعلم كل شئ جديد.مواطن قـادر علـى تطوير ما يستقبله من الخارج لمصلحته وفائدته ، وهو ما قاد اليابان لتتبـوء منزلة راقية بين الدول. وهو إنما يرجع الفضل فيه للمبدأ الذى ذكرنا تـواً : مبدأ إيتو هيروبومى.

الفصل الرابع

الإصلاحات الإقتصادية

فى عهد محمد على

الفصل الرابع

الإصلاحات الإقتصادية فى عهد محمد على

حاولت الحملة الفرنسية قدر استطاعتها إنعاش الإقتصاد المصرى وذلك بتوجيه الضربات القاسية للمماليك الذين كانوا يمثلون أحد الأسباب الهامة والرئيسية فى اضمحلال الإقتصاد المصرى. وكذلك حاول الفرنسيون إنعاش بعض الصناعات فى مصر بعد أن تحطم الأسطول فى موقعة أبى قير البحرية ومحاصرة الأسطول الإنجليزى للشواطئ المصرية. وعندئذ لم يجد مسئولى الحملة وسيلة لإنتاج الملابس والأسلحة والذخيرة سوى صنعها محلياً. ولذلك قام الفرنسيون بإنشاء المصانع الحربية، وقاموا أيضاً بإنشاء بعض المصانع المدنية لصناعة النسيج والقماش والصابون ودباغة الجلود والصباغة والشمع وغيرها من المصانع. إلا أنه على الرغم من تلك المجهودات فإن طول فترة الركود الإقتصادى أثناء الحكم العثمانى جعلت هذه المجهودات غير ذات أثر كبير، ونضيف إلى ذلك أن قصر فترة الحملة لم يمكنها من تطبيق بعض الطموحات التى كانت تصبو إليها. ولذلك كان على محمد علىّ أن يقوم بمجهودات عظيمة ورائدة فى مختلف المجالات الإقتصادية سواء كانت صناعية أو زراعية أو تجارية.

وفى هذا الصدد يجب أن نلفت نظر القارئ أن مهمة محمد علىّ من أجل تطوير الاقتصاد المصرى بعناصره المختلفة كانت أصعب كثيراً من مهمة قادة التحديث فى عصر ميجى من أجل نفس الهدف وذلك نظراً لاختلاف الظروف الداخلية فى كلا البلدين، ففى مصر اتسمت الفترة التى سبقت عهد محمد علىّ بحدوث اضطرابات كثيرة بسبب النزاعات الطويلة بين المماليك بعضهم البعض وبينهم وبين العثمانيين مما أدى لافتقاد الأمن فى

البلاد فى حين أننا نجد فترة طوكوجاوا الطويلة قد أتاحت لليابان قدراً كبيراً من الأمن والسلام جعلا الاقتصاد اليابانى خلال تلك الفترة يشهد استقراراً واضحاً للعيان. وهذا ما جعل نهضة ميجى تنطلق إنطلاقة قوية وسريعة ومستمرة فيما بعد .

وسوف نحاول من خلال هذا الفصل تناول الاقتصاد المصرى بنواحيه المختلفة سواء زراعية أو صناعية أو تجارية، ومدى التطور الكبير الذى أحدثه محمد علىّ فى هذه النواحى والإجراءات الذكية التى اتخذها من أجل إقامة اقتصاد قوى يختلف تمام الإختلاف كماً وكيفاً عن الإقتصاد المصرى قبل عهده.

أولاً : الزراعة

لقد أرتبط تطور الزراعة ونموها بعدة إجراءات قام بها محمد على ، وكان لاتخاذ هذه الإجراءات تأثير مباشر على الزراعة فى ذلك العصر. والشئ اللافت للنظر عند الحديث عن التجربة النهضوية فى كل من مصر فى عهد محمد على والتحربة اليابانية فى عهد ميجى أن كليهما اتخذ عدة إجراءات للنهوض بالزراعة في البلدين . وكانت هناك خطوات متشابهة مثل إجراء المسح للأراضى الزراعية .وكانت هناك إجراءات متباينة مثلما قام به محمد على عندما أعطى حق الانتفاع فقط للفلاحين لاستخدام الأراضى الزراعية ومن يفشل فى استخدام أرضه أو يعجز عن سداد حقوق الدولة من ضرائب وغيرها، كانت الأرض تنتزع منه وتعطى لآخر يستطيع إدارتها. فى حين أننا نجد أن قادة الإصلاح فى عهد ميجى قاموا بتثبيت حق الملكية الفردية والخاصة للأراضى الزراعية وإطلاق هذا الحق من كل قيد. ورغم هذه الخطوة الهامة فى سبيل الإصلاح الزراعى فإنها لم تمنع من وجود

معاناة شديدة لدى الفلاح اليابانى مثلما عانى الفلاح المصرىّ ، وربما وصلت هذه المعاناة إلى حد التطابق ، مثل فرض الضرائب الباهظة وفقدان الفلاح لأرضه نتيجة المبالغة فى تثمينها، وذلك ممن ليس لديهم سطوة من الفلاحين. ولكن للحقيقة وللتاريخ اختلفت ردود فعل كل منهما، فقد كان الفلاح المصرى سلبياً مسالماً إلى حد كبير، وعكس ذلك كان الفلاح اليابانى متمرداً غاضباً يثير الكثير من الإنتفاضات ضد الحكومة التى رأى أنها تظلمه.

فى الحقيقة إن كراهية محمد على للمماليك لم تكن فقط فى كونهم مصدراً لتهديد أمن البلاد فحسب ، ولكنه أعتبرهم أيضاً طبقة طفيلية تعيش على جهد وكد الفلاحين ، وذلك لأن الكثير منهم عمل كملتزم لجمع الضرائب، وهم فى ذلك كانوا يغبنون الفلاح ويمتصون دماءه من أجل جمع الضرائب فكثرت المظالم. وهم كذلك كانوا من أسباب القلاقل للحكومة فى القاهرة. فهم فى وقت خضوعهم للحكومة كانوا يرسلون إليها فى أوقات السلم الضرائب ولكن بعد الأحتفاظ بالفائض، أما فى أوقات التمرد فكانوا يحتفظون بكل ما يجمعونه لأنفسهم. ولذلك رأى محمد على ضرورة القضاء على المماليك وعلى فئة الملتزمين، وبهذه الطريقة يقضى على الطبقة الطفيلية أو الطبقة الوسيطة بينه وبين الفلاحين، وبذلك يضمن حصول الدولة على نصيبها من غلة الأراضى، وبمقدار أعلى من ذى قبل.

ثم كانت الخطوة التالية التى قام بها محمد على ألا وهى قيامه بعملية مسح للأراضى الزراعية، وقد قام بها على سنوات متتالية لضبط الحيازة، وكأساس لإعادة توزيع الأراضى على الفلاحين، وفى مساحات متناسبة وتحت سلطة الباشا. وقد قام محمد على بأول عملية مسح للأراضى الزراعية فى عام ١٨١٣. وكانت عملية المسح هذه هى أساس لتوزيع محمد على

أطيان كل ناحية على أهاليها القادرين على الزراعة. ويجب أن ننوه هنا أن توزيع الأراضى لم يكن إلا فى شكل إنتفاع الفلاح باستخدام الأرض الزراعية فى مقابل دفع الضرائب التى كانت فى الغالب مبالغا فيها للدولة. وقد أستمر حق الإنتفاع هذا فى الزيادة رويداً رويداً حتى وصل إلى مرحلة الملكية العقارية الثابتة والنهائية فى نهاية القرن التاسع عشر، وبالتحديد فى عام ١٨٩١. ونحب أن ننوه هنا إلى أن اليابان كانت سابقة فى هذا المضمار على مصر بفترة طويلة فقد أجرى أول مسح للأراضى الزراعية فى اليابان فى عام ١٥٩٤، أى ما يزيد عن قرنين من الزمان سبق بهما مسح الأراضى الزراعية فى اليابان ذلك المسح الذى أجراه محمد على. إلا أن الطريف فى المسحين أن هدفهما الأكبر تمثل فى ضمان أكبر عائد من الضرائب للحكومة فى كل من البلدين اليابان ومصر.

وكنتيجة مباشرة لإلغاء نظام الإلتزام وإجراء مسح للأراضى الزراعية، فقد نتج عن ذلك ظهور أنواع مختلفة من الحيازة للأراضى الزراعية أهمها الأراضى الخراجية أو الأثرية وهى تمثل الغالب الأعظم من الأراضى الزراعية فى مصر، وهى تلك الأراضى التى ينتفع بها الفلاحون فى مقابل أداء الضرائب عنها لوالى مصر. ثم الأراضى التى تسمى بالأوسية وأراضى المسوح التى كانت تعطى للمشايخ عوضاً عن مجهوداتهم فى العناية بالضرائب وتلك المصاريف التى كانوا يدفعونها عند استقبالهم المسئولين الحكوميين وغيرهم. وكانت هناك أيضاً أراضى الأبعاديات التى منحها محمد على لأقاربه وأهل أسرته وكذلك كبار الضباط وكبار الموظفين، وكان محمد على يهدف من وراء ذلك توجيه مدخرات هؤلاء الأغنياء نحو الأراضى الزراعية حتى يزيد من مساحة الأرض الخضراء، خاصة وأن معظم

أراضى الأبعاديات كانت أراضى نصف مستصلحة.وبهذا استطاع محمد على تطبيق مبدأ (نفع واستنفع) على نطاق واسع.

ولما كان محمد على يدرك مدى حاجة الزراعة إلى القوى العاملة بأعداد كبيرة فقد عمل على تشجيع زيادة النسل، كوسيلة طبيعية لزيادة عدد السكان.وأصدر أوامره إلى مشايخ القرى بتشجيع تزويج الأولاد متى وصلوا سن البلوغ ومساعدتهم فى مصاريف الزواج إذا كانوا من الفقراء. وعملت حكومة محمد على من ناحية أخرى على إعادة الهاربين إلى قراهم وبلادهم. ووجهت أعداداً كبيرة منهم للعمل فى الزراعة. ولتحقيق التوازن السكانى بين القرى بعضها البعض فقد قام محمد على بنقل عمال من القرى كثيرة السكان إلى النواحى التى تنقصها الأيدى العاملة. وإلى جانب ذلك كان فكر محمد على يتجه نحو العملية فى أدائه، ونرى ذلك بجلاء عندما كان يقوم بإعفاء الرجال من مديريات البحيرة والغربية والدقهلية من أداء الخدمة العسكرية وذلك لأن هذه المديريات كانت تقوم بزراعة الأرز الذى يحتاج لأيدى عاملة كثيرة وحتى يستطيعوا خدمة هذه الزراعة.

وكان على محمد على أن يقوم بمشاريع رى عديدة حتى يحدث ثورة فى الإنتاج الزراعى وكذلك لتدبير مياه الرى لزراعة القطن – الذى كان ذا أهمية إقتصادية عظيمة للبلاد ولمحمد على -- على الأخص فى غير زمن الفيضان ولمنع الماء من أن يفيض على حقول القطن فى زمن الفيضان .

ومن ناحية أخرى قامت الدولة فى عصر محمد على بتغيير أسلوب العمل فى الزراعة فقيدت حرية الفلاح فى اختيار ما يريد زراعته من المحاصيل وكذلك تقييد حرية التصرف فى هذه الحاصلات، وكذلك تعيين المحاصيل وتحديد مساحتها.وبذلك استطاع محمد على أن يسيطر على

مجريات الزراعة واحتكارها. ولم يكتف بذلك ولكنه عمل على تغيير الأساليب التى كان يتبعها الفلاح فى الزراعة والتى ورثها عن أجداده. بل إن الفلاح أجبر على إتباع هذه الأساليب الجديدة حتى لا يقع تحت طائلة العقوبات التى فرضتها الدولة فى هذه الحالة . ومما لا شك فيه أن هذه الأساليب الجديدة كانت فى الغالب فى صالح الدولة فقد كانت تقضى بزراعة الأرض بمحصولات تتمشى مع نوع التربة، وبانتقاء التقاوى، واستيفاء الخدمة ، مما يؤدى إلى زيادة الإنتاج.

ولما كان محمد على عملياً فى أدائه فقد اتخذ عدة خطوات لنشر الأساليب الحديثة فى الزراعة واستيعاب الفلاحين لها . ولذلك قام بإحضار عدداً من الخبراء الزراعيين من مختلف البلدان لتعليم الفلاحين تلك الأساليب الحديثة ، فأحضر بعض ذوى الخبرة فى زراعة القطن من آسيا الصغرى وعنيهم للعمل فى القرى وفرض على الأهالى إطاعة أوامرهم. كذلك استعان محمد على ببعض الفلاحين الذين إستطاعوا تعلم طريقة زراعة القطن فى تدريب غيرهم فى القرى الأخرى.

وبالنسبة للمحاصيل الأخرى فقد قام محمد على بتنويع مصادر الخبراء كل حسب تخصصه، فجلب الخبراء الإنجليز والفرنسيين لتعليم المصريين طريقة زراعة القصب وطريقة استخراج السكر. واستقدم بعض الأرمن لتعليم المصريين طريقة زراعة نبات النيله المستخدم فى صباغة الملابس. واستقدم الأرمن من أسيا الصغرى لتعليم المصريين زراعة الخشخاش لاستخراج الأفيون منه. فقد كان الأفيون يستعمل كمادة طبية يضعها الأطباء لعلاج بعض الأمراض.

ولم تكن الزراعة فى عصر محمد على لتتقدم وتزدهر دون القيام بأعمال الرى المختلفة من شق الترع اللازمة لرى أراضى جديدة أو لأحياء مناطق زراعية كانت قد كسدت وبارت كما الحال فى ترعة المحمودية، أو بردم ترع لم يعد لها أهمية أو بالأحرى بوجودها تعتبر عائقاً أو خسارة على الزراعة كما الحال فى ترعة الفرعونية. فقد كانت هذه الترعة تصل بين فرعى النيل ولكنها كانت تضر بالبلاد والأراضى القائمة على فرع دمياط لأنها كانت تستنفد كميات كبيرة من المياه من هذا الفرع فيقل ماؤه، ويطغى عليه البحر فيختلط بماء النيل ويفسده بملوحته. ولذلك كانت زراعة الأرز تتأثر سلبياً فى تلك الجهات بسبب ملوحة المياه.

وقد قام محمد على بحفر العديد من الترع كان من أهمها وأضخمها ترعة المحمودية وكان غرضه من شقها إحياء الأراضى الزراعية فى مديرية البحيرة، وجعل الترعة طريقاً للمواصلات النيلية بين الأسكندرية وداخل البلاد. وكانت المواصلات قبل ذلك تمر عبر طريق رشيد. وقد قام محمد على بافتتاح هذه الترعة فى عام ١٨٢٠. ولضخامة هذا المشروع وأهميته ذهب محمد على بنفسه إلى الأسكندرية لحضور أفتتاح الترعة . إلا أن معاناة المصريين الذين قاموا بحفر هذه الترعة فاقت الخيال فقد راح ضحيتها ما يزيد عن أثنى عشر ألفاً من بين عشرات الآلاف الذين شاركوا فى حفرها بل ويذكر المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى أن هؤلاء الموتى دفنوا على ضفتى الترعة تحت أكداس التراب الذى كانوا يرفعونه من قاعها. وسوف نتحدث عن معاناة المصريين فى عهد محمد على من أجل رفع قواعد النهضة بشئ من التفصيل فيما بعد.

ومن الترع الأخرى الهامة التي حفرها محمد على ترعة الخطاطبة فى البحيرة. وامتداد ترعة الجعفرية والخضراوية فى الغربية. وفى الدقهلية : البوهية والمنصورية والشرقاوية وأم سلمة ودويدة. وفى المنوفية النعناعية والسرساوية والباجورية. وفى الشرقية حفر محمد على ترعة الوادى، والمسلمية ، وبحر مشتول ، والصادى ، وبحر الرمل وترعة بردين، ومصرف بلبيس. وفى القليوبية الزعفرانية ، والباسوسية ، والشرقاوية ، والقرطامية ، والبولاقية القبلية، وترعة قنبة، ومصرف العموم. وفى بنى سويف ترعة البرانقه، أما فى المنيا فقد حفر محمد على ترعة الفش. وفى جرجا ترعة السبخه، والمرعشلي وغيرها والحقيقة أن محمد على لم يهتم فقط بحفر الترع ولكنه إهتم أيضاً بتعميقها، ووصل بعمق بعض الترع إلى ثمانية أمتار ونصف المتر. كما عمل على تعميق الترع الفرعية التي تأخذ مياهها من تلك الترع الرئيسية والتى ذكرناها تواً ، وكذلك أقام القناطر على الترع الكبيرة لتنظيم كمية المياه فيها. ونذكر من تلك القناطر على سبيل المثال لا الحصر القنطرة الكبرى ذات العيون التسع على بحر مويس بالزقازيق وقناطر المسلمية وقناطر بحر مشتول ، وقناطر النعناعية . ولكن أهم وأعظم تلك القناطر كانت بلا شك القناطر الخيرية ، وقد بدأ العمل فى إنشاء هذه القناطر فى عام ١٨٣٣ ولكن تعطل فى عام ١٨٣٥ نتيجة لانتشار وباء الطاعون ثم عاد مرة أخرى. وكان هدف إنشاء القناطر الخيرية هو رفع منسوب المياه وتغذية ثلاث ترع رئيسية. الأولى تسير إلى شرق فرع دمياط، والثانية تسير وسط الدلتا والثالثة تسير إلى غرب فرع رشيد.

والى جانب شق الترع وإقامة القناطر أقام محمد على باشا العديد من السدود والجسور ومن أهمها إصلاح وإقامة سد أبو قير، والذى بفضله جفت

بحيرة أبو قير المالحة حتى أصبحت أرضاً زراعية. ويذكر المؤرخون مدى المشقة التى واجهت المسئولين عن إقامة هذا السد ولأن ذلك أقتضى عدة سنوات لإتمامه. ولذلك أشاد به الجبرتى وعده من محاسن الأفعال.

ولقد ساعدت هذه المشروعات التى ذكرناها والتى لم نذكرها على زيادة مساحة الأرض المزروعة فى مصر من ٢,٠٥٤,٧١٠ فدان فى عام ١٨١٣ إلى ٣,٥٠٠,٠٠٠ فدان فى عام ١٨٣٥ ثم إلى ٣,٨٥٦,٢٢٦ فدان فى عام ١٨٤٠ وهذه الزيادة تعكس مدى المجهودات العظيمة التى قام بها محمد على، وكذلك التضحيات الكبيرة التى قدمها الشعب المصرى وخاصة الفلاح المصرى من أجل أن تصل المساحة المزروعة إلى هذا الرقم الكبير الذى ذكرناه توا.

ثانياً : الصناعة

يختلف المؤرخون والباحثون فى أمر الصناعة ومستواها عندما تولى محمد على الحكم فى عام ١٨٠٥ وقبيل هذا التاريخ. فمنهم من يرى أن الصناعات والحرف كانت بدائية، يتولاها عدد بسيط من الصناع لتزويد السكان الذى خيم عليهم الفقر بالضروريات الأولية للحياة من غذاء وكساء وأدوات منزلية. وإنه لم تكن هناك صناعات تحويلية تتطلب إستخدام العدد والآلات أو قوى محركة سوى القوى العضلية والمواشى ولم تكن المصانع تعرف من أنواع الوقود سوى قش الذرة والأرز والجلة. وكان الصانع فى الريف ينتج سلعاً يبيعها فى القرية نفسها أو يقايض عليها. فى حين أن هناك البعض الآخر من الباحثين يرى عكس ذلك وهو أن مصر عرفت صناعة متقدمة إلى حد ما، والدليل على ذلك ما قام به السلطان سليم الأول من نقل أمهر الصناع إلى عاصمته عند فتحه لمصر، إذ لم يبق بها سوى بعض

الصناعات البسيطة مثل غزل القطن والكتان بالمغازل اليدوية وضرب الأرز وطحن القمح وعصر الزيت.

ولكننا لابد أن ندرك أن أحوال البلاد قد تغيرت تماما وتبدلت منذ مجيء العثمانيين إلى مصر وحتى قبيل عهد محمد على ويكفى أن نعرف أن الفترة الزمنية التى تفصل بين السلطان سليم وبين عهد محمد على تصل إلى ما يقرب من ثلاثة قرون. ثانياً . إعتراف الرأى الثانى بتأثر الصناعة المصرية بما فعله سليم سلبياً فى الصناعة المصرية وإبقاءه فقط على الصناعات التقليدية . كذلك فإننا إذا سلمنا بصحة أن أرباب الصناعات التقليدية كانوا يمارسون نشاطهم بكثير من النجاح والتوفيق. فأن ذلك كان بسبب تواضع مستوى الحياة بشكل عام . ولا يمكننا إغفال أن هذا المستوى الحياتى بشكل عام ومستوى الصناعات بشكل خاص لم يكن ليوائم طموحات محمد على الكبيرة من أجل إنشاء صناعة قوية متقدمة تساعده بل وتدفعه من أجل إنشاء جيشه القوى وبالتالى إمبراطوريته التى طالما حلم بتكوينها ونجح بالفعل فى ذلك لبعض السنوات.

كان نظام الطوائف هو المهيمن على الصناعة فى مصر فى مطلع القرن التاسع عشر. وكان هذا النظام يعد كوحدة لتنظيم السكان فى المدن من النواحى الإدارية والمالية والإقتصادية. وقد شمل هذا النظام جميع الصناعات، فهناك طوائف للنساجين والصباغين وغيرهم من الصناع والحرفيين. والطريف أن نظام الطوائف هذا أمتد تأثيره لعدد من الجماعات الأخرى غير الصناع والحرفيين . فشمل أيضاً مجاورى الأزهر والمتصوفة وحتى الشحاذين واللصوص والعاهرات . وكان الفرد أى فرد لا يستطيع ممارسة حرفته أو نشاطه دون أن ينخرط فى طائفة من الطوائف. وكان على

الفرد أن يخضع لنظام وتقاليد الطائفة التابع لها وهى بالتالى توفر له الرعاية والأمان.

وعلى الرغم من أن نظام الطوائف هذا يسهل على الدولة أو السلطة جمع الضرائب من الصناع والحرفيين، وكذلك فرض الضرائب عليهم. نظراً لأن أصحاب المهنة والحرفة الواحدة كانوا يتجمعون فى مكان واحد. إلا أن هذا الشكل أو النظام الصناعى أدى إلى تقزيم الصناعات وانغلاق كل طائفة من الطوائف على نفسها محاولة فى ذلك الإعتماد على أهل المهنة فقط فى تدبير أمورها الحياتية مما أدى بالتالى إلى عدم تقدم الصناعات والحرف الخاصة بكل طائفة.

وعندما بدأ محمد على فى فرض نظام الاحتكار على الصناعات أخذ نظام الطوائف يضعف رويداً رويداً، وذلك لإصرار محمد علىٰ على بناء المصانع الكبيرة وتحويل الإشراف عليها للدولة. كذلك فإن نظام الطوائف وأن كان يحافظ على مستوى الحرفة وينقل أسرارها الفنية من جيل إلى جيل إلا أنه لم يسع إلى تطوير نفسه بإدخال وسائل إنتاج وقوى محركة جديدة أو استثمار رؤوس أموال كبيرة فى مجال الصناعات الحرفية، وذلك راجع إلى عدم الإتجاه نحو التصدير إلى الخارج وقناعة السوق الداخلية بمنتجات مختلف الطوائف على سوء مستواها. إلى جانب ذلك فقد واجهت منتجات الطوائف المصرية منافسة شديدة من السلع الأوربية التى أخذت تتغلغل فى السوق المصرية.

إلا أنه على الرغم من ذلك فأن نظام الطوائف واصل وجوده فى الصناعة المصرية فى عهد محمد على وحتى أواخر القرن التاسع عشر. بل إننا نجد طوائف لم تكن موجودة قبل عصر محمد على وظهرت فى عهده

مثل طائفة خدم المنازل. بل إن محمد على ومن منطلق مبدأ " الغاية تبرر الوسيلة " دافع عن وجود طائفة لا يجب لحاكم أن يدافع عن وجودها مثل طائفة العاهرات ، وذلك عند احتجاج أهالى القاهرة على وجودها بمدينتهم، وذلك فقط من أجل الضرائب التى تدفعها هذه الطائفة للدولة. ولم يوافق محمد على على إبعاد هذه الطائفة إلى إسنا أو أقصى جنوب البلاد إلا بعد أن تعهد أهالى القاهرة بدفع قيمة الضرائب المفروضة على تلك الطائفة سنوياً. وفى تطبيق محمد على لمبدأ الغاية تبرر الوسيلة أمثلة عديدة سوف نذكرها فى موضع آخر من الكتاب.

وكما رأينا كيف تحكم محمد على فى الزراعة ورسم سياستها والتحكم فيما يزرع الفلاح وما لا يجب عليه زراعته، وحتى الكميات التى يجب على المزارعين توريدها للحكومة وسعر هذه المحاصيل. وبذلك أصبح محمد على المزارع الوحيد. فإنه أبى على نفسه إلا أن يكون الصانع الوحيد أيضاً بل والتاجر الوحيد كما سنرى فيما يلى.

رأى محمد على أن تطويره للاقتصاد المصرى يتطلب منه تطبيق مبدأ الإحتكار وخاصة فى الصناعة من منطلق أهمية الصناعة الإستراتيجية من أجل تقوية جيش الإمبراطورية المصرية التي طالما حلم بتكوينها واستطاع بالفعل تحقيقها لفترة من الزمن. وعلى الرغم من تعارض نظام الإحتكار مع مبدأ الملكية الفردية ومعارضة الدول الغربية لتطبيق هذه السياسة الاقتصادية إلا أن محمد على مضى فى تطبيق مبدأه. وفى تقرير لوكيل الملك البريطانى وقنصله العام فى مصر وملحقاتها، والذى أرسله من القاهرة فى يناير ١٨٣٨ يقول إن إحتكار الصناعة يتسبب فى فقر الصانع وتجريده من أملاكه. ولو حدث أن أظهر القناصل العاملين – الذين كانوا فى مصر آنئذ – الحزم فى

معارضة هذه الاحتكارات واحتجوا بصفة جدية على هذا الموضوع لألغيت جميعها إلغاءاً تاماً أو جزئياً غير أن كثيرين منهم كانوا يشتغلون بالتجارة وكان الباشا صاحب الفضل الكبير عليهم.

وإذا كان محمد على بتطبيقه لمبدأ احتكار الصناعات والتوسع فى إقامة المصانع الكبيرة قد اضعف نظام الطوائف الذى كان يسود الحياة الاقتصادية فى مصر فى مقتبل القرن التاسع عشر وخاصة بالمدن المصرية. فأنه بالتالى قد أضعف أيضاً من الحرف التقليدية. فقد أثرت حركة التصنيع تأثيراً سلبيا على الصناعات التقليدية حيث عجزت هذه الأخيرة عن مواكبة حركة التقدم التى شهدتها المصنوعات الغربية. وللأسف لم تستطع هذه الصناعات التقليدية أن تستعيد نشاطها بعد انهيار النهضة الصناعية الكبرى التى أقامها محمد على . وذلك نظراً لفقدها كثيراً من مقوماتها وللخبرة الفنية التى كانت معتزة بها ولنظام الطوائف الذى كانت محتمية فى ظله. وإلى جانب ذلك كان إنشاء المصانع الكبيرة وخاصة المصانع الحربية يتطلب من محمد على أعداداً كبيرة من الصبية الذين كانوا يتبعون مختلف الطوائف ولذلك كان فى أحيان كثيرة يقوم بجمع الأطفال والصبية من القرى والأحياء الوطنية بالمدن وإدخالهم عنوة فى بعض المصانع للتدريب على العمل فى الصناعات الكبيرة . وقد أدى ذلك إلى تقويض نظام الصبية الذي كان الضمان لاستمرار الطائفة والحفاظ على تقاليدها المرعية.

وبعد أن مهد محمد على الطوائف لإقامة نهضة صناعية كبرى وحديثة تقوم على احتكار الدولة للصناعة و بالتالى إلى جعل محمد على وكأنه الصانع الوحيد فى البلاد. وقد أتخذ محمد على كافة الوسائل من أجل إقامة صناعة حديثة وأعتمد كذلك على خبراء من مختلف الدول الغربية. تماماً كما

سوف نرى في حالة النهضة اليابانية فى عصر ميجى من اعتماد حكومتهـا وقادة إصلاحها على العديد من الدول الأوربية فى إمدادها بـالخبراء، كـلٌ حسب تفوقه فى مجاله. وهذه الوسيلة تعتبر واحدة من أسباب النجاح الـذى لازم كلا النهضتين .

كان أول مصنع يقوم محمد على ببنائه هو مصـنع الغـزل والنسـيج بالخرنفش فى عام ١٨١٦ ، وقد استدعى لهذا المصنع عمالاً فنيين من ايطاليا، وقد تخصص هؤلاء الفنيون فى غزل خيوط الحرير لصناعة القطيفة والساتان الخفيف . فى نفس العام أعتمد محمد علىَ على اختراع لأحد المصريين يدعى "حسين شلبى عجوة" وهذا الاختراع كان لآلة لضرب الأرز، وتبييضه وقد أنعم محمد علىَ على مخترع هذه الآلة بمكافأة وأمره بتركيب مثيلها فـى دميـاط وأخرى فى رشيد لشهرتها فى إنتاج الأرز والاتجار فيه .

ومن الجدير بالذكر أن هذا الاختراع هو الذى حث محمد علي علـى توجيه فكره لإنشاء مدرسة للهندسة، وبالفعل تم إنشاؤها فى القلعة فى عـام ١٨١٦ . وتقرر البدء بتدريس قواعد الحساب والهندسـة وعلـوم المقـادير واستخراج المجهولات أى التنقيب عن الثروات في باطن الأرض من معادن وغيرها. ومن الجدير بالذكر أن محمد علي استعان أيضاً فى مدرسة الهندسة هذه بخبراء من الروم مثل " روح الدين أفندى " ومعه آخرون من الأفـرنج تعاونوا جميعاً فى إقامة هذه المدرسة. وهكذا نرى أن محمـد علـى سـار بالتصنيع إلى الأمام ولكنه لم يغفل الناحية العلمية التطبيقية وتمثل ذلك فـى صورة التعليم الصناعى الهندسى.

ومما لا شك فيه أنه كانت هناك مجموعة من الصناعات موجودة قبـل ظهور الباشا على حلبة التاريخ المصرى. ولكن مما لا شك فيـه أيضـاً أن

محمد على استطاع تحقيق تقدم واضح فى مختلف هذه الصناعات بل وإيجاد صناعات أخرى لم تكن موجودة فى مصر أو كانت متأخرة إلى حد كبير وأحدث فيها الوالى تقدماً ملموساً . وعلى سبيل المثال لا الحصر - عملية حلج القطن، فقد كانت هذه العملية تتم عند صغار مزارعى القطن باستعمال قوس المنجد ، ولدى كبارهم باستخدام آلة بدائية كانت تدار بالأرجل، وكان مقدار ما يحلجه العامل فى اليوم قبل عام ١٨٢٠ لا يزيد عن ستة أرطال من القطن فى اليوم الواحد. ولكن هذا المستوى لم يكن ليرضى طموح محمد على من أجل إنتاج كميات كبيرة من غزل ونسيج القطن كى يستطيع تصديره للخارج. ولذلك أدخل بعض التجديد على آلات حلج القطن، وأستورد آلات حديثة، كما قام باستيراد المكابس الأمريكية للإستعاضة بها عن كبس القطن بالأرجل.

وبالطبع أدت هذه الخطوات إلى توفير كبير فى نفقات الإنتاج وزيادة الربح. كذلك نجد أن نمو صناعات أخرى والتوسع فيها أدى بالتالى إلى تنشيط حركة تصنيع ترتبط بهذه الصناعات كما رأينا ذلك مثلاً فى زراعة القطن. وهو الذى حدث بدرجة أعمق فى صناعة النيلة التى أقيمت بتوسع وذلك اعتماداً على التوسع فى زراعة النيلة ، والتى أوجدت بالتالى صناعة تجهيزية انتشرت فى عدة مدن مثل شبرا والعزيزية وأشمون والمحلة والجيزة والفشن وغيرها.

وإلى جانب الصناعات التجهيزية احتلت أيضاً الصناعات التحويلية مكانة كبيرة عند محمد على. ومن أهم هذه الصناعات صناعة غزل ونسج القطن والتى أقام لها الوالى عدة مصانع كان أولها مصنع الخرنفش فى عام ١٨١٦ . وكان هذا المصنع معداً من قبل لغزل خيوط الحرير وصناعة

القطيفة ثم موله الباشا لكى يصبح مصنعاً لغزل ونسج القطن. وبعد ذلك أقام محمد على عدة مصانع لغزل ونسيج القطن في قليوب وشبين الكوم وزفتى وميت غمر ودمياط وفوه ورشيد وبنى سويف والمنيا وأسيوط وطنطا وجرجا وقنا وأسنا.

وإلى جانب الصناعات التحويلية التى ذكرناها تواً كان هناك صناعات أخرى أهتم بها محمد على مثل صناعة الطرابيش، والتى أنشأ من أجلها محمد على مصنعاً كبيراً لها فى فوه عام ١٨٢٤ . وكانت هذه الصناعة ضرورية لتزويد الجيش بما يحتاجه منها حيث كان الجندى لا يستغنى عن إرتداء الطربوش. وأنشأ والى مصر أيضاً مصانع للزجاج. ونهى عن إستعمال الزجاج الأوربى مع وجود الزجاج المحلى حتى ولو تفوق الزجاج المستورد فى صنعه عن الزجاج المحلى. وهكذا نجد هذا القائد الذى لم يكن مصري الأصل ينتهج سياسة وطنية لحماية المنتج المحلى بل إنه حاول قدر استطاعته تحقيق الإكتفاء الذاتى فى المصنوعات الهامة، وزيادة الإنتاج منها حتى يستطيع تصدير الفائض منها إلى الخارج . وكان أهم منتج تصديرى هو الأقمشة القطنية والتى كان يصدرها إلى تركيا وبلاد الشرق الأدنى ، كذلك أمر بإرسال منسوجات التيل إلى أوروبا بل أن طموحه أتجه لتصدير المنتجات الصناعية إلى الولايات المتحدة الأمريكية. واتخذ محمد على عدة إجراءات لتشجيع التصدير، منها على سبيل المثال إعفاء هذه الصادرات من الرسوم الجمركية: ولنا فيما كتبه القنصل البريطانى فى مصر السيد سالت Salt إلى وزير خارجيته السيد جورج كانينج فى مايو ١٨٢٥ خير دليل على ذكاء محمد على ونشاطه من أجل ترويج المنتجات المصرية بالخارج إذ يقول التقرير " يصنع الباشا جميع السلع الغالية الثمن والمعدة الآن للتصدير

إلى الخارج كالقطن والنيلة والسكر، وذلك عن طريق توظيف ذكى لـرأس مال كبير أسهم الباشا فى توزيعه على مختلف فروع هذه الصناعات، ومـا كان بمقدور المزارعين المحليين أن يتملكوا الآلات الحديثة لإنتاج هذه السلع، وبالتالى لم يكن بمقدور التجار الأجانب الحصول عليها ". وهكذا وبشـهادة الأجانب كان محمد على يبذل قصارى جهده من أجل تنشـيط الصـناعات والصادرات. وسوف نجد تشابهاً كبيراً بين مسلك محمد على هـذا ومسـلك حكومة ميجى فى تعاملها مع التصنيع والصادرات عند الحـديث فـى هـذا الموضوع عن نهضة ميجى.

ثالثا : الصناعات الحربية

كان من الطبيعى والمنطقى أيضاً أن تزدهر وتنتعش الصناعات الحربية بشقيها البرى والبحرى فى عهد محمد على وذلك لأن الهدف الأول والأكبر لوالى مصر كان بناء الإمبراطورية المترامية الأطراف والتى تصبح مصـر قاعدتها. وهذا ما نجح فيه محمد على على الرغم من بعض الهـزائم التـى واجهت جيوش محمد على سواء فى اليونان أو غيرها مـن الـبلاد. إلا أن عظمة محمد على وعبقريته كانت تتمثل فى إنه لم يستسلم للهزائم ، وكـان يعود بعد كل هزيمة واجهته أقوى مما كان عليه. إلا أنه علينا أن نعترف بأن طموحات محمد على الكبيرة وعبقريته وتمتعه بنخبه من كبـار العسـكريين الأفذاذ مثل أبنه القائد العظيم إبراهيم والكولونيل سليمان باشـا الفرنسـاوى وأحمد المنيكلى باشا وسليم باشا فتحى وغيرهم من القادة العسكريين الـذين أبلوا بلاءً حسناً فى مختلف الحروب التى قام بهـا محمـد علـى لإنشـاء الإمبراطورية المصرية. نقول أنه على الرغم من كل هذه الظروف المواتية وغيرها من الظروف الأخرى إلا أن ذلك لم يمنع فى النهاية مـن اصـطدام

فكرة بناء امبراطورية محمد على بظروف دولية أكبر قوة من تلك الظروف التى واتته وساعدته فى ذلك . وتمثلت هذه الظروف المضادة فى عدم رضاء دول الغرب الأوربى عن إنشاء الإمبراطورية المصرية التى كانت سوف تصبح أقوى كثيراً من الإمبراطورية العثمانية التى كانت على وشك السقوط على أيدى جيوش إبراهيم باشا لما كان يمثل ذلك من خطر كبير على الغرب المسيحى من كافة الجوانب سواء دينية أو اقتصادية أو بالطبع أيضاً أيديولوجية. فقد كان إنشاء إمبراطورية فتية جديدة كفيلاً بتغيير كل تلك الأحوال التى ذكرناها وأن يقلبها رأساً على عقب إذا ما ذهب الرجل المريض وأتى الرجل الطموح القوى محمد على وأبنه إبراهيم الذى كان من الواضح أنه يفوق أباه طموحاً وإقداماً ، وأبدى معارضة واضحة لقبول أبيه قرارات مؤتمر لندن ١٨٤٠. وكان يريد أن يذهب إلى أبعد نقطة ممكنه وكان من ضمن طموحاته أيضاً إسقاط الدولة العثمانية.

وعلينا أيضاً بأن نعترف بأن لكل عصر معطياته وثوابته فما كان مطلقاً زمن محمد على يصبح فى زماننا هذا نسبياً. ومن بين ثوابت ومعطيات النصف الأول من القرن التاسع عشر وحتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين أن الحرب واحتلال البلاد الأخرى هى سمة التقدم ، بل ان استغلال موارد البلاد المستعمرة لم يكن لبعيب الدولة المستعمرة الغازية . وهذا المبدأ سوف نجده أيضاً بوضوح فى فكر قادة الإصلاح فى عهد ميجى وذلك عندما قامت اليابان بمحاربة الصين وروسيا بل وضم كوريا لها ، وذلك عندما أحست أن لديها القوة الكافية للقيام بدور الدولة الغازية واليابان لم تفعل ذلك منفردة فقد كانت معظم دول الغرب دول غازية مستعمرة لدول كثيرة وخاصة فى قارتى آسيا وأفريقيا . إذن فالحرب والإستعمار كانا

بمثابة معيارين للتقدم ، و قد وعى و أدرك محمد على هذا المبـــدأ جيـــداً . ولذلك بذل قصارى جهده من أجل تحقيق هذا المبدأ . و للحق فأن محمد على كان سباقاً فى تنفيذ مبدأ شريعة الغاب الذى نادى به المفكر الوطنى اليابـــانى فوكوزا يوكيتشى بل و طبقته اليابان بعد محمد على بأكثر من نصف قرن . و من المؤكد أن هذا القائد الذى تعلم القراءة و الكتابة فى سن متقدمـــة لـــم يدرس نظرية دارون فى أن المبادئ التى تحكم العلاقات الدولية مستمدة من قانون الغاب ، حيث يفتك القوى بالضعيف و لذلك تتصارع الدول من أجـــل إمتلاك القوة و الثروة .

وفى هذا الصدد يجب أن نعى جيداً أن محمد على لم يكن رجل فكر بل رجل حرب و سياسة إلا أن ذكاءه الفطرى ربما فاق الكثير من المفكـــرين . ويجب علينا أن ندرك أيضاً أن قادة إصلاح ميجى اعتمدوا على عديد مـــن المفكرين من أمثال فوكوزاوا يوكيتشى و مورى أرينوى و غيرهمـــا مـــن المفكرين البارزين . أما محمد على فقد كانت معظم سياسته و توجهاته تنبع من ذات نفسه . و ربما يكون من المفيد هنا أن نذكر قصة طريفة تحكى عن محمد على عندما جاءه دبلوماسى إيطالي بنســـخه مـــن كتـــاب " الأميـــر " لميكيافيللى حتى يستوعبه و يطبق أراءه فى السياسة فما كان من محمد على إلا أن أبتسم . و قال للدبلوماسى الأيطالى أنه من الأفضـــل أن يـــأتى لـــه بميكيافيللى هذا حتى يلقنه دروس فى السياسة و فى كيفية تطبيق مبدأ " الغاية تبرر الوسيلة " الذى ينادى به ميكافيللى . ونستطيع أن نـــذكر عـــدة أمثلـــة لبراعة محمد على فى تطبيق هذا المبدأ و لكن سيكون هذا فى موضع آخر .

نعود للحديث عن نشاط محمد على فى مجال الصناعات الحربية و الذى رأى والى مصر أنه يجب أن تقوم هذه الصناعات بقوة فى مصر و ألا يعتمد

على جلب السلاح من الخارج لأن ذلك يعرض قوة الدفاع الوطنى للخطر ويجعل جيش البلاد تحت رحمة الدول الأجنبية . و لذلك قام محمد على بإقامة مصنعين كبيرين للأسلحة البرية فى القلعة و فى الحوض المرصود . هذا إلى جانب إقامة عدد من مصانع أو معامل البارود . ويعد عام ١٨٢٧ عاماً هاماً بالنسبة لمصنع الأسلحة بالقلعة ، فقبل هذا العام لم يكن بالحجم الكبير إلا أنه بعد ذلك اتسعت ترسانة القلعة ، و صارت معاملها تمتد من قصر صلاح الدين إلى باب الإنكشارية الذى يطل على ميدان الرميلة. و كان يعمل بهذه الترسانة حوالى ٩٠٠ عامل لصنع الأسلحة . و كانت هذه الترسانة تنتج كل شهر من ٦٠٠ إلى ٦٥٠ بندقية .

إلا أن الجدير بالذكر هنا أن الصناعات الحربية لم تقتصر على أنتاج البنادق و الذخيرة و المعدات و صب المدافع و حسب و لكن امتدت هذه الصناعات لتشمل أيضاً الصناعات الثانوية المساعدة مثل عجلات و عربات للمدافع و صناديق الذخيرة و حدوات الخيل و السيوف و السلط وركائب السرج و الأبازيم و الآلات التى يستعملها حملة البلط و النسافون و غيرها من المصنوعات المساعدة مثل المسامير و الأقفال و الأمشاط و عربات النقل و صناديق الأدوية . و هناك أيضاً صناعات أخرى مثل صناعة قرب الماء و أطقم الخيل و صناديق الخرطوش . وبالطبع كان يعمل فى هذه الصناعات عدد كبير من العمال .

أما مصنع الحوض المرصود للأسلحة فقد كان قبل ذلك مصنعا للنسيج و تم تحويله مصنعاً للأسلحة فى عام ١٨٣٦ ، و هذا يدلنا على مدى إهتمام محمد على بهذه الصناعة التى كانت بمثابة عصب بناء إمبراطوريته مع الأسطول الذى أنشأه و الذى سوف يأتى الحديث عنه فيما بعد . و قد بلغ عدد

العمال فى مصنع الحوض المرصود حوالى ١٢٠٠ عامل و رؤساء عمال وكانوا يقومون بصنع نحو ٩٠٠ بندقية فى الشهر ، و تنوعت أنواع هذه البنادق مابين بنادق للمشاة و أخرى للفرسان و ثالثة لرجال المدفعية . و قد أكد الخبراء الأجانب و خاصة الفرنسيون أن البنادق التى كانت تصنع فى كل من مصنعى القلعة و الحوض المرصود كانت بحالة جيدة . و من الجدير بالذكر أيضاً أن الماريشال مارمون الذى قام بزيارة لمصر ذكر أنه شاهد مصنعاً ثالثاً فى ضواحى القاهرة . و أن هذه المصانع الثلاث كانت تصنع ما يقرب من ١٦٠٠٠ بندقية فى السنة علاوة على ما تقوم بصناعته من الطبنجات و السيوف .

وإلى جانب مصانع البنادق و الطبنجات أقام محمد على أيضاً مصانع للبارود و الذخيرة عند المقياس و فى الروضة و البدرشين و الأشمونيين والفيوم و أهناسيا و الطرانة و كانت هذه المصانع مجتمعة تنتج كميات كبيرة من البارود ، حتى أن مصنعاً واحداً و هو مصنع الروضة كان ينتج ما يقرب من ٣٥ قنطارا من البارود فى اليوم الواحد .

أما الصناعات الحربية البحرية فقد أرتبطت أول الأمر بإرسال القوات المصرية إلى الحجاز و لذلك قام محمد على بإنشاء ترسانة بولاق لصناعة السفن ، و معها أيضاً ما يلزمها من الأسلحة و المهمات و الذخائر والتموين . إلا أن تركيب السفن فعلياً كان يتم بالسويس بعد أن تحمل عشرات بل مئات من الأبل الأخشاب من ترسانة بولاق إليها ، و فى السويس يتم إنزال السفن إلى البحر ، و يمكننا أن نسترجع صورة النشاط الذى كان عليه المجتمع الصناعى فى مصر منذ ما يزيد على قرنين و نصف القرن من الزمان من خلال قراءة الوصف الدقيق لهذا المجتمع من المؤرخ

عبد الرحمن الجبرتى ، فهو يقول " و هكذا عمل الباشا ترسانة عظيمة بساحل بولاق ، واتخذ عدة مراكب بالأسكندرية لجلب الأخشاب المتنوعة ، و كذلك الحطب الرومى من أماكنها على ذمته..... و إستمر ينشئ المراكب ، الكبار و الصغار التى تسرح فى النيل من قبلى إلى بحرى ، ومن بحرى إلى قبلى ، ولا يبطل الإنشاء و الأعمال ، والعمل على الدوام ، و كل ذلك على ذمته و مرمتها و عمارتها و لوازمها و ملاحوها بأجرتهم على طرفه لا بالضمان كما كان في السابق .... و كان يجتمع بترسخانة الأخشاب لصناعة المراكب مع ما ينضم إليها من الأخشاب الرومية شئ عظيم يتعجب الناظر من كثرته و كلما نقص منه شئ فى العمل إجتمع خلافه أكثر منه " . هكذا كان العمل يتم على قدم وساق فى ترسانة بولاق ، و التى لعبت دوراً كبيراً فى تجهيز السفن اللازمة لنقل الحملة المصرية إلى شبه جزيرة العرب لمحاربة الوهابيين .

أما الترسانة الثانية الهامة فقد أنشئت بالاسكندرية ، و كان ذلك بعد أن تعرض الأسطول المصرى للتدمير فى موقعة نافارين البحرية . و الجدير بالذكر هنا أنه على الرغم من حزن محمد على الشديد على ضياع هذا الأسطول إلا أن حزنه هذا لم يمنعه من بناء أسطول أكبر و أضخم من الذى دمر . ولذلك عزم على إنشاء ترسانة الأسكندرية الجديدة المتطورة و التى تم إنشاؤها بالفعل فى عام ١٨٣١ و يجب هنا التفريق بين هذه الترسانة الجديدة التى تولى أمرها المهندس الفرنسى البارع المسيو سريزى الخبير فى فن بناء السفن و الأحواض و الترسانات وتلك الترسانة القديمة و التى كانت تصنع فيها السفن على الطراز القديم و كان يشرف عليها رجل يدعى شاكر أفندى الأسكندرى و يعاونه الحاج عمر الذى سوف يستمر نشاطه فى الترسانة

المتطورة . وكذلك كان يشرف عليها المهندس الفرنسي المسنو بيسون Besson .

وفى ترسانة الأسكندرية التى أنشئت بعد موقعة نافارين البحرية تم صنع العديد من السفن الحربية المتطورة . وكانت هذه الترسانة من الصخامة حتى أنها ضمت ١٥ قسماً ومصنعاً (ورشة) نذكر منها على سبيل المثال ورشة الحدادين لصناعة الحديد وورشة القلوع لعمل أشرعة السفن وورشة البوية لصنع الدهانات وورشة البوصلات والنظارات.......إلخ .

وضمت الترسانة البحرية بالأسكندرية حوالى ٨٠٠٠ عامل استطاع منهم ١٦٠٠ عامل إتقان صناعة السفن مما جعل مصر تستغنى عن شراء السفن من الخارج. ومن أهم البوارج التى صنعت فى ترسانة الأسكندرية البارجتان (مصر) و (عكا) وهما بحجم السفن الفرنسية ذات الطوابق الثلاث المعروفة فى ذلك العصر، وكانت كل منهما تحمل مائة مدفع. هذا إلى جانب أربع بوارج أخرى من ذات المائة مدفع، وهى المعروفة بأسماء (المحلة الكبرى) و(المنصورة) و (الأسكندرية) و (حمص) ومن السفن التى تم ترميمها فى ترسانة الأسكندرية الفرقاطة (الجعفرية) وهى ذات ستين مدفعاً ، وكان إنشاؤها بميناء ليغورن بايطاليا. ومن الجدير بالذكر أن هذه الفرقاطة قد أبلت بلاءً حسناً فى حروب الأناضول التى خاضها محمد على ضد الدولة العثمانية.

كل هذه البوارج الحديثة الضخمة وغيرها الكثير تم صنعها فى عقد الثلاثينات من القرن التاسع عشر. ونحب هنا أن نذكر أن أول بارجة حربية يابانية صنعت فى هولندا بأيدى الهولنديين وذلك فى عام ١٨٥٧. ولم تحمل هذه البارجة التى تدعى (كانرين مارو) Kanrinmaru سوى إثنى عشر

مدفعاً فقط. وقد وصلت هذه السفينة إلى ميناء ناجاساكى فى أغسطس ١٨٥٧ وفى العام التالى أبحرت إلى مدينة إيدو (طوكيو) وفى عام ١٨٦٠ أبحرت أخيراً إلى الولايات المتحدة الأمريكية،وكانت هذه المرة هى الأولى لسفينة يابانية تمخر عباب المحيط الهادى. ونستطيع أن ندرك الفارق الزمنى والنوعى الكبيرين بين البوارج المصرية والتى ذكرناها تواً والتى حمل الكثير منها مائة مدفع وصنعت فى بداية الثلاثينات من القرن التاسع عشر وبين أول سفينة حربية صنعت بعد ما يزيد عن ربع قرن متأخرة عن البوارج المصرية.

ولقد لعب الأسطول المصرى الذى أنشأه محمد على دوراً كبيراً وعظيماً فى بناء الإمبراطورية المصرية الحديثة – إذا صح التعبير – تماماً كما كان للجيش دوره الكبير فى ذلك. وفى هذا المعنى نذكر الفقرة التالية والتى ذكرها الدكتور يونان لبيب رزق فى ملفه الوثائقى عن محمد على الكبير بجريدة الأهرام وذلك نقلاً عن مقال للأستاذ محمد رفعت بك كان قد كتبه فى عدد تذكارى عن محمد على نشر فى عام ١٩٤٩ وهو يذكر فيه ما يلى " كما كان لجيش محمد على أثره العظيم فى بعث الروح القومية بين الشعوب العربية كذلك كان إنشاء الأسطول المصرى بمثابة إيذانا للعالم بأن القوة التى خلقها محمد على فى الشرق قد تهيأت لأن تقتحم ميدان النشاط الدولى فى السياسة والتجارة وأن السيادة فى شرق البحر المتوسط توشك أن تنتقل من أيدى بحارة اليونان الثائرين الذين دوخوا الأتراك وأججوا ضدهم لهيب الثورة من جوف جزر بحر إيجة عدة سنوات. وفعلاً ما كاد أسطول مصر يبرح بقيادة إبراهيم الفاتح ومعه صهره القائد البحرى محرم بك حتى أنفذوا خطتهم فى احتلال جزيرة كريت والسيطرة على بحر إيجة ونزلت الحملة المصرية

بأرض المورة فأسقط فى يد الثوار وأخذت حصونهم وقلاعهم تسقط واحدة تلو الأخرى حتى خيف أن يقضى العرب على سلالة الأغريق القدماء فى أرض هيلاس صاحبة الفضل الأول على مدنية أوروبا الحديثة. لذلك تدخلت الدول إلى جانب اليونان وانسحبت قوات محمد على من المورة وهو جد ناقم على السلطان ساخط على رجاله أشد السخط ولأول مرة فى تاريخه أملت عليه " حكمته " السياسية أن يلتزم الحيدة ويأبى معاونة السلطان فى حربه ضد روسيا، فكان هذا مقدمة للصراع الذى نشب بينه وبين السلطان واستمر نحو ثمانية أعوام . ونزيد على هذا أن هذا الأسطول المصرى كان له الفضل فى حماية السواحل المصرية بل ومصر كلها من أطماع دولة استعمارية كبرى كإنجلترا وفرنسا. فقد وعى محمد على تماماً الدرس من خلال معايشته لتجربتين استعماريتين كبيرتين هى الحملة الفرنسية بقيادة نابليون فى عام ١٧٩٨ والحملة الإنجليزية بقيادة فريزر فى عام ١٨٠٧. ولحماية مصر من تلك الأطماع طبق محمد على الشق القوى والشديد فى شخصيته ولسان حاله يقول "إذا أردت أن تعيش بين الغيلان فلابد وأن تكون غولاً أيضاً وإلا أكلتك الغيلان الأخرى" وهو هنا استطاع وبنجاح فائق أن يطبق مبدأ قانون "الغاب" الذى نادى به المفكر اليابانى الكبير فوكوزا يوكيتشى بعد محمد على بأكثر من نصف قرن. وذلك حتى تستطيع اليابان مواجهه الغرب القوى الذى يطبق هذا المبدأ منذ زمن بعيد .

الفصل الخامس

إصلاحات ميچى الإدارية

الفصل الخامس

إصلاحات ميجى الإدارية

قبل أن نتحدث عن إصلاحات ميجى الاقتصادية، لابد أولاً من الحديث عن الإصلاحات الإدارية والإجتماعية التى قامت بها حكومة ميجى بعد أن تقلدت مناصب الأمور فى البلاد . ومن خلال حديثنا عن الإصلاحات الإدارية والإجتماعية لإصلاح ميجى سوف يتكشف لنا أن نصيبها ودورها الذى لعبته فى هذه الإصلاحات كان بارزاً و سريعاً ، وربما كان أوضح كثيراً من الإصلاح الإقتصادى الذى قامت به ، وذلك لسببين : الأول أن الإصلاح الاقتصادى جاء بطيئاً وعلى مراحل عدة وهنا يجب أن نعطى تجربة محمد على فى الإصلاح الاقتصادي كل الاحترام والتقدير لأنها كانت مكثفه وذات نتائج ملموسة وفى سنوات قليلة. والثانى هو أن الإصلاح الإقتصادى فى اليابان قد قطع شوطاً لا بأس به فى أواخر عصر طوكوجاوا، ولذلك فقد ورثت حكومة ميجى اقتصاداً قوياً بعض الشئ ، وهذا ما سوف نوضحه فيما بعد من خلال معالجتنا لحالة الاقتصاد فى عصر ميجى. أما الإصلاح الإدارى والإجتماعى فى نهضة ميجى فيمكن إيضاحه من خلال الإجراءات التالية :

١) عاصمة جديدة وإمبراطورية مستقره :-

ليس هناك من شك أن تغيير عاصمة الإمبراطور ومقره الرسمى من كيوطو إلى طوكيو بعد أكثر من ألف عام من مكوثها فى المدينة الأولى يعد أول وأوضح تغيير لثورة ميجى الإصلاحية. ففى منتصف يوليو ١٨٦٨ تم تغيير إسم مدينة إيدو إلى طوكيو وهى تعنى العاصمة الشرقيه. وفى نهاية شهر أغسطس من العام نفسه أقيمت المراسم الرسمية لتولى الإمبراطور

ميجى عرش البلاد، وفى الشهر التالى تغير اسم التقويم اليابانى التقليدى من كيئو Keio " لقب والد الإمبراطور ميجى الى ميجى. ومن الجدير بالـــذكر أنه خلال فترة تولى الإمبراطور كومى Komei. والد الإمبراطور ميجـــى والتى استمرت إحدى وعشرين عاماً ، تغير اسم التقويم خلالها ٦ مــرات . وهذه عادة قديمة كان يتغير إسم التقويم عدة مرات خلال فترة الإمبراطـــور الواحد وذلك إذا حدثت مصيبة طبيعية مثل زلزال خطير أو حريق كبيـــر أو حتى إذا جاء حدث سعيد ولكن منذ سبتمبر ١٨٦٨ صدر فرماناً إمبراطورياً يقضى بأن يصبح هناك تقويماً واحداً طوال فترة الحكم الإمبراطورى الواحد وهو ما أطلق عليه "إيسى إيتشيجن " Issei-Ichigen " والكلمة الأولى تعنى فترة الحكم للإمبراطور الواحد، أما الثانية فتعنى تقويم واحد.وهذا له دلالـــة ومعنى كبيران وهو أن الإمبراطور الجديد والحكومة الجديدة أيضاً أرادا أن يصبغا على عهد ميجى صبغة الإستقرار. وبالفعل حـــدث هـــذا الإســـتقرار التقويمى فلم تشهد فترات الحكم الأربع منذ عصر ميجى وحتى الآن تغييـــراً فى التقويم وسميت بأسماء الأباطرة الأربع الذين حكموا منـــذ عـــام ١٨٦٨ وحتى وقتنا هذا وهى على التوالى ميجى - طايشو - شوا - هيسى.

ومن أجل إثبات الاستقرار الأمنى والسلطوى للإمبراطور والحكومـــة الجديدة قام الإمبراطور برحلة من كيوطو إلى العاصمة الجديدة طوكيو بدأها فى العشرين من شهر سبتمبر ١٨٦٨ ووصل إلى طوكيو فى الثالث عشر من أكتوبر. وأصطحب خلال هذه الرحلة العديد من الدايموات (حكام الأقاليم) والنبلاء. وأثناء الرحلة كان الإمبراطور يوزع النقود والهدايا علـــى الـــذين أضيروا فى الحروب التى سبقت استتباب الأمور للإمبراطور مثـــل حـــرب طوبا- فوشيمى والتى دارت رحاها بين جيش حكومة الباكفو القديمة وجيش

الحكومة الجديدة الموالية للإمبراطور والذى كان يتكون أساسا من جيش مقاطعتى ساتسوما (محافظة كاجوشيما) وتشوشو (محافظة ياماجوتشى). إلا أن الإمبراطور ميجى عاد مرة أخرى إلى العاصمة القديمه كيوطو فى الثانى والعشرين من ديسمبر من نفس العام. ثم قام الإمبراطور برحلة مماثلة إلى طوكيو فى مارس من عام ١٨٦٩ وأقام فى قلعة إيدو وجعل منها مقره الإمبراطورى الذى أستقر فيه حتى مماته فى عام ١٩١٢. ولا يزال كذلك حتى يومنا هذا.وهكذا بدأ هذا العصر بتغيير كبير وهو انتقال العاصمة من كيوطو إلى طوكيو وتابع هذا التغيير الإدارى عدة تغييرات إدارية أخرى .

ولتأكيد سلطة الإمبراطور على البلاد وإحلال سلطته محل سلطه الشوجون كان لابد من أن تصبح مكانته فوق مكانة الشوجون بل وجعلها مكانة مقدسه. ولا يمكن أن يتأتى ذلك إلا بفصل الشنتوية عن البوذية، وعليه يمكن جعل الديانة الشنتوية هى الديانة الرسمية لليابان . وبما أن هذه الديانة فى أصلها تدعو لجعل الإمبراطور اليابانى ألهاً يرث الأباطرة الإله فى حكم البلاد.وبذلك يصبح الإمبراطور ميجى هو الحاكم الفعلى للبلاد. ولهذا صدر قانون فصل الشنتوية عن البوذية فى مارس ١٨٦٨. وبذلك تم الفصل بين الإله فى الشنتوية (Kami) وبين بوذا (Hotoke) الذين كانا قد اختلطا ببعضهما البعض منذ دخول البوذية إلى اليابان وأصبح الفرق بين الإلهين واضحاً عند اليابانيين وذلك منذ قرون طويلة. واستطاع المواطن اليابانى إدراك أن الإمبراطور ميجى هو خلف للألهه الذين كانوا يحكمون البلاد قديماً. إلا أن هذا القانون أدى إلى مهاجمة أتباع الشنتوية المخلصين لمعابد البوذية ودمروا عدداً كبيراً منها ومن تماثيل بوذا التى تحتويها. ولم يكتفوا بذلك بل قاموا بمحاولات جادة لكى يجعلوا الرهبان البوذيين يرتدوا عن بوذيتهم.

ثم كانت الخطوة التالية لذلك هي رد أملاك الإمبراطور التى كانت فى حوزة الدايميوت وهى الأراضى (Han) والأتباع (Seki) وهـو مـا عرف فى التاريخ الياباني بـــ هانسيكى هوكان Hanseki – Hokan أى إعادة الأرض والأتباع للإمبراطور.وقد تم هذا الأجراء الهام بناءً على مبادئ وخطة من الزعماء الأربع لمقاطعات ساتسوما وتشوشو وطوسا وهيزن (محافظة ساجا حالياً) وهم على التوالى :

أوكوبوطوشيميتيشى Ōkubo Toshimichi وكيدو تاكايوشى Kido Takayoshi وإيتاجاكى تايسوكى Itagaki Taisuke . والرابع هو اوكوما شيجنوبو Okuma Shigenobu ، وبالفعل وافق زعماء المقاطعات الأربع وغيرها على إعادة أملاك الدايميوت فى الأربع مقاطعات المذكورة تواً للإمبراطور.

ولأن المقاطعات الأربع السابق ذكرها وزعماءها كانو بمثابة العمود الفقرى للحكومة الجديدة فقد كان لذلك تأثيراً كبيراً على المقاطعات الأخرى فى أن تحذو حذوها، وتوافق هى الأخرى على أن تتبع المقاطعات الحكم المركزى للإمبراطور. وبذلك أخذت اليابان أول وأهم خطوة كى تصبح دولة موحدة لا تختلف فى ذلك عن الدول الأوروبية التى أرادت أن تقلدها وتسير مسيرتها التقدمية والحضارية.

وهكذا أصبح من الممكن للحكومة الجديدة الإقدام على إلغاء نظام المقاطعات والذى يعد شكلاً من أشكال النظام البائد ، وكذلك لأنه يعد بمثابة عائق للحكومة المركزية حيث أن المقاطعات لم تكن تخضع للسلطة القضائية المركزية. كما أن الدولة كانت فى أمس الحاجة للسيطرة على موارد المقاطعات. وقد ساعد على إلغاء هذا النظام الإدارى العتيق، معاناة العديد

من المقاطعات وخاصة الصغيرة من الإفلاس والضعف. كذلك فإن الحكومة الجديدة (حكومة ميجى) ضمنت للدايموات أن يحصلوا على رواتب ثانوية تعادل عشر دخل مقاطعتهم السابقة. وبذلك استطاعت الحكومة إصدار قرار إلغاء المقاطعات وإنشاء المحافظات (Haihan Chiken) فى عام ١٨٧١ ونص هذا القرار على إستبدال الوحدات الإدارية الجديدة أى المحافظات بالمقاطعات القديمة. وأن يحكم كل منها محافظ تعينه الحكومة المركزية ويتبعها مباشرةً. إلا أن أول تقسيم للمحافظات الذى بدأ فى بداية عام ١٨٧١ كان غريباً إلى حد كبير فقد بدأ بإنشاء ثلاث محافظات كبرى أساسية ويطلق عليها(FU) وهو لفظ يعنى الحكومة فى اللغة اليابانية. أى أنها محافظات ذات طابع خاص وأهمية خاصة أيضاً نظراً لتاريخها السياسى والإقتصادى القديم، وهذه المحافظات الثلاث هى طوكيو وأوساكا وكيوطو. هذا إلى جانب ٣٠٢ محافظة ، وهو عدد كبير وغريب كما ذكرنا. فمثلاً كانت هناك محافظة تدعى شيكاما، وهى الآن لا تعدو سوى مجرد بلدة صغيرة تقع فى مدينة هيمجى. والياباني العادى إذا سمع أن ثمة محافظة بهذا الإسم كانت موجودة باليابان فربما أفرط في الضحك. إلا أن هذا التقسيم سرعان ما تغير فى نهاية العام نفسه ليصبح ثلاث محافظات حضارية كبرى و٧٢ عادية.وتفاوت عدد المحافظات بين الزيادة والنقص حتى إستقر نهائياً فى عام ١٨٨٨، فأصبح هناك ثلاث محافظات حضارية FU ضمت المدن الثلاث (طوكيو وأوساكا وكيوطو) وضواحيها، و٤٣ محافظة إقليمية Ken بما فى ذلك جزيرة أوكيناوا، واحتفظت الحكومة المركزية لنفسها بحق تعيين المحافظين.

ونحن نرى من خلال التقسيم السابق ذكره شيئاً من اللامعقولية في اتخاذ القرارات من جانب الحكومة أو بالأحرى على المستوى الرسمي. وكانت هذه اللامعقولية أيضاً تتحكم في تفكير العامة أو المستوى الشعبي. فمثلا فسر العامة تعبير " ضريبة الدم "- الذى شاع آنذاك إثر تطبيق قانون التجنيد الإجباري- على أن الحكومة تأخذ الشباب الصغير وتعلقه كالذبيحة وتعتصر منه الدم حيث تجعل الأجانب يشربون هذا الدم، وأن خمر العنب الذي يحتسيه الأجانب في ضاحية يوكوهاما ما هو إلا دم هؤلاء الضحايا من الشباب، بل إن لون البزات العسكرية وقبعات الجنود القرمزية ما هي إلا صبغة الدم المأخوذ من الشباب الصغير. ويذهب البعض الأخر أكثر من ذلك زاعماً أن أسلاك التلغراف التى تمدها الحكومة عبر المدن لم تصنع إلا من أجل إستخدامها في إرسال هذه الدماء إلى خارج البلاد .

وبسبب معارضة اليابانيين وخاصة الريفيين لموضوع ضريبة الدم أو بالأحرى معارضتهم للتجنيد الإجباري، فقد قامت ثورات وهوجات في عدة محافظات، وكان أعنفها في محافظات أوينا وأوكاياما وشيماني وكاجاوا. وفي المحافظه الأخيرة حدث في يوليو من عام ١٨٧٣ أن هاجم الثوار ما يقرب من ٤٠٠ مكان حكومي ما بين مقرات العمد والمجالس المحلية وقشلاقات الجنود والمدارس وإلى جانب ذلك أيضاً هاجموا حوالى مائتى منزل من منازل عامة الناس. وعلى الفور أرسلت محافظة كاجا برقية إلى قيادات الجيش تقول فيها " إن الدهماء أخطأوا فهم عبارة " ضريبة الدم " التى جاءت في أمر التجنيد الإجباري وعليه فقد قامت السلطات بالقبض على ما يقرب من عشرين ألف من الثوار وعاقبتهم.

هكذا كان الحال من اللامعقولية فى التصرفات سواء على الصعيد الرسمى أو الشعبى فى اليابان فى أوائل عهد ميجى. إلا أن إرادة التقدم التى كان يمتلكها قادة إصلاح ميجى واستعداد الغالبية العظمى من الشعب اليابانى للعمل والتضحية هى ما غيرت الأوضاع، وجعلت اليابان بعد أقل من ثلاثين عاماً تدخل فى عداد الدول المتقدمة، بل وتحقق الإنتصار فى حربين ضد دولتين كبيرتين مثل الصين وروسيا فى عامى ١٨٩٥ و ١٩٠٥ على التوالى.

٢) التجنيد الإجبارى عند ميجى ومحمد على:

رأينا أن خطوة إلغاء المقاطعات وإنشاء المحافظات قد أدت إلى تحقيق وحدة البلاد تحت راية الإمبراطور لتصبح اليابان دولة مركزية يكون للإمبراطور والحكومة الجديدة اليد العليا فى حكم البلاد وليس للدايميوت (حكام الأقاليم) وبذلك تصبح اليابان كأى دولة أوربية متقدمة.ولكن هذه البلدة الموحدة لابد لها من جيش موحد قوى أيضا يحافظ على أمن البلاد وهدوئها، وكذلك لإمتلاك جيش لا يقل قوة عن جيوش الدول الأجنبية يستطيع حماية البلاد من أى خطر خارجى. وهذا هو تحقيق الشق الثانى من المبدأ الأساسى لثورة ميجى الإصلاحية " دولة غنية وجيش قوى " ونعنى بالطبع هنا الجيش القوى " Kyōhei " ويرجع الفضل فى بادئ الأمر لإنشاء هذا الجيش القوى إلى القائد العسكرى أومورا ماسوجيروا Omura Masujirō (١٨٢٥-١٨٦٩) وقد اشترك فى عدة حروب من أهمها حرب بوشين التى شنتها الحكومة الجديدة على فلول جيش الباكفو القديم، وغيرها من الحروب. وقد رأى هذا القائد أن ينشئ الجيش اليابانى على النسق الفرنسى، وبالفعل أحدث عدة إنجازات من أجل تحديث الجيش اليابانى إلا أنه سرعان ما أُغتيل على أيدى المحافظين القدماء فى عام ١٨٦٩. ثم تلقى الراية منه قائد آخر

من نفس موطن رأسه (محافظة ياماجوتشي) وهو ياماجاتا أريتوسو Yamagata Aritomo (١٨٣٨-١٩٢٢)، وقد استعان الأخير أيضاً بالنسق العسكرى الفرنسي وأضاف إليه النسق الألماني لتحديث وإنشاء جيش ياباني قوى . وأهم نقطة فى إنشاء هذا الجيش الحديث كانت التجنيد الإجبارى الذى لا يعتمد فقط على المحاربين القدماء (Bushi) ولكن على عناصر الأمة الأربع المحاربين والمزارعين والصناع والتجار (Shinokosho) دون تفريق بين مهنة المواطن أو رتبته أو وضعه الإجتماعى سواء كان شريفاً أو وضيعاً أو غنياً أو فقيراً. وبالفعل وعلى أساس تصريح للإمبراطور يبتغى هذا النظام، وكذلك على أساس مذكرة رسمية أصدرتها حكومة ميجى فى نهاية عام ١٨٧٢ جاء فيها " إن الإنخراط فى الجيش مثله مثل دفع الضرائب يعد كلاهما واجباً وطنياً " وعليه فقد صدر فى يناير فى عام ١٨٧٣ قانون التجنيد الإجبارى. وقد نص هذا القانون أنه على كل شاب يبلغ العشرين من عمره أن يتلقى فحص التجنيد وعلى اللائقين من هؤلاء الشباب أن ينخرطوا فى الجيش البرى أو الجيش البحرى.وأن يتلقى الجندى ثلاث سنوات من التدريب وذلك فى الجيش العامل. وبعد إنتهاء مدة الخدمة والعودة للمنزل يظل الجندى أربعة أعوام تحت ما يسمى بالجيش الإحتياطى "

على أن قانون التجنيد الإجبارى جاء به بعض الإستثناءات التى تعفى بعض الشباب من دخول الجيش مثل موظفى الحكومة وعائلى الأسر الذين كانوا يدفعون الضرائب وكذلك من كانوا يدفعون البدلية ، وكانت تبلغ ٢٧٠ يناً وهو مبلغ جسيم بمقاييس الزمان. ويعفى أيضاً من التجنيد طلاب المدارس الحكومية وخريجوها وذلك لحاجة البلاد آنذاك للمتعلمين، وكذلك يعفى طلاب البعثات فى خارج البلاد. وكان هناك أسباب صحية وبدنية أيضاً يمكن

بسببها عدم الإنتساب للجيش فكان الشاب الذى يقل طوله عن ١٥٤ سم لا يقبل بالجيش. وهو شرط يمكننا من التعرف عن مدى قصر اليابانيين أنذاك.

إلا أن الشعور العام عند بداية تنفيذ قانون التجنيد الإجبارى هو عدم الترحيب بالإنخراط فى الجندية. وكان لذلك بالطبع أسباب منطقية فالسن الذى كان يقبل خلاله الشباب بالجندية كان سن العطاء والعمل فكان ذلك بمثابة عائق كبير على أعمال المواطنين الفقراء سواء كانوا فلاحين أم مدنيين. هذا إلى جانب أن مدة ثلاث سنوات يقضيها الشاب فى الجندية لم تكن على الإطلاق فترة قصيرة مع ملاحظة أن ظروف الحياة أنذاك كانت قاسية بالنسبة لليابانيين إلى حد كبير. كذلك فإنه لعدم تعود اليابانى العادى على حياة عسكرية منذ مئات السنين واعتماد العسكرية اليابانية على طبقة الساموراى أثره فى عدم تقبل الغالبية العظمى من الشباب اليابانى لهذه الخدمة الوطنية الوليدة على الأقل فى بداية تطبيقها. ولذلك نجد أن محاولة الهروب من الجندية كانت شيئاً شائعاً انذاك وحاول الكثير من الشباب اختلاق الأسباب والحجج حتى لا ينخرطوا فى الجندية .فتارة يترك أسرته ليصبح أبنا بالتبنى لعائلة أخرى وذلك للتخلى عن لقبه الأصلى والزواج من بنت العائلة الجديدة (Yoshi) وبهذه الطريقة كان يمكن للشاب أن يهرب من الجندية كما كان ينص القانون اليابانى أنذاك. وكان أخرون ينتقلون إلى جزيرة هوكايدو وأوكيناوا حيثما لا يطبق قانون الجندية هناك. وقد عبر مؤسس نظام التجنيد الإجبارى ياماجاتا أريتومو عن ألمه من عدم تقبل أبناء المزارعين والصناع والتجار للجندية بقوله " إن الأتباع من المزارعين والصناع والتجار لم يدركوا بعد حق الدفاع عن الوطن. ولم تتغير تلك العادات الخسيسة الجبانة، فكثير من الشباب يكرهون دخول المعسكرات ". و الطريف أنه ظهرت كتب

ترشد الشباب كيف يمكنه التهرب من التجنيد على غرار ما يمكن تسميته " المرشد الأمين في كيفية التهرب من التجنيد " و بسبب هذه المعارضة للتجنيد الإجباري من قبل المواطنين فلم تسر الأمور على ما يرام بالنسبة للتجنيد الإجباري في بداية الأمر ، فلم ينخرط في العسكرية سوى ٢٠ % من مجموع الشباب الذي يبلغ عمره عشرين عاماً . ولكن مع تقليص عدد الإستثناءات ، و مع تصاعد المد الوطني و الشعور القومي فقد قويت دعائم التجنيد الإجباري خاصة عندما اثبت جنود الكتائب وهي التي كانت بمثابة عضد جيش الحكومة الجديدة شجاعة نادرة في مواجهة قوات مقاطعة ساتسوما و المشهور عنها الشجاعة و الثبات وكانت معادية لجيش الحكومة الجديدة في الحرب التي يطلق عليها " حرب الغرب و الجنوب " Seinan Senso التي إندلعت في عام ١٨٧٧ وكان جيش الحكومة يتكون في الأساس من جنود الفلاحين Dobya kushohei و الجدير بالذكر أن لفظ Dobya kushohei ماهو إلا لفظ تهكمي يطلق على البسطاء من الفلاحين اليابانيين . و هكذا أثبت الفلاح الياباني أنه يمكن له أن يصبح جندياً قوياً مدرباً و يستطيع الدفاع عن وطنه تماماً .

ولعلنا بعد أن ذكرنا هذه المعلومات عن قانون التجنيد الأجباري ,ما صادف حكومة ميجي الجديدة من مصاعب حتى إستطاعت إنشاء جيش قوى لا يقل عن جيوش الدول الأوربية حداثة و قوة ، لعلنا جميعاً القارئ و نحن نردد سوياً عبارة " أن التاريخ يعيد نفسه " فقد حدثت نفس الصورة و نفس الأحداث تقريباً منذ ما يزيد عن نصف قرن عندما قرر محمد على أن يبني جيشاً قوياً يستطيع به بناء إمبراطورية كبرى تكون مصر قاعدتها . والصورة التي حدثت في اليابان في أوائل عصر ميجي تكاد تكون صورة

بالكربون لما قام به محمد على فالجيشان قاما على النسق الغربى ، و بالذات على النسق الفرنسي و الألمانى . و نجد أن فترة التجنيد الإجبارية ثلاث سنوات فى كلا البلدين . و نجد كذلك أن الفلاحين فى كلا البلدين كانوا يكرهون الإنخراط فى الجندية .إلا أننا وجدنا أن الفرق في أن محمد على مر بمراحل عدة قبل أن يلجأ إلى الفلاح المصرى من أجل تكوين جيش الإمبراطورية وإنه واجه صعوبات شتى من أجل ذلك . فى حين أننا لا نجد هذا عند الحديث عن الجيش اليابانى ، و ذلك لأن محمد على لم يكن أمامه سوى تجريب عدة جنسيات من ألبان و أتراك و مغاربة و شمال أفريقيين من تونس و الجزائر و إحتياطيين من البدو ، إلى أن فكر فى الأعتماد على الجنود العبيد السودانيين الذين من أجل الحصول عليهم أقدم على غزو السودان . و لما فشلت فكرة الإعتماد على العبيد السودانيين لجأ أخيراً إلى الفلاح المصرى ليكون العمود الفقرى لجيشه الذى سوف يمكنه من بناء إمبراطورية إلى أن يصل لدخول الأراضى التركية نفسها بل و يصبح على مسافة قصيرة إلى حد كبير من العاصمة الأستانة .

أما فى التجربة اليابانية من أجل بناء الجيش، و الذى سوف يطلق عليه بعد مرور أقل من ثلاثين عاماً من بنائه " جيش الإمبراطورية اليابانية العظمى " . فسوف يقوم على عنصر واحد هو العنصر اليابانى . و هذا الجيش سوف تقوم عليه و على سواعد أبنائه قواعد الإمبراطورية اليابانية بعد أن تنتصر اليابان فى حربيها ضد كل من الصين وروسيا فى أقل من عشر سنوات . وكذلك عندما قامت اليابان بضم كوريا فى عام ١٩١٠ . ثم بعد ذلك عندما تغلغل النفوذ اليابانى فى الصين حتى و صلت اليابان بأمبراطوريتها إلى أعظم مدى قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية و هذا ما

تناولناه فى كتابنا السابق " تاريخ اليابان – الحديث و المعاصر – عصــرى طايشو –شوا " .

ولكن يحسن بنا هنا أن نتناول قصة محمد على وجهوده من اجل بنــاء الجيش المصرى الحديث ، وعندئذ سوف نكتشف كم كان هذا الرجل عظيماً رغم ما وجدناه من سلبياته التى طفت على سطح التاريخ.

ربما كانت أول مرة يفكر فيها محمد على لإنشاء جيش نظــامى جديــد عندما خذل الجنود والقواد الألبان إبنه طوسون بعد هزيمته أمام الوهابيين فى عام ١٨١٢ فقد تركوه هاربين إلى مصر مخالفين كل الأوامر. وذلك لأنهــم عانوا معاناة شديدة فى الحجاز ومن صحاريها ومن غنائمها المحدودة. وبعد عودتهم إلى مصر كان سلوكهم يتسم بالفوضوية والإهمال. ولذلك فقد جعلت هذه الحادثة محمد على يفكر فى الجيش الجديد المنظم. إلا أن الوقت لم يكن قد حان بعد.

وفى عام ١٨١٥ حاول محمد على تنفيذ فكرته وذلك بعد عودة الجــيش المصرى منتصراً فى الحروب الوهابية، وكانت حادثة هروب القادة الألبــان من ميدان القتال والتى ذكرناها تواً مازالت ماثلة فى ذهنه. وقد حاول محمد على إحلال جيش حديث منضبط محل الألبانيين أو ما يطلق عليــه أنــذاك "النظام الجديد" . ولكن كان من الصعب على الجنود وقوادهم أن يتقبلوا هــذا النظام الجديد. ولذلك فقد ثاروا عندما أصدر محمد على أمراً بتدريب فرقــة من جنود إبنه إسماعيل باشا على النظام الحديث. ففكر زعماء الجنــود فــى خلع محمد على بل ومهاجمته وهو بقصره بالأزبكية إلا أن المــؤامرة قــد فُضحت على يد عابدين بك فترك محمد على قصره بالأزبكية ليلاً وصــعد إلى القلعة، وبذلك أنقذ عابدين بك محمد على وحكمه. ولاعتقاد المتمردين أن

محمد على موجود بقصره بالأزبكية فقد ذهبوا إلى هناك وتبـادلوا إطـلاق النيران مع حراس السراى. ثم ذهبوا إلى ميدان الرميلة أسفل القلعـة ومـن هناك أخذوا ينهبون المتاجر والمخازن والمنازل الخاصة بأهـالى القـاهرة. والجدير بالذكر أن محمد على تصرف بشكل حضارى عندما عوض الأهالى الذين سلبت منازلهم ومحالهم ، فضرب بذلك عصفورين بحجر واحد حيـث حاز على إعجاب وحب الأهالى وكذلك جعل القاهريين يسخطون ويكرهون المتمردين.

أبدى محمد على خلال هذه الفتنة الكثير من الحـزم والحكمـة حتـى استطاع فى النهاية إخمادها. إلا أن هذه الفتنة جعلته يرجئ تنفيذ خطته مـن أجل إنشاء النظام الجديد للجيش الذى يعتمد على النظام والانضباط. وجعلته أيضاً ينأى بتفكيره عن الاعتماد على العناصر المكونة للجيش حتـى تلـك اللحظة، وكانوا خليطاً من الأكراد والشوام وبعض المغاربة، ويمكن اعتبارهم جنوداً مرتزقة وكان يطلق عليهم لفظ (باشبوزق) أى الجنود غير النظاميين. فقد كانت رواتبهم تدفع لهم قبل تنفيذ الأوامر وذلك فى سـبيل أداء واجـبهم الأول والأوحد وهو الخروج والدفاع عن البلاد. وكان معظمهم يأتى بنفسـه دون وجود أسره معه وهذا ما كان يجعلهم بلا مسئولية تجاه الاخرين فكـان ذلك يدفعهم للتهور وارتكاب الحماقات. وهم كـذلك عناصـر بـلا حرفـة، وبالتالى فهم لا يصلحون إلا للحرب وهى مهنة للفقراء. وهذا ما كان يجعلهم يطمعون فى الأهالى وفى أموالهم وأرزاقهم وحتـى فـى أسـرهم، فكـانوا ينتهزون الفرص للسلب والنهب وحتى السبى. ويشبههم الجبرتى بالجراد فهم يأكلون كل شئ ويقضون على كل شئ وينزلون الكوارث بالفلاحين.

وكانت أول نواه لنظام الجديد للجيش هى إقامة الوالى المدرسة الحربية الأولى فى أسوان عام ١٨٢٠، وذلك عندما قدم محمد على خمسمائة من خاصة مماليكه إلى الكولونيل سيف الفرنساوى، ووضع مسئولية إنشاء هذه المدرسة على كاهله لثقته فى كفاءته. ولقد واجه الكولونيل سيف صعوبات جمة حتى استطاع تدريب هؤلاء المماليك لكى يصبحوا ضباطاً ملتزمين. فقد إعتادوا فى السابق على إثارة الفوضى والصخب والضوضاء والإخلال بالنظام. فى حين أن من أهم دعائم النظام الجديد ، هى الطاعة المطلقة للرؤساء. على أن الكولونيل سيف واجه هذه الصفات التمردية بالصبر والشجاعة وسعة الصدر حتى استطاع إعداد مجموعة منتقاة من الضباط الملتزمين أصبحوا بمثابة النواة الأولى للجيش المصرى الحديث.

ثم كانت الخطوة التالية من أجل إنشاء جيش حديث ألا وهى حشد الجنود فى بادئ الأمر لم يشأ محمد على أن يتجه إلى العنصر المصرى ، وذلك لعدة أسباب :- أهمها عدم اعتياد المصريين على حياة الجندية . كذلك خشى محمد على من ثورة الفلاحين المصريين لأنهم كانوا يعانون أصلاً من الضرائب الباهظة و الإتاوات التى أثقلت كاهلهم . و خشى من ناحية أخرى أن يؤدى تجنيدهم إلى حرمان مصر من قيامهم على الزراعة فتسوء حالة البلاد الإقتصادية و تزداد ضنكاً على ضنك . و لذلك فكر فى الاعتماد على العبيد من السودانيين . و لذلك أقدم على غزو السودان فى الفترة ما بين عامى ١٨٢٠-١٨٢٢ . صحيح أن هناك أهدافا أخرى كانت فى رأس الوالى مثل اكتشاف مناجم الذهب و الماس التى قيل أنها موجودة بكثرة فى السودان . وكذلك الأستفادة من موارد السودان الأخرى التى تحدث عنها الرحالة حيث ذكر بعضهم فى عام ١٨١٧ أنه شاهد إحدى القوافل تصل إلى

أسيوط ، وأن عدد جمالها بلغ ستة عشر ألف جمل . وكانت هــذه القوافــل تحمل الصمغ العربى وسن الفيل و أنياب فرس النهر وريش النعام الأبــيض والرمادى والأسود و قطعا من خشب الأبنوس و أحمال من التمر هنــدى . ولكن أغلى السلع و أشهرها هو الذهب ، و كان الذهب السودانى معروفــا فى مصر منذ قديم الزمان . لكننا نكاد نجزم أن احتياج محمد على للجنــود السودانيين كان أهم أهدافه ، و فى نفس الوقت التخلص من الجنــود غيــر النظاميين فى هذه الحملة أى أنه أراد أن يقوم بحركة إحلال و تبــديل – إذا جاز التعبير – فى صفوف قواته المسلحة فقد رأى محمــد علــى أن غــزو السودان و فتحه بمثابة فرصة لا تعوض للتخلص من هؤلاء الجنــود شــبه المرتزقة و الذين كان معظمهم من الألبان . فكان على يقين من أنهم ســوف يقضى عليهم فى تلك المناطق البعيدة ذات المناخ الذى لا يلائمهم .

وبالفعل نجحت الحملات المصرية على السودان فى جلب عشرين ألفــاً من هؤلاء العبيد السودانيين . وتم إرسالهم إلى صعيد مصر ثم تم البدء فعلاً فى تدريبهم على يد الضباط المماليك الذين تخرجوا فــى مدرســة أســوان الحربية . و أعدت لهم حكومة محمد على لإقامتهم و تدريبهم الثكنات الكافية و المؤن و المــستشفيات و الأسلحة والملابس . وعلى الرغم من كــل تلــك الجهود ، إلا أن الجنود السودانيين لم يستطيعوا التكيف مــع الجــو أو مــع الطعام المصرى فتساقطوا كالذباب موتى . وحتى الذين بقوا على قيد الحياة لم يطيقوا أعباء الخدمة العسكرية . و بذلك فشلت خطة محمد على من أجل الاعتماد على الجنود السودانيين .

هنا لم يجد محمد على سوى الالتجاء إلى تجنيد المصــريين . وعلــى الرغم من الصعوبات الجمة التى واجهها حتى يستطيع تكوين الجــيش مــن

المصريين إلا أنه فى نهاية المطاف استطاع بهذا الجيش من المصـــريين أن يتوسع فى إمبراطوريته بل يزحف بهذا الجيش ليصبح على مشارف الأستانة ، أى أنه دخل بالفعل أراضى الدولة العثمانية واستطاع الجـيش المصـــرى احتلال عدة مدن تركية بهذا الجيش المكون من الفلاحين المصريين المدربين تدريباً جيداً .

أرانى قد ذهبت إلى النتائج دون الولوج فى المقــدمات والصـــعوبات والإنتفاضات التى قام بها الفلاحون المصريون ضد التجنيد أو بالأحرى ضد الأسلوب الذى كانت تتخذه السلطات من أجل تجنيدهم. وقد قصدت أن أقول أنه مهما كانت الصعوبات والتحديات قوية أمام شـــعب مـــا فأنـــه بالصـــبر والمثابرة يمكن صنع المعجزات . ولن يكون خروجاً عن الـــنص إذا عـــدنا للنموذج اليابانى وكيف كانت اللامعقولية تحكم تفكير السلطة والشعب فـــى بداية عصر ميجى، ولكن بالرغم من ذلك ومع تحديد الهدف والعمل من أجله بكل الجهد وبالإيمان الصادق بقوة الشعوب فأن النموذج اليابانى فى النهضة واصل وحقق المعجزات كما يعتقد الكثيرون. ولكننا هنا نعتز بل ونفخر أن النموذج المصرى فى تحقيق النهضة سواء العسكرية أو الإقتصادية قد سبق النموذج اليابانى بنحو نصف قرن. مع اعتقادنا أن الصعوبات والمشاكل التى واجهت محمد على ربما فاقت بكثير تلك الصعوبات التى واجهـــت حكومـــة ميجى وليس أدل على ذلك من تكرار محاولات محمد على فى الإعتماد على عدة عناصر لتكوين جيشه حتى استقر فى النهاية على العنصر المصرى. فى حين أننا نجد أن هذه المشكلة ليس لها وجود فى حالة نهضة ميجى لإعتماد اليابان على العنصر الواحد ألا وهو العنصر اليابانى فى تكوينهـــا لجيشـــها.

ولكن كيف كانت معاناة محمد على حتى إستطاع فى النهاية تكوين الجيش من المصريين.

بدأ محمد على بداية طيبة فى سبيل إنشاء جيش حديث يكون فيه المصريون العمود الفقرى له . ففى يناير ١٨٢٣ تألفت الفرق الست الأولى لهذا الجيش النظامى. واستغرق إعداد وتدريب تلك الفرق حوالى عام ونصف العام. ويبدو أن تدريباتهم وتمارينهم كانت شاقة، وقد كانوا على استعداد كبير لتلقى هذه التدريبات ذلك للنتيجة التى وصلوا إليها، فقد قاموا بمناورات حربية أثبتوا فيها لياقتهم وحسن نظامهم حتى أن محمد على أظهر سعادة بالغة، فأمر بإنشاء معسكر للجيش فى الخانكة كان يحتوى من ٢٠ إلى ٢٥ ألفاً من الجنود النظاميين. ثم أمر بإرسال فرقة من هذه الفرق إلى الحجاز والثانية إلى السودان حلوا محل الألبانيين الذين عانوا أشد معاناة من حرارة السودان والأربع فرق الأخرى إلى المورة لإخماد ثورة اليونانيين .

إلا أنه على الرغم من ذلك فلم تكن التجربة سهلة بمكان ، فنظراً لطول عهد المصريين فى ابتعادهم عن العسكرية وخاصة طوال العهد المملوكى . فقد كان لهذا أثره فى عدم تقبل المصريين لفكرة التجنيد بسهولة . كذلك كان لطول فترة التجنيد وما بعدها من فترة الإحتياط التى كانت تمتد بقية الحياة أثره فى خوف المصريين من ذلك العالم المجهول بالنسبة لهم. خاصة عندما حكى المجندون من الدفعات الأولى عن المشاق التى لاقوها فى الجيش لأبناء جلدتهم، مما كان يدفع هؤلاء الآخرين للهروب من التجنيد. فلم تجد الحكومة سوى أن تقبض على المجندين وتسوقهم قسراً إلى المعسكرات، فأزداد نفور الفلاحين من الإنخراط فى الجندية. ولذلك نجد أن استعمال أساليب العنف لإجبار الفلاحين على التجنيد كانت مع فرض الضرائب الباهظة يشكلان أهم

أسباب ثورات الفلاحين وهياجهم على الحكومة. ولكن وكما يذكر المـؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى فى كتابه عن محمـد علـى أن هـذا النفـور والكراهية لم يمنع من نجاح تجربة تجنيد المصريين فى عهد محمد علـى . وأن ما أظهره الجيش من الكفاية والنظام يدل على مبلـغ اسـتعداد الأمـة المصرية لأن تكون أمة حربية. ونستطيع من جانبنا أن نؤيد رأى المـؤرخ الكبير لأن مثل تلك الثورات والهوجات بسبب كراهية التجنيد حدثت أيضـاً فى اليابان فى عدة محافظات وخصوصاً عندما أخطأ الفلاحون فهم عبـارة "ضريبة الدم " وكذلك النفور من فكرة الجندية بمفهومها العام. إلا أن ذلك لم يمنع من أن الجندى اليابانى عُد فيما بعد من أشجع وأجرأ الجنود فى العالم.

الفصل السادس

مظاهر المدنية الحديثة

فى النهضتين

الفصل السادس

مظاهر المدنية الحديثة فى النهضتين

لعل من أوضح ما يميز عصر ميجى وخصوصا السنوات العشر الأولى منه ، تلك التغيرات التى طرأت على عادات اليابانيين اليومية ومنظرهم العام هذا إلى جانب ظهور مظاهر للحداثة عديدة لم يألفها الناس من قبل وهذا هو الشق المادى من التغيرات الإجتماعية التى حدثت فى بدايات عصر ميجـــى. أما الشق المعنوى فكان بلا شك هو غياب الفواصل والفوارق الإجتماعية بين مختلف الطبقات التى كان يتكون منها الشعب اليابانى فيما عرف بالمســـاواة بين الطبقات الأربع (Shiminbyōdō) . وفيما يلى سوف نتناول التغيرات التى حدثت سواء معنوية أو مادية :

١) المساواة بين الطبقات الأربع

ذكرنا فيما قبل أن أهم ما يميز عصر الإقطاع كان النظام الطبقى المسمى بـــــ (Shinokosho) أى تقسيم المواطنين اليابانيين إلى أربع طبقات هـــى المحاربون ثم يأتى بعدهم المزارعون ثم الحرفيون أو الصناع ثم يأتى فـــى الذيل التجار. هذا بالطبع إلى جانب طبقة الملاك من البلاط الإمبراطـــورى. ولأن وجود فوارق بين طبقات الشعب الواحد لا يعد إطلاقا مـــن مميـــزات الدولة الحديثة، فقد أقدمت حكومة ميجى على إلغاء هذا النظام وغيـــره مـــن الأنظمة التى تفرق بين المواطنين بعضهم البعض فى الفترة ما بين عـــامى ١٨٦٩ إلى ١٨٩١. ففى عام ١٨٦٩ تم دمج الطبقة العليا من نبلاء الـــبلاط وحكام المقاطعات فى طبقة واحدة باسم طبقة الكازوكو أى النبلاء. أما الطبقة الأدنى من النبلاء مع الساموراى فكونا معا طبقـــة أخـــرى أطلـــق عليهـــا الشيزوكو Shizoku . وجُعلت طبقات المزارعين والحرفيين والتجار طبقة

واحدة سميت بالهيمين Heimin أى الطبقة العامة. وأصبح من حق الطبقـة العامة التزاوج من أى طبقة أخرى وكذلك اختيار نوعية العمل الذى يريدونه. كما سُمح لهم بأشياء لم يكن بإمكانهم ممارستها من قبل مثل ركوب الخيل فى أسفارهم وارتداء الملابس الوطنية الرسمية الخاصة بالمناسبات. كذلك سُـمح لهم باتخاذ أسماء عائلية مع أسمائهم الشخصية والتلقب بها ووضـعها علـى منازلهم، وكان هذا الامتياز لا يسمح به إلا من خلال تصريح خـاص مـن حاكم المنطقة. كذلك ألغت حكومة ميجى قانون " حق القتل دون عقاب " الذى كان يخول للساموراى الرفيعى الرتبة قتل الساموراى من الطبقة الأدنـى أو المدنيين أو الفلاحين إذا أظهروا مجرد عدم الاحترام لهـم وذلـك دون أى عقاب أو لوم يوجه لهم.

أما طبقة المنبوذين التى كانت تنقسم إلى Eta و Hinin فقد صدر الأمر بتحريرهم بإلغاء هاتين التسميتين، وأن يعامل أفراد الطبقتـين مـن ناحيـة المركز الإجتماعى والوظائف نفس معاملة طبقة العامة (Heimin) . إلا أن قانون تحرير طبقة المنبوذين لم يتعد كونه حبرا على ورق ،لأن أحوال طبقة المنبوذين الوظيفية والتعليمية وكذلك الزواج من الطبقات الأخرى لم تتغيـر على الإطلاق وظلت كما هى مثلما كانت قبل صدور الأمر. والأغرب مـن ذلك أنه قد حدثت ثورات وهوجات فى غرب اليابان قام بها الفلاحون وذلك اعتراضا على صدور قانون تحرير هؤلاء المنبوذين المساكين فقـط لأنهـم كانوا يمتهنون مهناً كانت من وجهه نظر فلاحى اليابان آنذاك مهناً وضـيعة مثل الجزارة ودبغ الجلود والشحاذة وغيرهـا. ولقـد عانـت طبقتـا Eta و Hinin معاناة شديدة طوال عصر ايدو وحتى بعد صدور قرار تحريرهم، فقد كان عليهم أن يمتهنوا مهناً معينة لا يستطيعون إمتهان غيرها، وكانت لهم

أماكن سكنى معينة وأيضا ملابس معينة، ولم يكن يسمح لهم بالتعامل وتبادل الصداقات مع الطبقات الأخرى من المجتمع. وللأسف الشديد فإن مشكلة هذه الطبقة المنبوذة مازالت كامنة فى أعماق المجتمع اليابانى حتى يومنا هذا فيما يعرف بمشكلة البوراكو و هو لفظ أخر يعنى المنبوذين (Buaraku Mondai) ثم عرفت منذ عام ١٩٦٩ بمشكلة السلام الإجتماعى (Dowamondai) حتى لا تظهر كلمة منبوذين صراحة . و من خلال مناقشتنا لموضوع الطبقات المختلفة للشعب المصرى أبان حكم محمد على سوف يتضح لنا مدى الإختلاف فى طبيعة مشاكل المجتمعين .

ويحسن بنا أن نعود القهقرى لأوائل القرن التاسع عشر و نلقى نظرة على شكل و هيئة المجتمع المصرى قبيل عصر محمد على و بعده ليتضح لنا مدى الجهد و الحنكة التى أدار بها محمد على البلاد . ويذكر لنا الدكتور سمير عمر إبراهيم فى كتابه " الحياة الإجتماعية فى مدينة القاهرة – خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر " عن كلوت بك عن الجنسيات التى كونت المجموع الكلى لتعداد مصر أن عددها وصل إلى ثمانية عشر جنسية هم و أعدادهم كالآتى :-

- المصريون المسلمون ٢,٦٠٠,٠٠ نسمة
- المصريون المسيحيون أى الأقباط ١٥٠,٠٠٠
- العثمانيون أى الأتراك ١٢,٠٠٠
- السودانيون ٢٠,٠٠٠
- البرابرة ٥,٠٠٠
- العرب أى البدو ٧٠,٠٠٠

• الأحباش	٥,٠٠٠
• المماليك الجراكسة	٥,٠٠٠
• اليهود	٧,٠٠٠
• السوريون	٥,٠٠٠
• اليونان الأرمن	٣,٠٠٠
• الأرمن	٢,٠٠٠
• اليونان الأفرنج	٢,٠٠٠
• الايطاليون	٢,٠٠٠
• المالطيون	١٠٠٠
• الفرنسيون	من ٧٠٠ إلى ٨٠٠
• الإنجليز	من ٢٠٠ إلى ٣٠٠
• الأسبانيون	من ١٥ إلى ٢٠

وبالتالي فان عدد سكان مصر كما قدره كلوت بك اقترب من ثلاثة ملايين نسمة وكان محمد على قد قام بعمل حصر لعدد سكان مصر قدره بثلاثة ملايين ومائتي ألف نسمة ولوحظ من خلال حصر لعدد السكان أن تعداد مدينة الأسكندرية شهد زيادة مطردة، وذلك لإنشاء الترسانة البحرية الضخمة بالإضافة إلى المكاتب الحكومية والقنصليات الأجنبية الأوربية، وثلاث مستشفيات . وكان لتحول التجارة الخارجية إلى الأسكندرية بعد أن كانت متمركزة فى رشيد وذلك بعد إنشاء ترعة المحمودية بالإضافة إلى مشاريع

محمد على الصناعية والبحرية أثر كبير فى أعطاء دفعة هائلة نمو الأسكندرية .

أما عن فئات المجتمع المصرى فإن التقسيم الشائع لهم هو كالآتى . المشايخ أو العلماء – الصناع أو العمال – التجار – الأتراك – المغاربة – السوريون – الأقباط – اليهود – الرقيق – الأجانب. وهناك تقسيم أخر يقسم فئات المجتمع إلى جزئين (أ) الحكام وهم الأتراك والأوجاقات العسكرية – المماليك – العلماء (ب) الرعية وهم التجار – الفلاحون – الطوائف الحرفية – أهل الذمة (الأقباط واليهود) – العربان – النساء.

وبعكس الجمود الذى رأيناه يعترى تصنيف فئات المجتمع اليابانى حتى بعد بداية عصر النهضة فى اليابان نجد أنه كان ثمة نوع من المرونة فى الحراك الإجتماعى بين مختلف طبقات الشعب المصرى . فمثلاً نجد أن علماء و مشايخ الأزهر فى معظمهم ينحدرون من الريف و بعضهم من الحضر ، فقد كانوا يجدون فى السلك الدينى غير المغلق بطبيعته طريقاً للحراك الإجتماعى . و حتى الرقيق الذين يمكن تشبيه العذاب الذي كانوا يعانونه بطبقة المنبوذين الذين تحدثنا عنهم توا – نقول حتى هؤلاء الرقيق كان يمكن عتقهم ، أن يتحولوا إلى أشخاص عاديين يتمتعون بكافة مزايا المواطنة ، و على الرغم من تشجيع محمد على لضباطه و جنوده على اصطياد العبيد السودانيين فى بادئ الأمر حتى يلحقهم بالجيش . إلا أنه وبسبب الضغط المتزايد من إنجلترا عليه لإلغاء تجارة الرقيق فقد أضطر فى عام ١٨٣٨ لإصدار أمر يحاول من خلاله الحد من تجارة العبيد فقد جاء فى هذا الأمر مايلى "لهذا أمركم بأن تكفوا فى المستقبل القريب عن إعطاء العبيد إلى الضباط و الجنود و غيرهم من المواطنين لقاء مرتباتهم ، و أعلم أننى لا

أحب أن أجنى منفعاً من تجارة لا تشرفنى بل إننى على استعداد لأن أحتمل بعض التضحيات التى قد يتطلبها إبطال هذه التجارة " . و يمكن أن نعتبر جهود محمد على و تصريحه السابق هى البداية الفعلية من أجل إلغاء تجارة الرقيق بمصر و السودان . و هناك دليل و اعتراف من إنجلترا نفسها بالدور الذى قام به محمد على من أجل إلغاء هذه التجارة الذميمة ، و هذا عندما أرسل المؤتمر الذى عقد فى أواخر الثلاثينات فى إنجلترا لمقاومة الرق خطابا فى أغسطس ١٨٤٠ إلى محمد على يعبر فيه هذا المؤتمر عن اقتناعه بالدور الذى قام به محمد على خلال غزوته فى أفريقيا الشرقية بتحذيره الشفوى لقواته و جنوده بأن يمتنعوا عن عمليات جمع و خطف العبيد ويرجو منه (محمد على) بذل مزيد من الجهد . إلا أن قرار إلغاء تجارة الرق تماما لم ير النور إلا فى أغسطس ١٨٧٧ عندما وقعت كل من مصر وإنجلترا إتفاق ذلك فى الأسكندرية .

على أية حال فإن كلا من قرار تحرير المنبوذين فى اليابان و قرار إلغاء الرقيق بمصر قد تزامنا إلى حد كبير . و على الرغم من ذلك فإننا نرى اختفاء طبقة الرقيق تماما منذ مطلع القرن العشرين بمصر اللهم إلا وجود بعض الحالات فى وجود جوارى لدى عظماء القوم . فى حين أن مشكلة المنبوذين مازالت تؤرق المجتمع اليابانى ربما حتى اليوم . ولو رجعنا إلى الجنسيات التى يتكون منها المجتمع المصرى أيام محمد على و كثرتها فإن ذلك يمكن أن يعطينا مؤشراً على مدى ما تمتع به المجتمع المصرى منذ القدم من مرونة و حراك إجتماعى لا يتوقف . فقد حوى المجتمع المصرى مختلف الجنسيات عاشت بين ظهراني المصريين ، ووجدنا اليونانى يجاور المصرى فى مسكنه و يتعامل معه و كذلك الشامى و الإيطالى . ووجدنا

أيضا اليهودى يعيش و يكسب كثيراً بل وتؤسس عائلات شهيرة منهم كعائلات عدس و ريفولي و بنزابون مؤسسات تجارية كبرى و يشتهر منهم فنانون و مخرجي سينما و يحبهم المصريون تماما كما يحبون أي فنان مصرى أخر بل ربما أكثر . هذا كله على الرغم من أن اليهود عزلوا نفسهم عن بقية المصريين و بقية الجنسيات و الملل الأخرى ، حتى أنهم كانوا يعيشون فى حى خاص بهم فى القاهرة له أبواب خاصة يغلق فيحبس اليهود أنفسهم هذا كله مع اشتهار اليهودى بصورة المرابى الجشع كل هذا و غيره لم يمنع المصريين من التعامل معهم بل و التفاعل معهم فى نفس الوقت .

ونعود إلى محمد على و عبقريته فى التعامل مع هذا العدد الكبير من الملل و الجنسيات فنجده يتعامل مع كل فئة بما يناسبها من طريقة تعامل . فهو يتعامل مثلا مع المماليك بقسوة بالغة استطاع من خلالها إبادة المماليك تقريبا تارة بقتل ما يزيد عن ٤٥٠ من قوادهم ووجهائهم فى مذبحة القلعة ، وتارة أخرى فى مطاردتهم من خلال الحروب التى شنها عليهم و على فلولهم بصعيد مصر ، حتى اضطرت البقية الباقية منهم للهرب إلى السودان . وهو حينما يتعامل مع الألبان من أبناء بلدته يأخذهم باللين تارة وبالحيلة تارة أخرى و نادراً ما كان يستعمل معهم العنف . فهو مثلا يرسلهم فى حروبه فى الجزيرة العربية و السودان فيقتل منهم الكثيرين و عندما كانوا يثيرون الفتن و الثورات بمدينة القاهرة رأيناه يستعمل الحكمة حتى لا تتفاقم الأمور . فقد حدث أن أعتدى أثنان من الألبان على منزل طبيب يونانى وبصحبته صيدلى فرنسى ، مما أدى إلى جرح الأوربيين ومقتل أحد الألبان وكادت الأزمة تتفاقم لولا تدخل محمد على زعيم الألبان و عقد صلح بين المتخاصمين دفع بمقتضاه مبلغ أربعة آلاف قرش لشقيق القتيل الألبانى .

والجدير بالذكر هنا أن سياسة محمد على اتسمت بالتسامح مــع أهــل الأديان الأخرى و معاملتهم أحسن المعاملة سواء كانوا مسيحيين أو يهــود . حتى أن بعض المؤرخين يرون أن محمد على كان علمانى المذهب . ففــى عهد محمد على كان الأقباط يجندون فى الجيش ، و صدرت أوامر باحترام أولئك الذين يعملون منهم فى ترسانة الأسكندرية متضمنة إعفاءهم من الفردة و الجزية سعا . كذلك ألغى محمد على كل ما لحق بالأقباط من إهانات فــى حياتهم اليومية العادية وأذن للرهبان ببناء الأديرة كمــا أذن للكنــائس بــدق أجراسها ، ولرؤساء الطوائف الدينية المختلفة بإقامة القداس علنا . أما اليهود فكانوا يلاقون الأمرين من المماليك من سلب أموالهم و إيذائهم ، أما فى عهد محمد على فقد لاقوا معاملة حسنة إلى حد كبير .

٢) تغيرات وإصلاحات اجتماعية أخرى :-

وكأن اليابانيين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر سقوط حكومــة البــاكفو ليعلنوا تمردهم على كل قديم تقريبا . فما أن بدأت رياح الغرب تهب حتــى كادت تمحو معها عادات يابانية قديمة بدأت تتلاشى بوضوح أولا فى المــدن ثم أخذت تذهب رويدا رويدا حتى اجتاحت رياح التغيير الريف أيضا . وقــد أتت رياح التغيير الغربى بعادات و مودات جديدة ظهرت أول ما ظهرت فى شكل تصفيف شعر الرجال و ملبسهم ثم المأكل ، ثم مالبث و بدأت بتأثيرها على شكل و هيئة المعمار اليابانى . و فيما يلى سنحاول أن نعــرض لتلــك الظواهر و العادات الجديدة التى شهدها المجتمع اليابانى فى أوائــل عصــر ميجى .

(أ) – الرأس الحليقة Zangiri Atama

إذا ما دقيت على الرأس الحليق فإذا بصوت الحضارة يأتيك

و إذا ما دقيت على الرأس ذات الضفيرة فإذا بصوت الرجعية يأتيك

هكذا و بأسلوب مبسط للغاية عرض اليابانيون وجهة نظرهم فى القديم المتمثل فى الرأس ذى الضفيرة (Chonmage) بأنها تعنى الرجعية و القدم أما الرأس الحليقة (Zangiri Atama) فهى تعنى الحداثة و التحضر وكانت الرأس الحليقة بالفعل هى أول مظاهر التحضر فى اليابان فأخذ الرجال يزيلون ضفيرة الشعر التى كانت تميز رأس الرجل اليابانى طوال عصر الأقطاع . وقد أفتتح أول صالون للحلاقة فى مدينة يوكوهاما فى العام الأول من عهد ميجى أى فى عام ١٨٦٨ ، ثم فى العام التالى أنشأ محلا أخر فى طوكيو . والطريف أنه فى السنوات الأولى من عصر ميجى عندما كان اليابانيون حديثى عهد بصالونات الحلاقة فكانت أعدادها قليلة جدا و محدودة خاصة فى الضواحى و الأرياف فكان كل رجلين يقومان بحلاقة شعر كل واحد منهما على التوالى . وفى بداية الأمر كان النبلاء و المحاربون هم المسارعين فى حلق رؤوسهم على الطريقة الغربية ثم تلاهم أهل المدن ثم جاء الفلاحون فى نهاية المطاف ، وقد لاقى موضوع حلق الشعر على الطريقة الغربية وقص خصلة الشعر التى كانت تعلو رأس الرجال تشجيعا وإهتماما من رجال الحكومة و الساسة اليابانيين آنذاك وذلك لأنهم رأوا فى هذا أهمية سياسية . وهو محاولة إقناع الغربيين بأن اليابانيين أصبحوا الند للند لهم لأن مظهرهم لم يعد مختلفا عنهم . و بهذا يقتنع الغربيون بأن اليابان قد أخذت بالفعل طريق التحديث ، فلا يصبح هناك عائق فى طريق إلغاء

المعاهدات الظالمة التى وقعتها اليابان مع الدول الغربية فى أواخــر عصــر الطوكوجاوا .

إلا أن أهتمام الدولة بهذا الأمر و تشجيعها عليه لم يمنع أن عددا كبيرا من الرجال ظل علــى حالتــه الأولــى دون أن يــتخلص مــن الضــفيرة التقليدية .خصوصا و أن الأمر الذى أصدرته الحكومة فى عام ١٨٧١ بشأن قص ضفيرة شعر الرجال لم يكن ملزما لهم ولكنه كان أمرا يحثهم فقط على ذلك ، إلا أنه فى عــامى ١٨٧٢ و ١٨٧٣ أخــذ المســئولون فــى المــدن والضواحى يعملون على حث الرجال على حلق رؤوســهم علــى الطريقــة الغربية ولكن يجب ملاحظة أن تقليد التشونماجى هذا يرجع إلى أكثــر مــن ألف عام و كان من الصعب أن يختفى فجأه بأمر حكومى أو نصــائح مــن الساسة . فظل كثير من الرجال و خصوصا فى الريــف يحتفظــون بهــذه العادة ، بل إنه حتى قبيل الحرب العالمية الثانية كان بعــض كبــار الســن المحافظون يشاهدون وهم بهذه الضفيرة . تماما كما الحال عندنا فى مصــر بالنسبة لعادة إرتداء الطربوش التركى الأحمر الذى ألغته ثورة يوليو ولكننــا كنا نرى بعض كبار السن يضعونه على رؤوسهم حتى نهاية السبعينات من القرن العشرين .

(ب) ـ ملابس على النسق الغربى

عرف اليابانيون إرتداء الملابس الغربية فى الأعوام الأخيــرة مــن عصــر طوكوجاوا . و طبقت رسميا فى آخر عام من ذلك العهد الإقطاعى أى فــى عام ١٨٦٧ ولكن على جنود الجيش الحكومى فقط ، وذلك لأن اليابان فــى هذه الفترة أدخلت أسلحة غربية حديثة و كان الرداء العسكرى اليابانى القديم لا يتلائم معها ، و لا ينفع مع تلك الأسلحة سوى الملابس العسكرية الغربية ،

ثم بعد ذلك انتشر استعمال الملابس الغربية المدنية فى الحفلات الرسمية بعد صدور قرار فى عام ١٨٧٢ بجعل الرداء الغربى هو زى الحفلات الرسمية اليابانية ، و أقتصر استعمال ملابس الاحتفالات القديمة على المناسبات الدينية فقط . لكن هذا لم يمنع من ظهور معارضة من المحافظين . فقد هاجم الدايميو السابق و السياسى فيما بعد شيمازو هيساميتسو (١٨١٧ – ١٨٨٧) والمعروف عنه عداؤه الشديد لكل ما هو غربى هاجم استعمال الملابس الغربية و خصوصا فى المراسم اليابانية ، و لكن هذا العداء من المحافظين لم يوقف زحف الملابس الغربية سواء على المستوى الرسمى أو الشعبى ، فقد أصبحت كلمة " غربى " تلقى كل ترحيب سواء فى الملبس أو المأكل أو فى المعمار كذلك . و أصبح ارتداء الملابس الغربية علامة على التحضر مثله مثل قص الشعر على الطريقة الغربية و الذى صدر قرار به فى عام ١٨٧١ ثم تلاه قرار ارتداء الملابس الغربية فى العام التالى له أى عام ١٨٧٢ كما ذكرنا توا .

(ج)- عادات غذائية جديدة

لم يعتد اليابانيون أكل اللحوم قبل عصر ميجى ، و هذا أولا : – لعدم وجود مراعى لتربية الماشية بكثرة فى اليابان . ثانيا : لأن البوذية التى كان يؤمن بها معظم اليابانيين قبل عصر ميجى لا تحبذ على الإطلاق تناول لحوم الحيوانات ذوات الأربع و أبرزها بالطبع البقر و الجاموس . إلا أن هذا لا يعنى أن اليابانيين لم يتناولوا اللحوم طوال عهودهم فمن الثابت أنه خلال العصور الوسطى و القديمة أى خلال عصرى هيان وكاماكورا منذ حوالى من ١٠٠٠– ٨٠٠ عاماً مضت كانت المراعى منتشرة فى اليابان ولذلك توافرت لحوم مختلف الحيوانات ووقتها كان اليابانيون يحبون أكل اللحوم

وعلى الأخص تناول علية القوم لحوم الدجاج و الغزال و الأرانــب . لكــن عصر إيدو أشتهر بأبتعاد اليابانيين عن تناول هذه اللحوم للســببين اللــذين ذكرناهما توا . و الجدير بالذكر أن تناول اللحوم فى عصر إيدو تركز فــى المدن التى لها علاقة مباشرة مع الأجانب مثل مدينة ناجاساكى ، فقد كان بها مطاعم تقدم لحوم البقر و الخنزير و الدجاج . وكان هذا فى الأساس من أجل الأجانب. وكان بعض الأطباء اليابانيين الذين يدرسون العلم الهولندى يحبذون لبعض المرضى تناول اللحوم بشكل عام كعلاج. ويذكر الكاتــب والمفكــر الشهير فوكوزتوا – يوكويتشى أنه حينما كان يدرس فى أوساكا فيمــا بــين عامى ١٨٥٦ و ١٨٥٨ كان بالمدينة مطعمان يقدمان طواجن لحم البقر ، وأن بعض شباب المدينة يرتادون هذين المطعمين. ووجود هذا العدد القليل مــن المطاعم التى تقدم لحم البقر إن دل على شئ فهو يدل على عزوف اليابانيين عن تناوله، فلم يكن طعمه يروق للكثيرين منهم. ولم يكن طعم ورائحة لحــم البقر غير المستحبة هما فقط العائق فى إنتشار عادة تناول اللحوم بل كانــت هناك عوائق أخرى منها صعوبة الحصول على تصريح بإقامة مذابح وكذلك عدم موافقة الغالبية العظمى من اليابانيين لتأجير ما فى حوزتهم من محــال لاستعمالها فى تقديم لحوم البقر ، فقد كان جيران هذه المطاعم يستاءون كثيرا من ذلك.

ويعد تناول اللحوم واحدا من مظاهر الحداثة فى عصر ميجى لدرجة اننا نجد كاتبا شهيرا وهو كيروبون (١٨٢٩-١٨٩٤) يكتب قصة هزلية يتنــاول فيها أحاديث هؤلاء الذين يتناولون لحوم البقر فى المطاعم. واليوم نجــد أن اليابانيين لا يجدون أى غضاضة فى تناول إن لم يكن أنواع اللحــوم كلهــا فمعظمها يجد قبولاً عندهم.

(د) السفينة البرية وعربة يجرها الرجال:

لم تطلق نهضة ميجى سحرها على عادات وتصرفات اليابانيين فقط ولكن لقد طال هذا السحر المدن الكبيرة وخاصة طوكيو وأحيائها الشهيرة مثل جينزا وشينباشى Shinbashi ويوكوهاما القريبة من طوكيو وغيرها من الأحياء. ولأول مرة تتلألأ هذه الأحياء وغيرها بأضواء المصابيح التى تضاء بالغاز وانتشرت المبانى الحجرية المبنية على النسق الغربى، أما الشوارع فمرصوفة بالأحجار. وفى نهر تلك الشوارع تجرى عربات الجينريكشا – تلك العربات التى يجرها الرجال– وفى جانب أخر من نهر الشارع تجرى سفينة البر(Okajoki) كما كان اليابانيون يطلقون على ترام تلك الأيام. أما الأرصفة فتعج بالمارة وأكثرهم من ذوى الياقات العالية (High Collar) أو كان يطلق على هؤلاء الذين يسايرون أحدث الموضات الغربية. ومعظم الرجال قد أزالو الضفيرة المعقوفة والبعض الآخر أطلق شاربه على الطريقة الغربية ووضعوا القبعة السوداء العالية على رؤوسهم؟

هذه الصورة التى كان عليها بعض الشوارع فى طوكيو ويوكوهاما ، لم تكن موجودة فى معظم مدن اليابان الأخرى فى الأقاليم وبالطبع فى الأرياف أيضا . إلا أن هذه الصورة على بساطتها كانت عنوانا لليابان الحديثة . وربما لا يخلو كتاب من كتب التاريخ من صورة لأول قطار يجرى بين حى شينباشى Shinbashi فى العاصمة طوكيو وبين مدينة يوكوهاما فى عام ١٨٧٢، وكذلك لقصر الروكوميكان الذى أنشأ على الطراز الغربى وكانت تقام به حفلات صاخبة راقصة تماما كما يحدث فى الغرب. وسوف يأتى الحديث عن هذا القصر ومغزى إنشائه فيما بعد .

أما أول قطار أقامه اليابانيون فى عام ١٨٧٢ فقد تم بمساعدة من الخبراء الانجليز ، تماما مثلما حدث فى مصر عندما أُنشئ أول قطار و أول سكك حديدية فى عهد الخديوى سعيد قبل اليابان بنحو عشرين عاما . و لذلك نجد أن خطوط السكك الحديدية سواء فى مصر أو الهند أو اليابان ضيقة وذلك لأنها أنشئت جميعها على النمط الانجليزى الذى تميزت خطوط سكك حديدها بالضيق أيضا و كان هذا القطار الرائد يقطع المسافة بين طوكيو ويوكو هاما فى حوالى خمسين دقيقة ، وهى نفس المسافة التى يقطعها القطار هذه الأيام فى أقل من عشرين دقيقة ، ورغم ذلك فقد كان سعر تذكرة الركوب للدرجة الأولى يناً وخمسين سن ، وهو مبلغ ضخم بأسعار ذلك الزمان حيث أن هذا السعر يساوى بنقود أيامنا هذه حوالى ٩٠٠٠ ين أى أكثر قليلا من أربعمائة جنيه مصرى وهو لاشك مبلغ ضخم لتلك المسافة القصيرة . إلا أن هذا لم يكن يمنع بعض الأغنياء من اليابانيين من استخدام هذه الدرجة ربما بقصد السياحة فقط .

وسرعان ما مُدت خطوط للسكك الحديد أيضا فى مدن الغرب اليابانى كيوطو - أوساكا - كوبى كما حدث فى طوكيو ويوكوهاما. وفى عام ١٨٨٩ تم إنشاء خط سكك حديد طريق البحر الشرقى وهو يصل بين العاصمة فى الشرق وبين مدن الغرب الهامة التى ذكرناها تواً. وكان القطار يقطع المسافة ما بين شينباشى فى طوكيو ومدينة كوبى فى غرب اليابان فى حوالى عشرين ساعة. وهذه المسافة يقطعها قطار الشين كان سن الشهير هذه الأيام فى ساعتين ونصف الساعة فقط.

ومن ناحية أخرى أخترع إيزومى يوسكى وتاكاياما كوتوسكى وسوذوكى طوكوجيرو وآخرون عربة الجينريكشا (Jinrikisha) فى عام

١٨٦٩. وهى عربة يقوم فيها الإنسان بدور الدابة فى جرها. ويمكن لشخص أو لشخصين على الأكثر ارتياد هذه العربة. وقد لعبت عربة الجينريكشا دورا هاما كوسيلة من وسائل المواصلات فى عصر ميجى . وسرعان ما انتقلت هذه الوسيلة إلى الصين أيضا لتلعب دورا هاما كوسيلة للمواصلات فى شوارع المدن الصينية أيضا. وربما كان لهذا الانتقال دلالة هامة على بداية تأثير الحضارة اليابانية على البلدان المجاورة وبداية كذلك لتفوق حضارى يابانى على الصين وبلاد شرق أسيا لمدة تزيد على المائة عام قادمة.

وفى السنوات العشر الأولى من عهد ميجى (١٨٦٨-١٨٧٨) لاقى البريد تقدما كبيرا وانتشرت فى شوارع المدن صناديق كتب عليها " صندوق تجميع الخطابات "أى صندوق البريد فيما أصطلح عليه فيما بعد. أما التلغرافات فقد أنشئت أعمدتها وأسلاكها فى البداية لخدمة الشئون العسكرية، وكذلك للأمور المستعجلة فقط. ولكن اليابانيين إستغربوا فى البداية هذه الخطوط وعدوها تارة وسيلة لامتصاص دماء النساء وتارة أخرى كوسيلة لنشر الأمراض المعدية، ولذلك كان اليابانيون وخاصة النساء منهم إذا مروا تحت هذه الخطوط فإنهم كانوا يحمون رؤوسهم بمراوح اليد التى كانت لا تفارق أيديهم.

وإمعانا فى التحديث حاولت السلطات منع بعض الإحتفالات الدينية القديمة وخاصة فيما يتعلق بالاحتفالات البوذية فى عدة محافظات. ووصل الوضع إلى درجة محاولة إلغاء إجازة عيد رأس السنة فى أول يناير من كل عام إلا أن هذه المحاولات فشل معظمها لأن تلك الاحتفالات والأعياد كانت ولا تزال عميقة الجذور فى نفوس اليابانيين.

وإلى جانب مظاهر التحديث التى ذكرناها توا أحتلت مظاهر النهضة التعليمية الحديثة مكانة هامة للتعبير عن نهضة ميجى. وهذه المظاهر ضمت مختلف المدارس والجامعات وأماكن البحث. وقد تحدثنا بشئ من الإسهاب عن تلك المظاهر فى معرض حديثنا عن التعليم فى عصر ميجى .

ولكن توجد ملاحظة هامة عن مدى انتشار التمدن الحديث لدى نهضة ميجى وهى أن هذه المدينة الحديثة تسمى لدى البعض "بمدنية نيهون باشى" وما حولها ونيهون باشى هذه ما هى إلا منطقة تقع فى المنتصف من العاصمة طوكيو . وقد تركزت فيها مظاهر الحضارة الحديثة دون غيرها من المناطق وكان أول من أطلق هذه التسمية على مدنية ميجى السياسى الشهير كيدو تاكابوشى (١٨٣٣-١٨٧٧) . وكان كيدو يقصد بذلك أن مدنية ميجى اقتصرت آثارها على طوكيو العاصمة، فى حين إذا ذهب المرء بعيدا عن العاصمة، فسوف يجد أن سرعة إنتشار المدنية فى تباطؤ شديد .

(هـ) محمد على ومظاهر المدنية الحديثة :

وإذا كانت العاصمة طوكيو قد حظيت بنصيب الأسد من مشروعات التحديث فى بداية عصر ميجى . فإن مدينة الإسكندرية ظلت لقرون طويلة مهملة كميناء ، حيث كانت مدينة رشيد هى الميناء الرئيسى للبلاد . ولكن بعد حفر ترعة المحمودية استعادت الإسكندرية دورها كميناء رئيسي للبلاد وحظيت بالنصيب الأكبر من مشاريع محمد على الاصلاحية . ولم تكن ترعة المحمودية هى السبب الوحيد لانتعاش الإسكندرية ولكن أيضا لاهتمام محمد على بإقامة الحصون والاستحكامات ووجود الأسطول العظيم الذى أنشأه وكان يعمل به عشرون ألف عامل إلى جانب الترسانة البحرية والتى كان يعمل بها ٥٥٠٠ عامل . هذا إلى جانب ازدياد عدد الشركات الأوربية من

١٦ إلى ٤٤ شركه في الفترة ما بين عامى ١٨٢٢ إلى ١٨٣٨ . كما ازداد إيراد الجمارك فى جمرك الأسكندرية من ٦٠٠٠ كيس إلى ٥٤٧١٠ كيس (الكيس يساوى ٥٠٠ قرش) في الفترة مابين عامى ١٨٣٨ إلى ١٨٤٦ وبسبب سياسة السخرة التى كان ينفذها محمد على فإن عدداً كبيراً من الفلاحين كانوا يهربون من قراهم إلى الإسكندرية ولتلك الأسباب مجتمعه فقد بلغ عدد سكان الأسكندرية إلى ٦٠٠٠٠ نسمه وذلك خلال الفترة من عام ١٨٢١ إلى ١٨٤٠ لتصبح ثانى أكبر مدينه فى مصر من حيث عدد السكان بعد القاهرة .

وأهتمت الدولة أيضا بميناء السويس وذلك منذ عام ١٨١١ ، نتيجة إتخاذها قاعدة بحرية للقوات المصرية فى شبة جزيرة العرب . ومنذ ظهور السفن البخارية فى عام ١٨٣٠ زادت أهمية السويس بعد تزايد الحركة الملاحية بمينائها . وكان لازدياد الحركة الملاحية في السويس أثره فى أن يفكر محمد على جديا فى إنشاء الطريق البرى الذى يربط السويس بالقاهرة . وأدى إقامة هذا الطريق إلى نمو مدينة السويس وتطورها وزيادة عدد السكان بها .

ومن الجدير بالذكر انه كان هناك طريقا بريا هاما آخر أنشأه محمد على لكي يربط النيل بالبحر الأحمر ، وكان يمتد من قنا إلى القصير على البحر الأحمر . وقد وجهت الدولة اهتماما أكثر بهذا الطريق مع زيادة نشاط شركة الهند الشرقية البريطانية . وزاد بالتالى حجم الموظفين والمسافرين والبريد والبضائع التى تستخدم هذا الطريق .

وثمة نوع آخر من الطرق أنشأها محمد على ، اصطلح على تسميتها أنذاك بالطرق السلطانية . وكانت هذه الطرق تتميز بأنها كانت ترصف بالأحجار الجيريه وتغرس الأشجار على جانبى هذه الطرق السلطانية

وخاصة التى تؤدى إلى قصور الباشا مثل الطريق من القاهرة إلى قصر محمد على فى شبرا .

وعلى الرغم من أن اهتمام الباشا بالقاهرة كان أقل منه من الأسكندرية ، إلا أنه أشرف بنفسه على مشاريع العمران المختلفة التى نفذت بالقاهرة . وقد شملت هذه المشاريع كل مظاهر العمران تقريبا سواء فى مجال البناء أو الطرق أو التنظيم أو مد المدينة بالمياه أو عمل المجارى لضمان صحة السكان .

ومن أعماله العمرانية التى مازالت قائمة تشهد على عظمة عصره جامعه الذى أنشأه فوق قلعه صلاح الدين وهو يعد أضخم بناء أقيم بالقلعة ، وقد تم دفنه فى هذا الجامع .وأنشأ كذلك قصر شبرا وكان يقيم به بالفعل وأنشأ كذلك الدفتر خانه وهى دار المحفوظات كما يطلق عليها الأن وهدم الكثير من التلال والكيمان التى كانت تحيط بالقاهرة وتفسد منظرها بل وتفسد صحة القاهريين بما كانت تحمله من أتربة وقاذورات عندما تهب عليها الرياح . ولم يقف محمد على عند البناء والتشييد فقط بل لقد أمتد تفكيره أيضا إلى التزيين والتجميل ، فقد أصدر فى ٣٠ ديسمبر عام ١٨٤٣ أوامره بإنشاء مجلس للإشراف على تزيين وتجميل المحروسة . وجاء فى خطابه إلى الكتخدا (عباس باشا) أن الهدف هو تزيين وتجميل المحروسة ــ أى القاهرة ــ وإصلاح وتعديل طرقها وما إلى ذلك مما يعود بالمنفعة على صحة الشعب وسلامته أسوة بما أستحدث فى الأسكندرية

وكان هذا المجلس الذى أمر محمد على بإنشائه يضم العديد من القيادات والخبرات الموجودين بالقاهرة آنذاك مثل إسماعيل بك ضابط المحروسة (مدير الأمن) ، كلوت بك (رئيس مجلس الأطباء) ، حكاكيان بك (ناظر

مدرسة العملية) ورشيد أفندى (مفتش الأبنية الأميريـــة) ولـيـــان أفنـــدى (مهندس القناطر الخيرية والجسور الأميرية) وآخرون من ذوى الخبـــرات المتميزة ومن الجدير بالذكر أن الأسكندرية قد ســبقت القـــاهرة فـــى هـــذا المضمار وكان قد تشكل بها مجلسا خصا فى عام ١٨٣٤ وذلــك لإدخـــال مظاهر الحضارة الحديثة ، وقد أطلق على هـــذا المجلـــس أســـم " مجلـــس الاورناتو " وكان أعضاؤه من الأجانب والوطنيين على السواء .وكان مـــن بين مهام هذا المجلس إطلاق الأسماء على الشوارع وبحث التعديات علـــى التنظيمات الخاصة بالمبانى ، والإشراف بوجه عام على كل شئون المدينـــة الحضرية . ونلاحظ هنا وجود التأثير الأجنبى بشكل واضح ، فقد بلغ عـــدد الأجانب بالأسكندرية عام ١٨٣٣ إلى ٤٨٨٦ شخصا أى حوالى ١٢,٢% من عدد السكان فى المدينة . وكان هؤلاء الأجانب يقومون بجميـــع العمليـــات التجارية بين مصر وأوربا ، فضلا عن أن الملاحة فى الميناء كانـــت فـــى أيديهم وحدهم ، ويعيشون فى منازل أنيقة عيشه الترف والنعـــيم ويقتنـــون الجياد الأصيلة .

وفى حديثنا عن أول خط حديدى أقيم باليابان عرفنا أنه مد لأول مـــرة فى عام ١٨٧٢ ما بين شينباشى فى طوكيو ومدينة يوكوهامـــا المجـــاورة . والمعروف أن أول خط حديدى أنشأ فى مصر كان فى عام ١٨٥٤ فى عهد سعيد باشا ، وهى معلومة صحيحة فى معظمها إلا من قليل . فالخط الحديدى مابين القاهرة والأسكندرية وما بين القاهرة والسويس كانا بمثابـــة الخطـــين الفعليين للسكك الحديدية المصرية ولكن فى الحقيقة كان هناك خط قصـــير إلى حد كبير أنشئ فى عهد محمد على ، وكان طوله يقرب من ٣٠٠ متـــر

فقط وركبت عليه ثلاثين عربة بضاعة لنقل الحبوب من وسط المستودعات التى كانت تخزن فيها حتى رصيف الشحن .

وقصة هذا الخط الحديدى لا تخلو من عدة معانى نستطيع إدراكها . فهى تفهمنا مدى ما وصل إليه طموح هذا السياسى الفذ الذى تفوقت نظرته الإقتصادية على مقاييس عصره . وتجعلنا ندرك أيضا مدى التحديات التى واجهها وانه كان يستفيد أيضا من الفشل كما كان يستفيد من النجاح .

والقصة تبدأ عندما بدأت السفن البخارية تعمل بكثرة مابين مدينة بومباى بالهند وبين السويس وذلك منذ عام ١٨٣٤ . وكانت هذه السفن خاصة بشركه الهند الشرقية الإنجليزية . ومع انتعاش حركة التجارة من وإلى السويس ، وزادت أعداد قوافل النقل سواء بالجمال أو بالعربات وزادت معها بالتالى مصاعبها ومشاكلها ، فقد فكر محمد على فى مد خط سكة حديد من القاهرة إلى السويس.

وبالفعل تم عمل الدراسات لإنشاء هذا الخط الحديدى على طريق القاهرة – السويس وتقرر صلاحيته لذلك . ثم أرسل محمد على المهندس المسئول عن هذا المشروع الكبير إلى انجلترا وأحضر من هناك خمس سفن محملة بالقضبان ومهمات السكك الحديدية . إلا أن إنجلترا رفضت تقديم الضمانات المالية اللازمة لإنشاء هذا الخط ، كما عارضت فرنسا فى أمر إنشائه . وهكذا فشل مشروع إنشاء أول سكة حديدية كان من الممكن أن تتم خارج أوربا وفى عهد مبكر جدا فى مصر . ولكن كما ذكرنا أيضا فقد كان محمد على يستفيد أيضا من عثراته فقد قام باستخدام المهمات التى وصلت من أجل إنشاء السكة الحديدية فى إنشاء خط صغير عند مصب ترعة المحمودية فى الميناء وفى المنطقة المسماة جمرك المحمودية ، وكان طول هذا الخط لا

يزيد عن ٣٠٠ متر كما ذكرنا . وتذكر مصادر تاريخية أخرى أن القضبان التى أحضرت من إنجلترا استخدمت فى مد سكة حديدية قصيرة بمحاجر طرة لنقل الأحجار إلى شاطىء النيل كى تستعمل فى بناء القناطر الخيرية .

ومن مظاهر المدنية الحديثة أيضا التى أعطاها محمد على اهتمامه البريد والتلغراف أما البريد فقد كان هناك نوعان منه : البريد الحكومى وكانت الدولة تقوم بنقله وتوصيله بواسطة الخيل وذلك براً أم بحراً على ظهر السفن إلى السودان والحجاز والشام . أما البريد الخاص فقد كانت مكاتبه تقوم بتوزيعه دون أن تحمل الرسائل أية طوابع . وكانت مسئولية توزيع البريد فى القاهرة فى يد الشيخ حسن البديلى ، أما فى الإسكندرية فكان يقوم بهذه المهمة أجنبى يدعى كارلو ميراتى .

وقد أدخل محمد على نظام التلغراف لأول مره فى مصر عام ١٨٢٠ ، وقد قام بإنشاء ١٩ برجا من رأس التين بالأسكندرية إلى القلعة فى القاهرة . إلا أن هذا الخط أنشئ على النمط القديم (شاب) فكانت الأنباء تنقل من مرحلة إلى أخرى إلى أن تصل إلى الجهة المقصودة . وكانت الرسالة تصل من الأسكندرية إلى القاهرة فى حوالى ٣٠ دقيقه . وفى عام ١٨٤٠ تم إنشاء خط جديد من القاهرة إلى السويس ولكن هذا الخط ضم ١٦ برجاً فقط وذلك بالطبع لأن المسافة مابين القاهرة والسويس أقصر منها مابين القاهرة والإسكندرية . وبإنشاء هذا الخط تم ربط الإسكندرية بالسويس عن طريق التلغراف .

الفصل السابع

إقتصاد اليابان

فى عهد ميچى

الفصل السابع

إقتصاد اليابان فى عهد ميچى

١- إرهاصات اقتصادية قوية :-

تناولنا فيما سبق انجازات نهضة ميجى فى التعليم والإدارة وإدخال مختلف مظاهر المدنية الحديثة إلى البلاد وكذلك فى النواحى الاجتماعية . وتأخر حديثنا عن الإصلاح الاقتصادي الذى قامت به ثورة ميجى فلماذا إذن جاء حديثنا عن الاصلاحات الأولى مبكرا عن الحديث عن الإصلاح الاقتصادى . الحقيقة أن دور نهضة ميجى فى الإصلاحات التعليمية والإدارية والاجتماعية جاء سريعا وبارزا وواضحا لان تلك النواحى كانت تحتاج إلى تدخل سريع وحازم وتغيير شديد من قبل حكومة . وهذا ما استطاعت الحكومة الجديدة القيام به على خير وجه إلى حد كبير.

أما عن الناحية الاقتصادية ، فقد أوضحنا فيما سبق أن الاستقرار الأمنى والسياسى الذين سادا عصر الطوكوجاوا قد أديا إلى تزايد معدلات الإنتاج بدرجة كبيرة لم تشهدها اليابان فى عصورها الماضية كذلك أدى هذا الاستقرار إلى زيادة عدد سكان اليابان وخاصة فى المدن الرئيسية الكبرى بدرجة لم تكن موجودة فى معظم الدول الأوربية ويكفى أن نذكر أن عدد سكان مدينة ايدو وصل إلى المليون نسمة فى مطلع القرن الثامن عشر وقد شهدت مدينة ايدو انتعاشا كبيرا بسبب عدة عوامل منها وجود حكام الأقاليم "الديموات" وحاشيتهم والذى وصل عددهم إلى مائة ألف نسمة . كذلك بسبب كونها قاعدة للساموراى (المحاربين) ، ولكونها قاعدة ومركزاً للسياسة والاقتصاد اليابانيين : إلى جانب ذلك كانت ايدو تعد مركزاً للأنشطة الإجتماعية ، وحظيت ايدو بنصيب وافر من أماكن اللهو ومراكز لدور النشر

والثقافة والفنون والمسارح ونافست طوكيو هذا الانتعاش الإقتصادى والثقافى مدينتين عريقتين هما كيوطو وأوساكا . فالأولى كانت مركزا للحكم والبلاط الإمبراطورى منذ القدم ومركزا هاما للإشعاع الثقافى .أما الثانية فقد أشتهرت طول عصر ايدو بكونها مدينة للتجارة والأغنياء من التجار. وقد بلغ عدد سكان كل من المدينتين فى مطلع القرن التاسع عشر ما بين ٣٥٠ ، ٤٠٠ ألف نسمة . وهذا دليل واضح على انتعاش عظيم تمتعت به المدينتان الكبيرتان وذلك فى وقت متقدم من الزمان .

ومن خلال استعراضنا للسطور التالية من كتاب الدكتور مسعود ضاهر

" النهضة العربية والنهضة اليابانية تشابه المقدمات واختلاف النتائج " سوف يمكننا اكتشاف أن حكومة النهضة فى اليابان لم ترث بلدا مهدما اقتصاديا على الإطلاق وقد رأينا من خلال الحديث عن اقتصاد مصر فى عهد محمد على أن هذا الحاكم غير المصرى - ونتحفظ على لفظة أجنبى - كان قد تسلم بلدا يكاد يكون منهارا اقتصاديا . وإن كان لتحطيم الأسطول الفرنسى فى موقعه أبى قير البحرية ومحاصرة الأسطول الإنجليزى للشواطىء المصرية جعل مصر مفقودة الصلة بالخارج ، وهذا ما جعل الفرنسيين يحاولون إقامة بعض الصناعات لخدمة شئونهم الخاصة لا أكثر ، وكان اهتمامهم الأكبر بالصناعات الحربية . وهذا الاهتمام الفرنسى بالاقتصاد فى مصر لم يصب فى النهاية لمصلحة مصر بشكل عام أما النهضة الإقتصادية والحقيقية فى مختلف المجالات فقد استطاع القيام بها محمد على مما يجعلنا نقف احتراما لهذا الحاكم القوى الذكى ، والذى تم الاحتفال بذكرى مائتى عام على جلوسه على عرش مصر عام ٢٠٠٥ ويعاد تقدير دور هذا الرجل فى تاريخ مصر الحديث حق تقدير . على أية حال فلنلقى نظرة على ما ذكره

الدكتور مسعود ضاهر عما وصل إليه الاقتصاد اليابانى من قوه فيما قبل عصر النهضة الحديثة فى اليابان فربما زاد ذلك من تقديرنا لمحمد على .

" وليس من شك فى أن ٢٦٥ سنة من التراكم المستمر دون حروب ونزاعات داخلية كبيرة فإن مرحلة طوكوجاوا كان لها الأثر البارز فى تطور الإقتصاد اليابانى من نمط الإنتاج ما قبل الرأسمالى إلى نمط إنتاج رأسمالى واضح دون مؤثرات خارجية مهمة لما يعتقد عدد كبير من المؤرخين الغربيين المهتمين بالتجربة اليابانية و يكفى التذكير فى هذا المجال بأن الأدوات ، والأسمدة الزراعية ، وتأصيل النباتات والبذور الزراعية ، والعناية الصحية بالحيوانات ، وتأليف الكتب لإرشاد المزارعين اليابانيين قد تم تطويرها وتحديثها من قبل اليابانيين أنفسهم بحيث زادت النسبة المئوية للإنتاج الزراعى فى الاقتصاد اليابانى مرات عديدة عن ما كانت عليه فى السابق . وتم التوظيف فى زراعات أو سلع زراعية ومشتقاتها المعدة للتصدير الخارجى كالحرير والقطن والأرز وغيرها . فنشطت صناعات ريفية أنتجت سلعا ذات شهرة عالمية . وكانت الصناعات القطنية والحريرية من أبرز الصناعات فى مرحلة طوكوجاوا ، وفى نهاية تلك المرحلة كان عدد سكان اليابان قرابة ٣٥ مليون نسمة ، منهم قرابة ١٩ مليون عامل فى جميع القطاعات المنتجة ، ويتراوح عدد العمال الصناعيين منهم بين مليونين وثلاثة ملايين عامل ، مابين رجال ونساء . نخلص القول بأن مرحلة طوكوجاوا التى تميزت بالسلام الطويل قد شهدت عملية تراكم كبيرة فى مجال التجارة والادخار المالى ، وكان لهاتين الظاهرتين الأثر الحاسم فى جميع التبادلات الاقتصادية والاجتماعية واللاحقة فى تاريخ اليابان الحديث المعاصر .

هذا الكلام للدكتور مسعود ضاهر قد ينسحب فى مجمله على التجــارة والإدخار المالى بشكل واضح ، وهذا ما يميز اقتصاد عصر طوكوجــاوا . ولكننا من ناحيتنا نذكر أن فى أواخر هذا العهد حاول قاده حكومــة البــاكفو إدخال التكنولوجيا الحديثة فى الصناعات أيضاً وخاصة تلك المرتبطة بالناحية العسكرية . ويكفى أن نذكر أن أول فرن عاكس لصهر الحديد فى اليابان تم إنشاؤه فى مقاطعه هيزن وبالتحديد فى مدينة ساجا عام ١٨٥٠ وبــدأ فــى إخراج إنتاجه عام ١٨٥٢ . ثم نجد أن عدة مقاطعات أخــرى حــذت حــذو مقاطعه هيزن فى ذلك الأمر .

وبالطبع لا يعنى كلامنا هذا أن الاقتصاد اليابانى لم يكن فى حاجة إلــى الإصلاح والتعديل والتطوير ، فكل هذا كان مطلوباً وبإلحاح . ولكننا قصدنا فقط أن نقول إن الوضع الاقتصادى فى اليابان قبل عهد ميجى لم يكن ســيئاً أو متهيزاً كما كان الوضع الاقتصادى فى مصر قبل عهد محمد على .

(٢) إنتعاش أعقبه إنكماش

على أية حال فكلامنا السابق لا يعنى على الإطــلاق أن ثــورة ميجــى الإصلاحية قد وقفت عند الوضع الاقتصادى الذى ورثته عن طوكوجــاوا ، وإلا لانتفت صفات الثورة والنهضة أو الإصلاح عنها أو عن هذا العهد الذى يعد بحق بداية للعصر الحديث فى اليابان . فلم تكد حكومة ميجى الجديدة أن تتولى تقاليد الحكم فى البلاد حتى استقدمت من فرنسا العديد مــن الخبــراء وكذلك الماكينات الحديثة . وأنشأت فى محافظة جونما فى منطقة تومي أوكا مصنعا كبيرا للحرير . وفى هذا المصنع تم تدريب عدد كبير مــن الفتيــات على التكنولوجيا الحديثة المتقدمة ، ثم أرسلن إلى مختلف المحافظات ليعملن

في مصانعها الجديدة . وهكذا تطورت صناعات الحرير فى اليابان بدرجة كبيرة.

وهكذا قادت الحكومة حركة تطوير الصناعات فيما عرف بالصناعات المتنامية. وبالطبع انسحبت هذه السياسة على مختلف الصناعات سواء كانت صناعات خفيفة كصناعة الحرير أو كيميائية مثل صناعة الزجاج والأسمنت وكذلك صناعات ثقيلة مثل السفن والماكينات .وكذلك حظيت الصناعات التعدينية على قسط كبير من مجهودات ثورة ميجى النهضوية ، وبالطبع لم تهمل حكومة ميجى الصناعات العسكرية فأنشأت بعض المصانع ، فى كل من طوكيو واوساكا خصوصا أن اليابان قد أظهرت فى وقت مبكر أطماعا عسكرية خارجية وذلك فى عام ١٨٧٤عندما قامت الحكومة اليابانية بإرسال قوات الى تايوان ومهاجمتها بحجة أن سكان هذه الجزيرة قاموا بقتل بحارة يابانيين فى عام ١٨٧١وكانت هذه الحملة العسكرية أول غزو خارجى تقوم به اليابان بعد انفتاحها على الغرب .وقد استطاعت اليابان الحصول على تعويضات كبيرة من الصين إثر هذه الغزوة العسكرية السريعة التى لم تستمر أكثر من خمسة أشهر .وبالطبع سوف تطور اليابان من صناعتها الحربية خصوصا بسبب حروبها ضد الصين وروسيا حتى تصبح من الدول الأستعمارية الكبرى فى نهاية عصر ميجى .وسوف تقوم بضم كوريا بفضل ترسانتها العسكرية الضخمة وذلك فى عام ١٩١٠ .

وقد نتج عن المجهود الوافر الذى أعطته الحكومة للصناعة على افتتاح معرض طوكيو لتشجيع الصناعات الداخلية وذلك فى حديقة اوينو الكبيرة .وفى هذا المعرض تم عرض ما يزيد عن ٨٠الف قطعة منتجة فى

اليابان .وقد زار هذا المعرض ما يزيد عن ٤٥٠ ألف زائر استطاعوا أن يشهدوا مدى التقدم الذى أحرزته اليابان فى مختلف مجالات الصناعة .

ولكن عملية التطوير الصناعى هذه تمت بلا تخطيط جيد وبسرعة جامحة مما أدى إلى معاناة الاقتصاد اليابانى من الخسارة والتضخم الشديدين .وقامت الحكومة بإصدار أوراق مالية ليس لها أى غطاء يحميها ، وهذه الأوراق المالية عرفت باسم نقود وزارة الداخلية ؛؛Dajokansatsu إلا أن هذه الأوراق المالية وغيرها لم تستطيع علاج الموقف الاقتصادى المتأزم .ومما داد الطين بله نشوب الحرب بين جيش الحكومة وجيش المعارضين لها بقيادة الزعيم سايجو تاكمورى عام ١٨٧٧ (Seinansenso) وهذه الحرب الداخلية أجهدت بالطبع الحكومة مالياً ، خاصة أنها أكثرت من إصدار الأوراق المالية ذات الغطاء الضعيف (Fukanshihei) لتغطى نفقات الحرب . هذا كله إلى جانب السياسه الإستيرادية المندفعة التى اتخذتها الحكومة والتى أفقدتها الكثير من النقود المعدنية سواء الذهبية أو الفضية التى تمتلكها . هذا كلـه أدى إلى ازدياد التضخم واشتعال الأسعار . وهذه الأوضاع أدت بالطبع إلى عرقلة التطور السليم للتصنيع الحديث .

وهنا قامت الحكومة بتعيين ماتسوكاتا ماسايوشى Matsukata Masayoshi (١٨٣٥ ـــ ١٩٢٤) فى منصب وزير الخزانة فى عام ١٨٨١ لإعادة بناء اقتصاد اليابان المتدهور . وقد قام ماتسوكاتا برسم سياسة إنكماشية تقشفية عرفت باسمه ، حاول من خلالها إصلاح النظام المالى وتقوية النظام النقدى وتخفيض المصروفات . وقد تركزت هذه السياسة على محورين أساسين هما :ـــ

(١) تخفيض المصروفات الحكومية عن طريق اتخاذ سياسة انكماشية حادة . وجاء ذلك عن طريق بيع المصانع والمنشأت الحكومية للقطاع الخاص .

(٢) زيادة الدخل عن طريق زيادة الضرائب ، وخاصة ضريبة الخمور وضريبة الاستهلاك وضرائب المحليات . وتم رفع كل هذه الضرائب بصورة إجبارية ومفاجئه وبسبب اتخاذ الحكومة للخطوة الأولى تعملقت الشركات الرأسمالية الكبيرة نسبيا مثل شركتى ميتسوى وميتسوبيشى وغيرها من الشركات الخاصة التى استطاعت الحصول على مصانع ومشروعات حكومية بأسعار زهيدة ، لتصبح بعد ذلك فى العصر الحديث وحتى يومنا هذا كارتيلات عملاقه تسيطر على الاقتصاد اليابانى وتمثله .

ففى بداية الأمر عرضت الحكومة المصانع والمناجم للبيع ،إلا أن الإقبال على شرائها كان محدودا ، مما جعل الحكومة تعرضها بأسعار زهيدة . مثلا بيع مصنع تومى اوكا للحرير، والذى تحدثنا عنه توا بمبلغ ١٢٠ الف ين لشركة ميتسوى فى حين أن قيمته قدرت آنذاك بمبلغ ٣١٠ الف ين كذلك قامت الحكومة ببيع مصنع شينا جاوا للزجاج بمبلغ ٧٩٩٥٠ تدفع على اقساط على مدى ٥٥عاما تبدأ بعد عشرة سنوات من تاريخ الشراء ، رغم أن الحكومة أنفقت على ذلك المصنع ٣٥٠ الف ين بل أن الحكومة قامت بالتنازل عن ترسانة ناجاساكى لصناعة السفن مجانا لشركة ميتسوبيشى . وهناك أمثلة عديدة توضح مدى تساهل الحكومة فى بيع المصانع والمشروعات الخاصة بها للشركات الخاصة . وهذا التساهل إن دل على شئ فهو يدل على مدى فشل الحكومة فى إدارة هذه المشاريع ومدى

الخسارة التى تكبدتها . فأرادت أن تتجنب هذه الخسارة بهذا الإجراء . كذلك هدفت الحكومة من خلال هذا تشجيع الاستثمارات الوطنية الخاصة . إلا أن هذا التشجيع لم ينسحب على كل الشركات وإنما تمتع به عـــدد قليــل مـــن الشركات ، أما الشركات الصغيرة والوسيطة فلم تتمتع بها . بل الأدهى مـــن ذلك أن تلك الشركات المتوسطه الحجم والصغيرة اضطر الكثير منهـــا إلـــى إعلان إفلاسه بسبب سياسة التقشف والانكماش التى طبقها ماتســـو كاتـــا ، وكذلك بسبب الضرائب الباهظة والارتفاع الشديد فى الأسعار . ولم يتوقـــف هذا الضرر الاقتصادى على المصانع والشركات بل امتـــد ليشـــمل صـــغار الملاك الزراعيين والفلاحين الذين عانوا كثيرا من وطأة الـــديون فأضـــطر الكثير منهم لترك أراضيهم والرحيل بعيدا. وهكذا نجد أن لنهضـــة ميجـــى أيضا أثارا جانبية وسلبية أثرت على قطاعات عدة كما رأينا هذا عندما طبق محمد على قوانينه الاحتكارية وفرض الضرائب الباهظة وبـــالأخص علـــى الفلاحين فلم يجدوا سوى ترك أراضيهم والهرب بعيدا سواء داخل البلاد فى الأسكندرية أو خارج البلاد إلى الشام . وكأن مقوله "التاريخ يعيد نفسه" تثبت صحتها ولكن ليس فى نفس البلد وإنما على بعـــد ألاف الكيلـــومترات مـــن مصر .

بعد ذلك جمعت وزارة الخزانة بقيادة ماتسوكاتا الاوراق الماليـــة التـــى كانت السبب فى التضخم وتم حرقها . ثم أخذ ماتسو كاتا خطوة أخرى هامة فى سبيل تقوية الإقتصاد اليابانى وذلك بإنشاء بنك اليابان برأســـمال عشـــرة ملايين ين . وعلى الرغم من أن هذا البنك أنشأ من الناحية الشـــكلية كبنـــك خاص ، إلا أن الحكومة ساهمت بنصف رأس المال وكانت هى المشـــرفة عليه . وكذلك أصبح من حق بنك اليابان وحده دون غيره من البنوك إصدار

النقود . ثم عملت وزارة ماتسوكاتا للخزانة على التحكم فى الاستيراد وتشجيع التصدير وكذلك الاجتهاد فى زيادة وتنمية النقود المعدنية حتى وصل ما تملكه خزانة الدولة إلى ٤٢مليون ين فى عام ١٨٨٥. وهو بالطبع مبلغ ضخم جدا بمقاييس تلك الأيام ، وكان من أهم أهداف ماتسوكاتا من إكثار النقود ببنك اليابان هو جعل رجال الأعمال يتنافسون من أجل استثمار هذه الأموال فى بناء مصانع وشركات عديدة تنشط الاقتصاد اليابانى وأن رجال الأعمال الذين برزوا لأداء هذا الدور كان معظمهم من كبار رجال الأعمال والشركات مما خلق نوعا من التجارة السياسية ، أى تداخل التجارة مع السياسة . وفى مرحلة تالية سوف يكون للشركات العملاقة التى استولت على اقتصاد البلاد دورا هاما فى رسم سياسة البلاد ، وبالطبع بما يسمح لها هذا التدخل لتنمية رأسمال شركاتها . ولذلك كانت تشجع الحكومة على غزو البلاد المجاورة حتى يمكن إنشاء أسواق جديدة تستطيع من خلالها تسويق إنتاجها المتنامى . كذلك سوف نرى هذا التأثير عندما تقوم شركة مثل ميتسوى بتمويل رحلة خارجية لزعيم حزب الأحرار " إيتاجاكى تايسوكى (١٨٣٧- ١٩١٩) فى الفترة ما بين نهاية عام ١٨٨٢ إلى العام التالى . وقد هدفت الحكومة من ذلك إلى إضعاف حزب الأحرار الذى يتزعمه إيتاجاكى ، وهذا ما حدث بالفعل بعد أن تشكك بعض أعضاء الحزب فى مصادر تمويل رحلة إيتاجاكى واحتجوا على ذلك وقرروا الخروج من الحزب .

على أية حال أدت سياسة ماتسوكاتا الإنكماشية والتقشفية فى الوقت نفسه إلى تفاقم الأوضاع الاقتصادية فى الريف إلى أقصى درجة وانخفضت أسعار الأرز وغيره من المحصولات الزراعية بدرجة كبيرة مما أدى إلى

انخفاض مستوى معيشة الفلاحين ومن ناحية أخرى ارتفعت قيمة الضرائب على الأراضى الزراعية . كل هذه الظروف الصعبة جعلت الفلاحين يهربون نحو المدن . وهذا ما أدى بالتالى إلى انخفاض عدد دافعى الضرائب من الفلاحين ويقال أن عدد الفلاحين الذين كانوا يدفعون ضرائب مابين ٥ إلى ١٠ين سنويا انخفض من ٩٣٠ ألف فى عام ١٨٨٠ الى ٦٨٥٠٠٠ فى عام ١٨٨٧ وهكذا نجد أنه بسبب سياسة ماتسوكاتا الاقتصادية ازداد الفقراء فقرا وازداد الأغنياء غنى .

وعلى الرغم من الانكماش الاقتصادى الذى حدث نتيجة لسياسة ماتسوكاتا إلا أن هذه السياسة حققت تراكم مالى لدى الحكومة جعل اليابان تضع نفسها على عتبة النظام الرأسمالى عابه هذه الفاقة وذلك الفقر الذى عانى منه كل من الفلاحين وفقراء المدن إلا أن هذا الوضع المالى الجيد الذى أصبحت فيه خزانة الدولة وفر لها الفرصة لكى تقيم صناعات عديدة أبرزها الصناعات الثقيلة التى كانت بمثابة الأساس لهذا النظام الرأسمالى الجديد بل ورمزا للامبريالية اليابانية الحديثة والقديمة فى نفس الوقت ونعنى الامبريالية الحديثة سعى اليابان الحثيث من اجل اقتفاء أثر الدول الامبريالية أنذاك مثل انجلترا وفرنسا واسبانيا والبرتغال وغيرها من الدول المعروفة بامتدادها الاستعمارى . ونعنى الامبريالية القديمة هو استمرار تواجد الحلم اليابانى القديم فى الاستيلاء على الدول المجاورة والذى تحدثنا عنه فيما قبل إلا أن الحلم القديم هذا والمحاولات السابقة لم تتحقق. ولكن الحلم والهدف الحديثين سوف يكون لهما مكان على أرض الواقع جزئيا فى نهاية عصر ميجى وذلك بضم كوريا فى عام ١٩١٠ وكليا فى النصف الأول من عصر شوا اى حتى قبيل الحرب العالمية الثانية

اعتمدت الصناعة اليابانية فى بداية الأمر على صناعة الغزل والنسيج والحرير . وتجسد ذلك بوضوح فى مصنع تومى اوكا الذى انشئ فى عام ١٨٧٠ . واستطاعت اليابان من خلال تلك الصناعات الخفيفة أن تحقق تقدما ونهضة بارزين . فمنذ عام ١٨٨٥ رفعت اليابان من انتاج الخيوط القطنية عن طريق إدخال أحدث الماكينات . وأخيرا وفى عام ١٨٩١ ارتفعت كمية إنتاج الخيوط القطنية المنتجة داخل اليابان على تلك المستوردة من الخارج . وكانت الخطوة التالية هى إلغاؤها الضرائب على الخيوط والمنسوجات القطنية المصدرة للخارج وكذلك إلغاؤها على القطن الخام المستورد من الخارج ، وكنتيجة مباشرة لذالك فقد ارتفع الإنتاج بشكل ملحوظ وفى خلال عقد التسعينات من القرن التاسع عشر حققت صناعة الغزل والنسيج فى اليابان تقدما ملموسا وزادت مصانعها وزاد التصدير كذلك إلى أسيا فى الدرجة الأولى ثم أمريكا وأوروبا. وكان انتصار اليابان فى الحرب ضد الصين عام١٨٩٤ وحصولها على تعويضات كبيرة منها أثره الكبير لتأكيد نظام الغطاء الذهبى الذى أدى إلى استقرار اقتصادى حقق للبلاد تجارة خارجية متطورة .واعتبرت هذه المرحلة من مراحل التقدم الذى تركز على الصناعات الخفيفة بمثابة الثورة الصناعية الأولى فى اليابان أما الثورة الصناعية الثانية فقد تحققت مع بداية القرن العشرين وخلال العقد الأول من هذا القرن وخلال هذه الفترة تصاعدت فكرة الرأسمالية إلى جانب فكرة الإمبريالية فى اليابان وبالطبع كان لانتصار اليابان فى حربها ضد الصين الدافع الأكبر لهذا الاتجاه ، وهذا ما أدى إلى اهتمام اليابان بتقوية الاستعدادات الحربية ولذلك بذلت مجهودات كبيرة من اجل تطوير الصناعات الثقيلة . ففى عام ١٩٠١ افتتح مصنع ياواتا للحديد والصلب ، وكان الهدف

الأساسى و الرئيسى لإنشاء هذا المصنع هو تطوير وتنمية الصناعة الحربية . ولم تنشأ حكومة ميجى هذا المصنع الكبير فى طوكيو أو بالقرب منــه، بــل أقامته فى جزيرة كيوشو وبالتحديد بمحافظه فوكوأوكا بعيداً عــن عاصــمة البلاد وهذا يدل على بعد نظر التفكير النهضوى اليابــانى آنــذاك . ذلــك لاعتماد هذا المصنع على الحديد الخام المستورد من الصين ومن كوريــا ، وكذلك على الحديد الخام المستخرج من مناجم تشيكوهو التى تقع فى شــمال شرق محافظه فوكو أوكا وهذا ما يفسر لنا سبب إختيار مكان المصنع وهــو أن يكون قريباً من أماكن إنتاج خام الحديد وقد شــهد هــذا المصــنع عــدة تطورات وتحديثات ومازال يعمل حتى يومنا هذا . وأقيمت كذلك عدة مصانع للحديد والصلب . وتغيرت القوى المحركة لهذه المصانع من قوة البخار إلى القوى الكهربائية.

وبفضل الثورة الصناعية الثانية شهدت السكك الحديدية تطورا كبيــرا وتم تأميم كل الخطوط الحديدية . وكذلك تطورت صناعة السفن تطورا كبيرا وخصوصا تلك المرتبطة بالحربية اليابانية . كذلك تقدمت صــناعة الماكينــات والآلات وتم إكتشاف مناجم عديدة . أما صناعة الغزل والنسج فقــد حققــت سمعه عالمية بل إنه تم إقامة مصانع لهذه الصناعة فى الصــين برأســمال يابانى أدى إلى تصدير الرأسمال اليابانى إلى خارج البلاد ، وهــذه بــالطبع خطوه هامة فى تاريخ الاقتصاد اليابانى . وعن طريق هذه الخطوات السابق ذكرها تم تعضيد الرأسمالية اليابانية وبلورة الإقتصاد اليابانى وتقويته .

(٣) الاقتصاد اليابانى والاستثمارات الأجنبية :.

فى العقد الأول من عصر ميجــى لجــأت اليابــان لعقــد قرضــين أجنبيين :الأول فى عام ١٨٧٠ مع بعض المؤسسات المالية الإنجليزية ،وبلغ

هذا القرض مليون جنية استرلينى وذلك لتمويل عملية إنشاء أول خط حديدى ربط بين طوكيو وميناء يوكوهاما بفائدة سنوية قدرها ٩%،وفى عام ١٨٧٣تم عقد قرض آخر قيمته مليونين وأربعمائة ألف جنية إسترلينى ،وذلك لتحمل الأعباء التى ألقيت على الحكومة بسبب إلغاء النظام الإقطاعى .

إلا أن سياسة الإقتراض الخارجى واجهت معارضة من فريقين . فريق تزعمه الإمبراطور وبعض المقربين له . وفريق آخر تزعمه السياسى الشهير ماتسوكاتا ماسا يوشي . أما الفريق الأول فقد تأثر بوجهة نظر الرئيس الامريكى بوليسيسى سيمبيسون جرانت ١٨٢٢ - ١٨٨٥ الذى قام بزيارة غير رسميه لليابان ، حيث إنه كان قد ترك المنصب قبل زيارته لليابان واجتمع جرانت مع الإمبراطور اليابانى لتبادل الاراء حول مشكلة ريوكيو (اوكيناوا) ، وحينها نصح جرانت الإمبراطور اليابانى بألا تلجأ اليابان لعقد أية قروض خارجية حتى لا تتعرض لفقدان استقلالها والتدخل فى سياستها الداخلية من قبل الدول الدائنة كما الحال فى مصر . وبالفعل حاول هذا الفريق تطبيق هذه النصيحة خاصة وأن الرأى العام اليابانى كان يتجه نحو هذه السياسة من عدم اللجوء للقروض الخارجية . أما الفريق الثانى الذى رأينا كيف كان يحاول قدر جهده تطبيق سياسة التقشف والانكماش الاقتصادى . وكانت معارضة هذا الفريق أيضا تأتى من خشيته أن يؤدى الاقتراض الخارجى إلى سيطرة البلاد الأجنبية على الاقتصاد اليابانى لذلك فقد عارض ما تسوكاتا اقتراح أو كوما فى عام ١٨٧٧ ، والخاص بالاستعانة برأس المال الأجنبى لمواجهة التضخم.

إلا أن الذى يثير إعجابنا فى تجربة نهضة ميجى أن ساستها كانوا يتخذون لكل مرحلة ما يناسبها من إجراءات ومن سياسات فنجد أنهم أحجموا

قدر الإمكان عن اللجوء للقروض الخارجية حتى تتيح لهم الظروف الدولية وكذلك الداخلية فرص اقتراض أفضل . فبعد أن تخلصت اليابان من المعاهدات المجحفة التى كانت قد عقدتها مع الدول الغربية فى نهاية فترة توكوجاوا وبعد أن اتخذت عدة إجراءات لتدعيم عملتها مثل اتخاذ الذهب كغطاء لعملتها . وكذلك بعد أن تدعم مركزها الدولى بانتصارها على الصين وحصولها على تعويضات كبيرة ، فإن اليابان لم تتردد فى قبول القروض الخارجية فعقدت قرضا كبيرا قيمته عشرة ملايين جنية استرلينى مع بعض البيوتات المالية الإنجليزية بفائدة سنوية قدرها ٤% فقط وذلك لتغطية رأس المال اللازم لمشروعات السكك الحديدية والتوسع الصناعى الذى أعقب الحرب الصينية -اليابانية وكان لذلك القرض الإنجليزى أثر كبير على النظام النقدى فى اليابان لأنه حال دون انخفاض قيمة احتياطى الذهب الذى كان متوقعا نتيجة الكساد الذى عانت منه البلاد عام ١٨٩٨ .

وعلى العكس من التجربة الاقتراضية الفاشلة التى عانت منها مصر إبان عصر الخديوى إسماعيل وعفويتها وعدم التخطيط السليم لها ، فقد اتسمت التجربة اليابانية للاقتراض بالتروى والتخطيط السليم وعدم الاندفاع فى الاقتراض. وفى هذا الأمر نجد أن الحكومة اليابانية قامت فى إبريل عام ١٩٠٢ بافتتاح البنك الصناعى اليابانى . وكانت أهم مهام هذا البنك هو مراقبة عملية استيراد رأس المال الأجنبى ، بالقدر الذى لا يضر بمصالح الرأسمالية اليابانية . وأن يضمن سداد أقساط الديون فى مواعيدها المحددة . وان يحول دون تحكم رأس المال الأجنبى فى الصناعة اليابانية . وحتى يقوم البنك بأداء هذه المهام بكفاءة اختارت الحكومة نخبة من المصرفيين الأكفاء الذين يتقنون اللغات الأجنبية ليشغلوا المناصب الكبرى فى البنك .

وارتفعت قيمة القروض الخارجية من ١٩٠ مليون عام ١٩٠٣ إلى بليون وسبعمائة مليون فى عام ١٩١١ مع نهاية عصر ميجى واستخدمت تلك القروض من اجل تغطية نفقات الحرب اليابانية - الروسية ، وكذلك فى إنفاقها على العديد من المشاريع العمرانية التى أقيمت فى كل من طوكيو ويوكوهاما وكيوطو

ويذكر الكثير من المؤرخين أن عين الساسة اليابانيون كانت مركزة على التجربة المصرية الفاشلة فى الاقتراض الخارجى أثناء حكم الخديوى إسماعيل ، وكيف كلفت هذه التجربة مصر الكثير ، وكانت النهاية المفجعة فقدانها استقلالها عام ١٨٨٢ . وكان الساسة اليابانيون يطنفون فى هدا مبدأ أمن به معظم رجالات ميجى وهو عدم الخجل من التعلم والاستفادة من تجارب الأخرين وهذا بالفعل ما قاموا به .

(٤) أحوال العمال تحت مظلة النهضة

رأينا فيما سبق ذكره كيف عانى المصريون عموما سواء كانوا فلاحين أو عمالا من تبعات خطوات ومشروعات النهضة الشاملة التى حققها محمد على . فقد عانوا من احتكار محمد على للصناعات ومن الضرائب الباهظة ومن تنصيب محمد على نفسه كالتاجر الوحيد لمزروعات الفلاحين وشرائها بثمن بخس ، وكذلك عانوا من السخرة فى المشروعات الكبرى مثل حفر ترعة المحمودية وموت الألاف تحت تراب الترعة وغيرها دون أدنى رعاية وكان محمد على فى سياسته هذه وسياسات أخرى جائرة ينفذ بحذق يحسده عليه ميكيافيللى نفسه - نظرية أو مبدأ الغاية تبرر الوسيلة - وللعجب أن نهضة ميجى والتى تعتبر بحق فجر وأساس العصر الحديث فى اليابان قد ظلمت أيضا العمال والفلاحين على السواء . وسوف نكتشف من خلال

السطور التالية أن قطاعات كبيرة من الشعب اليابانى عانت الأمــرين مــن النهضة اليابانية كما عانى أقرانهم فى مصر إبان عصر نهضة محمد على . وإنه للأسف فإن العمال والفلاحين بشكل خاص دون القطاعــات الأخــرى يصبحون كبش الفداء وضحايا النهضة ، وكى تجنى الأجيال التاليــة ثمــار جهدهم وعرقهم بل لدرجة التضحية بالنفس كما حدث تماما فى مصر .

وتباينت الصورة تماما فى اليابان . فالصور التــى توضــح مظــاهر النهضة والأخذ عن الغرب فى كتب التاريخ اليابانى توحى بالتقدم والرفاهية فها هى صورة قصر الركوميكان الفخيم الذى أقيم على مساحة كبيــرة فــى وسط طوكيو ، وفى داخله أقيمت حفلة خيرية تظهر بها نساء راقصات يتزين بأجمل الثياب الغربية والتى ليس لها أية علاقة بالأزيــاء اليابانيــة . وثمــة صورة أخرى لمبنى فى غاية الروعة أقيم أيضا على الطراز الغربى وقامت بإنشائه شركه ميتسوبيشى فى عام ١٨٩٤ وصورة أخرى لشــارع جينــزا (Ginza) وقد أضاءته مصابيح الغاز الرشيقة وتسير فى منتصفه عربات سكك حديدية تجرها خيول جميلة ، وفى العربات يجلس الناس من علية القوم بأزيائهم الأنيقة ، وعلى رؤوسهم القبعات الغربية . وغير ذلك مــن صــور الحداثة والتقدم الى شهدتها سنوات النهضة الأولى ، ثم ما لبثت مظاهر تلك الحداثة تزداد يوما بعد يوم حتى نهاية هذا العصر .

ولكن للأسف لم تكن تلك الصور التى ذكرناها توا هى فقط ما تمثــل عصر ميجى النهضوى ، فقد كانت هناك صور متناقضة تماما مــع صــور الحداثة والنهضة والرفاهية الجديدة فمثلا هذه صورة لعاملات مصانع الغزل والنسيج وصناعة الحرير وهن يعانين من أسوأ أنواع الظــروف المحيطــة بالعمل ، وكذلك صور عمال المناجم البائسين وكل العاملين فــى المصــانع

يعملون بجد وجهد شديدين يواصلون الليل بالنهار تحت ظروف غاية في الصعوبة والسوء لا يمكن لعمال اليابان هذه الأيام أن يتخيلوها ، بل ربما لا يستطيع تحملها ولا يصبر عليها عمال البلاد النامية والمتأخرة في عصرنا الحديث .

وكانت الصورة الأسوأ على الإطلاق موجودة في مصانع النسيج والحرير . حيث إن ما يثير الأسى والحزن أن من حوالى ٨٠ ـ ٩٠ % من عمال هذه المصانع كن من الفتيات الصغيرات . وكان أقل أجر وأطول وقت عمل من نصيب العاملات اللائى أتين من الريف . فقد كن يعملن فى اليوم الواحد مابين ١٢ ـ ١٦ ساعة . فكن فى أحوال كثيرة يواصلن العمل حتى منتصف الليل . وكانت ظروف معيشتهن أيضا فى غاية السوء والبؤس ، فكن يحشرن فى أكواخ ضيقه ملحقه بالمصنع تحت حراسة مشددة حتى لا يهربن من هذا الجحيم . وحتى فراشهن لم يكن صحيا ، وكانت سلطات المصانع تقتطع منهم نصف أجرهن اليومى من أجل إطعامهن بغذاء فقير فى القيمة وفى الكمية . ولم يكن من حقهن الاعتراض على هذا الغذاء أو رفضه .

أما المصانع التى كن يعملن بها فقد كانت أيضا فى غاية السوء ، ولم تراع بها أية شروط صحية ، فهى صاخبة مظلمة متربة . ولذلك كثيرا ما أصاب السل أولئك العاملات الصغيرات البائسات ، ولا يجدن أي علاج أو عناية من إدارة المصانع . وكل ما كان يفعله مسئولو المصانع هو أن يبعثوا بالمرضى إلى قراهن ، ويمكثن هناك بلا عودة . بل والأسوأ من ذلك أنهن كن يصبحن السبب فى إنتشار الأمراض المعدية فى قراهن . ولما تعددت حالات المرض وهروب الفتيات من المصانع بل ولجوؤهن للانتحار ، فقد

عالجت بعض الأعمال الإدارية هذه المآسي . وذاعت كذلك أغنية (عاملات المصانع) وهى أغنية صورت شعور فتيات المصانع بأنها أسوأ من أقفاص الطيور ومن السجون ، وأن المصانع نفسها ما هى إلا جهنم ومالكيها ما هم إلا الشياطين وتستمر الأغنية فى وصف مساوئ المصانع ومسئوليها بأسوأ الأوصاف ثم تتمنى العاملات لو مات حارس المصنع بالكوليرا ، وحينها سوف يتمنين لو كان لهن أجنحة يطرن بها إلى قراهم ويرتمين فى أحضان أبائهن وأمهاتهن .

هكذا كان حال الفتيات الصغيرات العاملات فى المصانع اليابانية فى أواخر القرن التاسع عشر وحتى نهاية العقد الثانى من القرن العشرين . ولم يكن وضع العمال من الرجال بأفضل بأية حال من الأحوال من وضع العاملات الصغيرات . فقد كانت أحوال العمل فى المصانع الثقيلة والمناجم يرثى لها . وكان على العمال بذل الجهد فى المصنع لأوقات طويلة . وكانت معاناة العمال فى مناجم الفحم والنحاس على الأخص قاسية . فكان عليهم ممارسة عملهم تحت درجة حرارة عالية وعلى أعماق سحيقة فى باطن الأرض لمدة تزيد عن أثنتى عشرة ساعة يوميا . وحتى الأجر الزهيد الذى كان يحصل عليه العامل كان يقتطع جزء منه لرؤساء العمل أو المشرفين على العمال . وحتى لو حاول العامل المسكين الفكاك من هذه الأوضاع المزرية ، فكان يقبض عليه ويعاقب أشد العقاب حتى يكون عبرة للآخرين من العمال . ولم يعان العمال من ظلم وطغيان البشر فقط بل كانت الكوارث أيضا لا تبخل عليهم بمصائبها وأهوالها . فتارة تحدث انهيارات فى المناجم وتارة تحدث الفيضانات التى تغرق العمال فى مناجمهم . هذا إلى جانب

حوادث إنفجارات الغاز التى كانت كثيرا ما تحدث ، وكان كثير من العمال يفقد حياته بسبب هذه الكوارث وغيرها .

وقد تجسدت أقسى مظاهر المعاناة وأشدها فى منجمي تاكا شيما (محافظه ناجاساكى) وميتاكى Mitake للفحم (محافظه فوكوأوكا) . فقد عانى العمال فى المنجمين من تفشى وباء الكوليرا الذى حصد أرواح كثير من الأبرياء . وعرف هذان المنجمان أيضا بكثرة تذمر العمال وهياجهم وكذلك اشتهرا بضمهما لعدد كثير من المساجين الذين كانوا يعملون بهما عقابا لهم . أما المنجم الأول فهو الأشهر على الإطلاق فى تاريخ معاناة العمال اليابانيين فى عهد النهضة الأول . وقد أدخلت فيه لأول مرة فى اليابان التكنولوجيا العربية الحديثة فى تشغيل المناجم . وانتقلت ملكيته لعدة شركات حتى تسلمته شركه ميتسوبيشى فى عام ١٨٨١ . وتتناول مصادر التاريخ اليابانى مأساة هذا المنجم بشئ كثير من الأسف والإندهاش ، فقد كان هذا المنجم يضم بين جنباته حوالى ثلاثة ألاف عامل وحدث أن بعضا من هؤلاء العمال تذمروا وحاولوا الهرب منه ، فتم القبض عليهم وحكم على بعض منهم بالإعدام دون أية محاكمة . بل كان هناك ماهو أبشع ، وذلك عندما تفشى وباء الكوليرا بين عمال المنجم فتم وضع العمال المصابين بالمرض على لوح كبير من الحديد الملتهب ، وقتل هؤلاء المساكين حرقا .

هكذا وصل وضع العمال فى المناجم والمصانع إلى وضع من الوحشية واللاأدمية ، ولا أدل على ذلك من إعتراف جوتو شوجيرو Goto-Shojiro (١٨٣٨ ــــ ١٨٩٧) أحد ساسة عصر ميجى ومدير مناجم الفحم بتاكاشيما بأنه لا يدفع للعمال أجور على الإطلاق لأنهم " ليسوا بشرا " .... ولا يجب أن ننظر إليهم كما ننظر إلى الأدميين ، ولأنهم حيوانات شأنهم شأن الوحوش

الضارية والطيور الجارحة يعرفون يومهم ولا يفكرون في غدهم ، فإذا حصلوا على أجورهم ... فروا الواحد تلو الآخر ، وأصاب الكساد مناجم تاكاشيما .

وإذا كان هذا التصريح من مجرد صاحب مصنع أو مدير منجم فربما استطعنا تفهم وجهه نظره فقط بمعطيات ذلك الزمان الذى كان العامل فيه مقهورا ومظلوما أما إذا عرفنا أن صاحب هذا التصريح أحد ساسة ومهندسى عصر ميجى وأنه أصبح فيما بعد وزيرا للمواصلات وكذلك وزيرا للزراعة والتجارة فأننا نستطيع إدراك أن ظلم العمال وقهرهم كان بمثابة سياسة دولة ولم تكن مجرد ابتزاز من أصحاب العمل . إذن فنحن نستطيع أن نقرر وبكل التأكيد أن نهضه ميجى على الرغم مما حققته لليابان من تقدم ، وأصبحت الأساس الذى بنيت عليه حضارة اليابان الحديثة إلا أن لها الكثير من المثالب . وخاصة نحو القطاعات الفقيرة من المجتمع اليابانى والتى تمثلت فى عمال المصانع وعمال مناجم التعدين والحرفيين وغيرهم من الطبقات المقهورة والمغلوبة على أمرها .

وبالطبع لم تكن مثل هذه الأوضاع المزرية لتستمر دون نقد أو حث على المستوى الخاص أو محاولة للإصلاح من جانب الحكومة على الرغم من تأخرها الشديد في علاج هذه الأوضاع المزرية . فعلى المستوى الخاص كانت أبرز الأبحاث التى فضحت أوضاع الطبقات الدنيا من المجتمع اليابانى الكتاب التقريرى الذى وضعة الصحفى يوكوياما جننوسوكى Yokoyama Gennosuke (١٨٧١ - ١٩١٥) بعنوان (مجتمع الطبقات الدنيا فى اليابان) وهو يتحدث عن الأوضاع المزرية التى كان تعانى منها الطبقات المقهورة من فقراء المدينة والحرفيين وعمال المصانع والأجراء الزراعيين

وقد قام الصحفى يوكوياما بنشر كتابه الوصفى والتقريرى هذا فى إبريل عن عام ١٨٩٩ .

ومما لا شك فيه أن هذا الكتاب التقريرى وغيره من الأبحاث وكذلك إضرابات العمال وهياجهم كان له الأثر فى أن تتحرك الحكومة اليابانية بسبب ذلك وكذلك لحماية أهدافها الرامية إلى " إثراء الأمة وبناء الجيش القوى " فحاولت التدخل لتحسين ظروف العمل وشروطه ، وقدمت لذلك مشروعا بقانون الصناعة عام ١٩٠٠ ، غير أن المشروع قوبل بالرفض من جانب أصحاب الأعمال ، فأرجأت الحكومة طرحه على المجلس النيابى حتى عام ١٩١١ وبعد ذلك قامت هيئة تابعة للحكومة بدراسة أحوال العمال وظروف حياتهم وأحوالهم الصحية وكذلك أخلاقهم العامة . وكانت نتيجة هذه الأبحاث تقرير شامل صدر فى عام ١٩٠٣ أطلق علية أسم " أحوال العمال ـــ " Shokkō-Jijō " وكان لهذا التقرير أثره الكبير على صدور " قانون المصانع " الذى صدر فى عام ١٩١١ولم ينفذ إلا فى عام ١٩١٦ أى بعد انتهاء عصر ميجى بخمس سنوات مطبقا لهذا القانون فقد تم تحديد وتنظيم ساعات العمل والعمل الليلى ونوعية العمل وذلك تبعا لسن العامل وجنسه إلا أن هذا القانون راعى جانب أصحاب الأعمال والشركات فحدد مهلة خمسة عشر عاما لتطبيقه ولكن وكما ذكرنا توا أنه تم تطبيق هذا القانون بعد خمس سنوات . كذلك كان هذا القانون لا يعطى العمال حق الراحة الأسبوعية وقد تم إلغاء قانون المصانع بعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية وإحلال قانون أخر للعمل وللعمال بدلا منه .

ولم يكن الحال فى الريف بأفضل كثيرا من أحوال العمال فى المدن . فقد ازدادت سطوة ملاك الأراضى وزادت أملاكهم من الأراضى . وزاد فقر

ومعاناة الفلاحين الذين لا يملكون أراضى ويستأجرون من الملاك الزراعيين وذلك للزيادة الكبيرة فى الإيجارات التى يستحوذ عليها الملاك . ولصعوبة الحياة فى الريف أضطر الكثير من الأسر إلى إرسال أبنائها دون الأسن البكرى أو الأبنة للعمل فى أماكن أخرى فى الريف أو فى المدن ، أو أن يضطر الفلاح لبيع نفسه (Jinshin Baibai) فى المدن والعمل فى مصانعها تحت ظروف، عمل سيئة للغاية .

وزاد من بؤس ومعاناة العمال والفلاحين وحتى الصيادين تفاقم مشكلة التلوث الناتجة عن المقذوفات والسوائل السامة المصروفة من المصانع والمناجم إلا أن اشهر حوادث التلوث فى عصر ميجى كانت بسبب منجم أشيو للنحاس (Ashio Kodoku Jiken) فمنذ حوالى عام ١٨٨٧ (٢٠ من ميجى) لوحظ أن براعم الأرز فى مزارع منطقه كيتا كانتو والتى تقع فى محافظتى ـ جونما وتوتشيجى بدأت تذبل وتجف ، وإن السمك فى نهر واترا سجاوا (Watarasegawa) الذى يتدفق عبر تلك المنطقه ـ أخذ يطفو على سطح النهر ميتا . واكتشف الأهالى فى تلك المنطقة أن السبب فى تلك الظواهر المؤذية هى المواد السامة والمقذوفات الزائدة عن حاجات منجم النحاس الكبير الذى تمتلكه شركه فورو كاوا ، حيث أن هذه الظواهر لم تظهر إلا بعد استخراج النحاس والمعادن من هذا المنجم ولم يجد الفلاحون والصيادون الذين تأثروا بهذا التلوث الذى نتج عن منجم اشيئو سوى التقدم بعدة طلبات لمسئولى المنجم لكى يقوموا بتحسين أوضاعه ولما لم يجدوا فائدة من مسئولى المنجم كونوا مجموعات كبيرة منهم ضمت الألاف وتوجهوا إلى طوكيو لتقديم عرائض بأسمائهم تطالب الحكومة بالوقف الشامل لأعمال المنجم وفى نفس الوقت نشط عضو البرلمان عن محافظه توشيجى النائب

تاناكا شوظو Tanaka Shōzō (١٨٤١- ١٩٣١) وبالفعل تناول هـذه المشكلة فى البرلمان بل وهاجم الحكومة بشدة ولما أعيته الحيل لم يجد إمامه سوى التقدم بشكوى مباشرة للإمبراطور ميجى فى ديسمبر من عـام ١٩٠١ وذلك عندما كان الإمبراطور يمر بعربته التى يجرها الخيل . وقد أثارت تلك المحاولة ضجيجا فى الشارع السياسى وقبل تلك المحاولة بشهور قليلة كـان تاناكا قد استقال من البرلمان احتجاجاً على عدم حل مشكله منجم أشيئو .

إلا أن كل هذه المحاولات وتلك الوسائل لم تفلح فى أن توقف دوامـة التلوث الذى أحدثها المنجم وبالطبع لم يتوقف المنجم عن الإنتاج . وسبب هذا الفشل أن هذا المنجم كان ينتج نحو ثلث إنتاج اليابان من النحاس ، وفى وقت كانت اليابان تستقبل الثورة الصناعية الثانية والتى كان عمادها الصـناعات الثقيلة . ولأن النحاس يعتبر من المعادن الهامة جدا للصناعات الثقيلة ، فقـد ضحت الحكومة بالمواطنين وصحتهم ولم يعـر لتوسـلاتهم وطلبـاتهم أي اهتمام . بل إنها قامت بالقبض على الكثير من زعماء الفلاحين الذين تحركوا من أجل حل مشكله المنجم وقامت باستعمال العنف مع المتظاهرين . وطبقت قانون الأمن البوليسى الصارم الذى صدر فى عام ١٩٠٠ .

والأكثر من ذلك أن الحكومة تمادت فى الانتقام من القرية التى كانـت بؤرة لحركة المعارضة لوجود منجم اشيئو . فما كان منها إلا أن جعلت مـن أراضى هذه القرية المتضررة مصرفا لمياه فيضان نهر واتارا سيجاوا . ثـم أجلت سكان القرية جميعا وهجرتهم إلى جزيرة هوكايدو . وهذا بالطبع كـان بمثابة عقاب رادع وشديد لأهالى هذه القرية .

(٥) الحركات العمالية والاشتراكية اليابانية :

حاولت حكومة ميجى الجديدة منذ عام ١٨٦٨ ، ثم بعد ذلك عندما تشكل أول مجلس وزراء بقيادة ايتو هيرو بومى فى عام ١٨٨٥ وما أعقبه من مجالس للوزراء حاولوا جميعا الإغراق فى الرأسمالية بغية أن تلحق اليابان بالغرب الرأسمالى بل وتتفوق عليه أيضاً كما كان العديد من الساسة يتمنى . وفى خضم الانجراف نحو الرأسمالية عانى وأحترق بنيرانها عمال المصانع والمناجم والفلاحون البسطاء ، وكانوا هم بالفعل الوقود الذى أشعل أتون الرأسمالية . إلا إنه مع زيادة حدة اشتعال الوقود انفجر هذا الأتون الرأسمالي وتمخض عن هذا الانفجار حركة عمالية واشتراكية قويتين .

مع ازدهار حركة التصنيع سواء من خلال ثورة التصنيع الأولى والثانية فقد زاد إلى حد كبير عدد المصانع وبالتالى زاد عدد العمال ، الذين زادت مشاكلهم وتفاقمت مع أصحاب العمل ، ثم ظهرت مآسى من نوعية منجم تاكاشيما للفحم . ووجدت أخبار العمال ومآسيهم طريقها إلى مجلة (اليابانيين) التى صدرت فى عام١٨٨٨ ، وقد اشتهرت هذه المجلة بانتقادها للانقياد الأعمى للسياسة اليابانية نحو المذهب الغربى وبالعكس حاولت أن تعمل على إنعاش القومية اليابانية . وبذلك استرعت أخبار ومآسى العمال في كل أنحاء اليابان انتباه الجميع، ولم تلبث أن أضحت مشكلة اجتماعية .

والجدير بالذكر هنا أن العمال لم يقفوا مكتوفى الأيدى ولم يستكينوا أمام قهر أصحاب العمل الذين كانوا يرهبون العمال بتعيين عدد كبير من رؤساء العمل من البلطجية (Yakuza) ورجال العصابات. فقام العمال فى مصانع النسيج في اوساكا وكوفو Kōfu ومحافظة جونما، وعمال المناجم فى معظم المناطق إلى جانب صانعى السفن والعمال فى المحاجر وغيرهم،

قاموا جميعا بإضرابات منذ العقد الأخير من القرن التاسع عشر .بل إن العمال فكروا فى جدية وأهمية تكوين تكتلات يتحركون من خلالها وذلك من اجل رفع مستواهم الإجتماعى والمعيشي .

فى هذه الأثناء عاد من الولايات المتحدة الأمريكية الداعية الاشتراكي تاكانوفوسا تارو Takanofusa Taro (١٨٦٩-١٩٠٤) ، وكان قد أسس هناك ما سمى " مؤتمر التضامن مع العمال " ثم اشترك مع الاشتراكى الشهير كاتاياما سن وغيره من الاشتراكيين فى تحويل مؤتمر التضامن مع العمال إلى مؤتمر أخر اسمه "المؤتمر التحضيرى لنقابات العمال " وذلك عام ١٨٩٧ ، وبذلك بدأ الاشتراكيون الدعوة بايجابية لتشكيل النقابات العالمية . ولم تلبث هذه الدعوة أن تلقت ردودا ايجابية من العديد من المصانع ، فظهرت أولا نقابة عمال مصانع الحديد ، ثم اشترك ما يزيد عن ألف عامل من مصانع السفن ومصانع المعدات الحربية فى تلبية نداء الحركة الاشتراكية .

وفى عام ١٨٩٨ حدث إضراب لعمال شركة سكك حديد اليابان لمعارضتهم لحالات الرفت التى حدثت فى هذه الشركة . وقد شجع النجاح الذى أحرزه العمال ضد شركة سكك حديد اليابان فى أن ينشئوا نقابة لهم أطلقوا عليها اسم جماعة إصلاح سكك حديد اليابان " . ثم لم يلبث أن مرت ثلاث سنوات بعد ذلك حتى تم عقد لقاء حاسم للعمال اليابانيين فى منطقة موكوجيما بطوكيو ، وذلك بتخطيط جيد من قبل المؤتمر التحضيرى لنقابة العمال .

وفى الريف استغرق كفاح الفلاحين مدة تزيد عن خمسة وعشرين عاما منذ أول ثورة لهم فى عام ١٨٦٨ بسبب الضرائب الباهظة وحتى ظهور أول

نقابة للأجراء الفلاحين فى عام ١٨٩٧. فى بداية الأمر ثار الفلاحون بسبب تحديد الحكومة للضرائب بنسبة ٣% من قيمة الأراضى ، وهذه النسبة بالطبع كبيرة جدا وظالمة للفلاح . وفى عام ١٨٧٦ تسلح الفلاحون فى محافظات ميجى وجيفو وايتشى Aichi و ساكاى بسلاح من رماح مصنوعة من نبات البامبو ، وهاجموا كل شيء عام أو تابع للدولة بدءا بمبانى المحافظات ومرورا بالمحاكم والمدارس وأقسام الشرطة وغيرها من المبانى العامة . وقد تم استخدام جيش الحكومة الحديث الذى كان قد تم إنشاؤه لتوه فى إخماد هذه الكوارث فى الأربع محافظات السابق ذكرها .

إلا أن استخدام الأسلحة الحديثة المتسلح بها جيش الحكومة أنذاك لم يجد نفعا أمام أسلحة الفلاحين البدائية من رماح البامبو وغيرها، ذلك لأن غضبة الفلاحين كانت عازمة . وبالفعل رضخت الحكومة لمطالب الفلاحين وخفضت الضرائب من ٣% إلى ٢,٥ % من قيمة الأراضى الزراعية . واعتبر هذا التخفيض على قلته نجاحا كبيرا للفلاح اليابانى .

وكما حدث فى نهضة محمد على وما ألقاه من تبعات وتضحيات كبيرة وعديدة على الفلاح المصرى ، مما أدت بهذا الفلاح المسكين أن يترك أرضه هاربا إلى الشام أو إلى الإسكندرية فقد كان للنهضة اليابانية فى عصر ميجى أيضا تبعات وظلم كبيران للفلاحين اليابانيين سواء كانوا صغار الملاك أو الأجراء من الفلاحين . إلا أننا نجد أن الفلاح اليابانى كان أكثر ايجابية وكفاحا ضد الظلم الحكومى من الفلاح المصرى الذى لم يجد سوى الهروب أمام قسوة الحاكم . وليس أدل على ايجابية الفلاح اليابانى فى مقاومة الظلم الضريبى وغيره من المظالم الحكومية من أن نعرف أن عدد الثورات

والهوجات التى قام بها الفلاحون اليابانيون فى جميع أنحاء البلاد منذ عام ١٨٦٨ حتى عام ١٨٨٥ قد وصل إلى ٨٩٢ ثورة وهوجة .

وهكذا ومن رحم الإضرابات العمالية والهوجات الفلاحية ولدت النقابات العمالية والفلاحية فى أواخر القرن التاسع عشر . ولم تكن هذه هى النتيجة الوحيدة لهذه التضحيات العمالية والفلاحية ، ولكن ولد من رحمها أيضا الحركة الاشتراكية اليابانية فقد تولد لدى المثقفين فى تلك الأثناء الاهتمام نحو الحركة الاشتراكية . ففى عام ١٨٩٨ انشأ كل من أبىإيسوأو Abei Isoo (١٨٦٥-١٩٤٩) وكاتاياما سن Katayam Sen (١٨٥٩-١٩٣٣) وكوطوكو شوسوى Kotoku Shusui (١٨٧١-١٩١١) ما أطلق عليه " جماعة بحث المذهب الاشتراكى " وفى بدايات هذه الجماعة أحرجت العديد من الأبحاث البسيطة ، ولكن بعد تغيير اسمها إلى جمعية المذهب الاشتراكى بدأ نشاطها المتعمق فى أحوال المجتمع يبرز بوضوح.

إلا أن هذا النشاط الإشتراكى لم يعجب بالطبع الحكومة اليابانية التى ترى فى الأفكار الاشتراكية معولاً كبيرا يمكن أن يهدم انجازات النهضة التى حققتها على مدار ثلاثين عاما مضت ، وكذلك يضعف أحلام الهيمنة اليابانية على دول الجوار وبناء الامبراطورية اليابانية العظمى حسبما كانت اليابان تسمى نفسها إبان عصر ميجى . ولذلك تحركت الحكومة بسرعة من أجل مواجهة مثل تلك الحركات والأفكار وأصدرت فى عام (١٩٠٠) قانونا يمكن تشبيهه بقوانين الطوارئ فى عصرنا الحالى ويطلق عليه قانون (قانون الأمن الشرطى) وطبقا لهذا القانون تم التعامل بقوة مع محاولات تشكيل التنظيمات السياسية والحركات العمالية والتكتلات وغيرها مما تعتبره السلطة خطرا على الدولة اليابانية .

ورغم صدور هذا القانون الصارم إلا أن مجموعة من السياسيين كان معظمهم من المفكرين الإشتراكيين كونوا فى عام ١٩٠١ الحزب الإشتراكى الديمقراطى كأول حزب اشتراكى فى اليابان . وفى مذكرة إعلان هذا الحزب جاءت مطالب المؤسسين بضرورة تملك الدولة للأراضى ورأس المال والإلغاء الشامل للاستعدادات الحربية وضرورة إجراء الأنتخابات العادية غير المشروطة ، وضمان الحرية للتكتلات العمالية ولكن الحزب وآمال أعضائه راحت كلها أدراج الرياح بسبب الأمر الحكومى الذى صدر بحل الحزب وفى نفس يوم تشكيله وذلك طبقا لقانون الأمن الشرطى الذى ذكرناه لتونا . وهنا نلاحظ أن الحكومة لم تمهل الاشتراكيين أية مهلة حتى لكى يشعرون بفرحة النجاح لتشكيل حزبهم الجديد ولكن تعاملت بحزم وبقسوة مع الحزب الوليد وفى الحقيقة كانت هذه سمة حكومة ميجى فى التعامل مع السياسيين المعارضين لسياستها . وهذه القسوة وذلك العنف فى التعامل مع المعارضين سوف يظهر جليا فى تعاملها مع المعارض الإشتراكى كوتوكو شوسوى فيما عرف فى تاريخ اليابان الحديث بقضية الخيانة العظمى (Taigyaku . jiken) وهى التى أتهم فيها كوتوكو بالتأثير على مدبرى محاولة إغتيال الامبراطور ميجى (١٩١٠) ، وحكم على كوتوكو فى هذه القضية بالإعدام فى عام ١٩١١ .

وعندما تولى الأمير سايئونجى كينموتشى Saionji - Kinmochi (١٨٤٩ ـــ ١٩٤٠) رئاسة مجلس الوزراء فى يناير ١٩٠٦ اتخذ سياسة لينة إلى حد ما سمحت لجماعة الإشتراكيين بتشكيل الحزب الإشتراكى اليابانى فى نفس العام وذلك بقيادة ساكاى طوشيهيكو Sakai Toshihiko (١٨٧٠ -١٩٣٣) وكان هذا الحزب هو أول حزب إشتراكى يتم الإعتراف

به رسميا فى اليابان . ولكن حدث آنذاك أن رفعت شركه كهربـاء طوكيـو أسعارها ، فتجمهر أعضاء الحزب الإشتراكى وأصطدموا بقـوات الأمـن ، وكذلك حدثت فى عام ١٩٠٧ إضرابات كبيرة فى مـنجم أشـيئو للنحـاس وترسانة ناجاساكى للسفن وغيرها من المصانع والمناجم . ولم تجد الحكومة سوى أن تحرك قوات الجيش لمواجهه تلك الإضرابات . هذا إلـى جانـب الصراع الداخلى الذى نشب بين أعضاء الحزب الإشتراكى ، كل هـذا أدى إلى أن تقوم الحكومة اليابانية بحل الحزب الاشتراكى فى العام نفسه .

وفى يونيو ١٩٠٨ وقعت حادثة العلم الأحمر . فقد كان عدد من أعضـاء الحزب الإشتراكى يجتمعون للأحتفال بخروج أحد أعضاء الحزب من السجن ، وبعد إنتهاء الحفل خرجوا إلى شوارع طوكيو وهم يغنون أغنية الثورة ورفع كل من عضوى الحزب الشهيرين أوسوجى ساكاى وأراهاتا كانسـون علمـا أحمر مكتوب علية عبارة " الشيوعية واللاحكومية " ، فقامت الشرطة بالقبض عليهما وعلى غيرهما من أعضاء الحزب . وكانت نتيجـة هـذه الحادثـة أن أحرجت بشدة السياسى والامير سايئونجى لإتخاذه سياسة مهادنة ولينـة تجـاه الحزب الإشتراكى وأعضائه ولم يجد سوى تقديم إستقالة وزارته فـى يوليـو ١٩٠٨ . وإلى جانب ذلك قامت الحكومة بتشديد سياسة القمع والعنـف نحـو أعضاء الحزب الأشتراكى ونحو الحركة الإشتراكية بشكل عام .

أما الضربة القاضية التى أدت إلى دخول الحركة الاشتراكية والحركة العمالية فى فترة ركود وبيات شتوى طويل نسبيا ، فقد كانت بسبب قضـية الخيانة العظمى والتى أتهم فيها عضو من أعضاء الحزب الأشتراكى بمحاولة أغتيال الامبراطور ميجى . وتعتبر قضية الخيانة الكبرى أو العظمـى مـن القضايا التى شغلت الرأى العام اليابانى ، بل والأوساط الأجنبية نظـرا لمـا

حاط بها من غموض ظل يلفها حتى نهاية الحرب العالمية الثانية . وذلك لأنها تتعلق بحياة ميجي وبالأحكام التى أعتبرت ظالمة فيما بعد وذلك فيما يتعلق ببعض المحكوم عليهم بالإعدام وأشهرهم المفكر الإشتراكى كوتوكو شوسوى .

وقد بدأت أحداث تلك القضية المثيرة بالقبض على مياشيتا تاكيتشى والذى كان يعمل فى مصنع أخشاب فى محافظة ناجانو ومعه عدد آخر من الناشطين الفوضويين المتطرفين وهم يخططون لأغتيال الأمبراطور ميجى وذلك فى ٢٥ مايو ١٩١٠، حيث كانوا يعدون متفجرات من أجل هذا الغرض . وكانوا فى مخططهم هذا يعتقدون أن الإمبراطور هو الأصل والسبب الرئيسى لكل مساوىء المجتمع اليابانى . وعليه قامت الحكومة بالقبض على عدد كبير جدا من هؤلاء الذين يؤمنون بالمذهب الإشتراكى ، ومن بينهم قدم ٢٦ شخصا لمحكمه غير علنية . ولأن جريمة إيذاء الإمبراطور أو أحد أفراد البلاط الامبراطورى أو حتى محاولة ذلك تعتبر جريمة كبرى ، وخيانة عظمى ، فقد تم التحقيق مع مياشيتا ومعاونيه بكل الشدة والقسوة . وبعد أقل من أسبوع من القبض على مياشيتا تم القبض كذلك على المفكر الإشتراكى كوتوكو شوسوى بتهمة التأثير على المتهمين وذلك لأنه كان دائم النداء من أجل الإلتحام المباشر والإضراب العام وتحقيق المذهب الإشتراكى بطريقة فجائية وسريعة وغير ذلك من الأفكار المتطرفة من وجهة نظر الحكومة اليابانية آنذاك .

وبعد أقل من شهر واحد من محاكمه قصيرة وغير علنية تم الحكم بالإعدام على ٢٤ منهما ، ثم خفف الحكم بعد ذلك على ١٢ من بينهم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة . ويبدو من قسوة الأحكام ومن سرعة الحكومة فى

تنفيذ أحكام الإعدام حيث تم بدء تنفيذ الأحكام بعد مرور ٦ أيام فقط من النطق بالحكم – أنها كانت تريد الإجهاز تماما على الاشتراكيين والفوضويين فى اليابان ، ولكن المؤسف أن الحكومة من اجل تحقيق هذا الهدف لم تراع العدالة وراح عدد من الأبرياء ضحايا لذلك ، وبالفعل فقد تلقت الحركة الاشتراكية والعمالية ضربة قاسية بسبب هذه القضية والأحكام القاسية التى نجمت عنها

ولنا تعليق على هذه القضية وهو التشابه الواضح فى تعامل حكومات عصر ميجى القاسى مع أعدائها السياسيين وتلك القسوة التى أبداها محمد على أيضا مع خصومه السياسيين سواء كانوا مماليك أو شيوخ الأزهر ، أو ما يمكن تسميته بمبدأ الغاية تبرر الوسيلة ، فإذا كان محمد على تجاهل كل المبادىء الأخلاقية فى تعامله مع أعدائه المماليك حين نفذ فيهم مذبحة القلعة فى عام ١٨١١ وقتل منهم ما يزيد على ٤٠٠ نفس . فانه بعد مرور مائة عام أقدمت الحكومة اليابانية أيضا على الحكم على أبرياء بالإعدام فقط من أجل الإجهاز على أعداء ومناهضى الحكومة .

والى جانب ذلك يتضح لنا من هذه القضية مدى السطوة والسلطان اللتين رسختهما حكومات عصر ميجى تحت مظلة دستور ميجى الذى يعطى للإمبراطور كل السلطات والذى استظلت بظله حكوماته ، وعلى الجانب الآخر نجد أن هذا الدستور كان يلزم المواطنين اليابانيين بالخضوع التام والإخلاص المتفانى من أجل الإمبراطور ، وأن يبذل قصارى جهده وعرقه من أجل البلاد . ولم تكن حقوق ومصالح المواطن العادى تشغل بال الحكومة إلا فى أضيق الحدود .

وعلى أكتاف المواطن اليابانى المسكين فى عصر ميجى ومــن جهــده وعرقه وكفاحه تم بناء مجد ميجى وأساس الحضارة اليابانيه الحديثــة التــى ينعم بها اليابانيون هذه الأيام . تماما كما كان الحال فى مصر فبعرق وجهد بل وبحياة المصريين فى عصر محمد على تم حفر العديد من الترع وإنشاء الكثير من مشاريع الرى التى تمتع بها المصريون بعد ذلك وحتى يومنا هذا وليست ترعة المحمودية التى تروى بمياهها محافظة الأسكندريه ببعيدة عــن الأنظار فهى شاخصة أمامنا تحكي لنا تضحيات المصريين وآلامهم .

وهكذا نستطيع أن نجزم وأن نؤكد بأن لكل نهضة تبعاتها وتضــحيات معاصريها من المواطنين المساكين مهما أختلف المكان وتباعــد الزمــان . وعن مجد عصر ميجى وما حققته اليابان من تطور سواء داخلى أو خارجى سيكون حديثنا فى الفصل القادم .

الفصل الثامن

مجد ميجى

داخل اليابان وخارجها

الفصل الثامن

مجد ميجى داخل اليابان وخارجها

تحدثنا من خلال الفصل الخامس - الباب الثانى - عن أهم مظاهر نهضة ميجى من ظهور عمارة جديدة فى المبانى وشكل جديد للشوارع وإنشاء خطوط السكك الحديدية وخطوط البرق والتليفون ، وكذلك ظهور عادات جديدة في الملبس والمأكل وغير ذلك مما عد من مظاهر الحضارة الحديثة التى تحاكى مدنية الغرب إلا أن هذه المظاهر على أهميتها قد لا تعتبر فى نظر اليابانيين بمثابة مجدا حققته نهضة ميجى ، وإنما المجد الحقيقى الذى يفتخر به اليابانيون هو : داخلى ويتمثل فى تطوير التعليم والاقتصاد وإعلان الدستور . وقد تحدثنا فيما سبق عن ثورة التعليم التى تعد أساس نهضة اليابان منذ عصر ميجى وحتى الآن ، وكذلك تحدثنا عن تطور الاقتصاد من خلال الثورتين الصناعيتين الأولى والثانية . وكذلك تحدثنا عن تطور الاقتصاد من خلال الثورتين الصناعيتين الأولى والثانية . ولذلك فسوف نتناول من خلال هذا الفصل الحديث عن إنشاء وإعلان الدستور اليابانى . وهناك المجد الخارجى ، وهذا يتبلور فى انتصار اليابان فى حربين ضد كل من الصين وروسيا فى خلال عشر سنوات . وكذلك أعتراف دول الغرب وخاصة إنجلترا بقوة وتأثير اليابان فى منطقه الشرق الأقصى ، وذلك بعد إنتصار اليابان فى حربها ضد الصين فى عام ١٨٩٤ ـــ ١٨٩٥ ، مما حدا بإنجلترا فى عام ١٩٠٢ لعقد تحالف مع اليابان القوية لوقف النفوذ الروسى فى المنطقة .

إن الشيء الذى يدعو للأسف بل للحزن فى الوقت ذاته أن مصر قبل أكثر من ستين عاما استطاعت أن تكون إمبراطورية كبرى كادت تسقط

الدولة العثمانية لولا تدخل الدول الأوربية ، وعقد مؤتمر لندن عـام ١٨٤٠ الذى نصت قراراته بأن تعود الجيوش المصرية من كل البلاد التى فتحتهـا لكى تتقوقع فى مصر وحتى عام ١٨٤٠ استطاعت سياسـة محمـد علـى الاستعمارية الطموحة فى أن تمد مظلة الحضارة الحديثة إلى البلاد المحيطة مثل سوريا والجزيرة العربية والسودان وغيرها . فى حين كانت اليابان فى نفس الفترة تبذل قصارى جهدها حتى لا يدخل إليها المد الحضارى الغربـى الذى تساوى عندها بالمد الاستعمارى الغربى أيضا . ومع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أنقلب الحال تماماً حيث أصبحت الدولة الغازية دولة تحتلها قوات دولة إستعمارية هى إنجلترا ، وأصبحت الدولة التى كانت تقاوم الإستعمار والعدوان هى نفسها دولة إمبريالية إستعمارية ، بل لقد مدت الدولة الإستعمارية الأولى فى العالم يدها لتعقد معاهدة مع اليابان كند وشريك قوى ، وذلك بعد أن شهدت اليابان تقدما ملموسا فى كل نواحى الحياة تقريبا ، واستطاعت كذلك الخروج منتصرة فى حربها ضد الصين فى نهاية القرن التاسع عشر كما أسلفنا . وهذا التحالف الذى عقدته اليابان مع إنجلتـرا فـى عام ١٩٠٢ سوف يكون عضدا لها وسندا فى حربها ضد روسيا فى عـامى ١٩٠٤ ـــ ١٩٠٥ وهذا ما سوف نتناوله فيما بعد .

وفيما يلى نتحدث عن مختلف نواحى المجد الذى حققته اليابان فـى عصـر ميجى ولماذا يفتخر اليابانيون بهذا المجد حتى يومنا هذا .

أولاً : المجد الداخلي

(١) حياة نيابيه سليمة ووزارة حديثة .

فى ٦ إبريل عام ١٨٨٢ حاول شـاب إغتيـال إيتاجـاكى تايسـوكى Itagaki -Taisuke (١٨٣٧ - ١٩١٩) بسلاح أبيض . وعلى الـرغم من غرق إيتاجاكى فى دمائه إلا أنه حدق فى قاتله قائلا " حتـى لـو مـات إيتاجاكى فلن تموت الحرية " وهذه العبارة أصبحت على كل لسان فى اليابان ، مما دعى اليابانيين لأن يطلقوا على ايتاجاكى لقب (إله الحرية) . وبالفعل تحقق على يد هذا الرجل وصحبه ، وكذلك بفضل تضحيات من آمنوا بدعوته من اجل تحقيق حياة نيابية سليمة ودستور تم إعلانه أخيرا فى عام ١٨٨٩ ، تحققت على أيديهم صورة لحياة سياسية مغايرة إلى حد كبير لما كانت عليه الحياة السياسية فيما قبل عهد ميجى ومغايرة أيضا لتلك الحياة السياسية التى كانت موجودة فى السنوات الأولى من هذا العصر ولكن هـذه الإنجـازات النيابية والدستورية تحققت بعد كفاح زاد عن ١٥ عاما .

وقصة الكفاح من أجل إنشاء برلمان ينتخبه الشعب (minsengiin) بدأت فى عام ١٨٧٤ (٧ من ميجى) عندما تقدم ايتاجاكى تاسوكى وجوطو شوجيرو goto shojiro (١٨٣٨ ــ ١٨٩٧) وصـنوجيما تـانى أومـي Soejima Tancomi (١٨٢٨ ــ ١٩٠٥) وإيتو شـينبى Ito Shinpei (١٨٣٤ ــ ١٨٧٤) وغيرهم بعريضة لحكومة ميجى مـن أجـل إنشـاء البرلمان واعتبرت هذه العريضة هي أول خطوة على المستوى غير الرسمي من أجل إنشاء مجلس للنواب ينتخبه المواطنين .ولكن الأهم من ذلك إن تلك الخطوة أدت إلى بزوغ حركة الحريات وحقوق المواطنين ، وهذا ما جعـل المؤرخين يقدرون تلك الخطوة التي قام بها إيتاجاكى وصحبه .

إلا إنه للإنصاف أن نذكر أن هذه الخطوة غير الرسميه قد سبقتها خطوة أخرى داخل الأوساط الحكومية عندما تقدم المجلس اليساري – وهو أحد الجهات الاستشارية التي تأسست مع قدوم حكومة ميجي – للحكومة بمذكرة بعنوان " قواعد البرلمان الوطني" وذلك في عام ١٨٧٢ (٥ من ميجى) أي قبل عامين من حركة إيتاجاكى وصحبه. وطبقاً لهذه المذكرة فإنه يقترح إنشاء مجلسين ، مجلس الشيوخ(join) ومجلس النواب (kain) على أن يتم تكوين مجلس النواب، من ممثلي الشعب من كل أنحاء البلاد .

وكانت ثمة حركة أخرى من أجل إنشاء البرلمان ظهرت في عام ١٨٧٣ ، وذلك عندما عاد أكوبوطوشيميتشى من رحلة في كل من أمريكا وأوربا بعد دراسة مختلف الأوضاع بهما .

وحينئذ قدم أوكوبو مذكرة يعرض فيها وجهة نظره من أجل تأسيس نظام سياسي دستوري في اليابان . إلا أن وجهه نظر أكوبو عابها أنها لا تستند على برلمان ينتخبه الشعب ولكن على منوال البرلمان الانجليزى. وهكذا نرى أن حركة إيتاجاكى وصحبه من أحل إنشاء البرلمان قد سبقها حركة رسمية من أجل إنشاء برلمان يجعل الشعب يشترك مع الإمبراطور فى تقرير مصائر البلاد .

إلا أن هذه الجهود كلها قد توقفت بسبب الجدل الذى نشأ بسبب فكرة إخضاع كوريا والتى كان يؤيدها الزعيم سايجو تاكاموري وإيتاجاكى تايسوكى وإيتوشينبى . ووقف ضد هذه الفكرة ايواكورا طومومي وأكوبو طوشيميتشى وكيدو تاكايوشى وغيرهم وعندما انهزم الحزب الأول استقال سايجو من مناصبه ورجع إلى ساتسوما ليبدأ مرحلة جديدة لمناهضة حكومة ميجى تنتهى بالحرب الشهيرة التى أطلق عليها حرب السينان seinan

senso فى عام ١٨٧٧ والذى انهزم فيها جيش سايجو أمام جيش الحكومة ، فلم يجد سايجو إلا أن ينتحر . كذلك عاد إيتوشينبى إلى مسقط رأسه في مدينة ساجا وقاد من هناك ثورة عارمة ضد الحكومة . وقد انتهز إيتو فرصة تذمر الشيزوكو -وهم المحاربون المتقاعدون على الحكومة وقام بثورته ضدها إلا أن جيش الحكومة اخضع ثوار ساجا ، وحكم على إيتو بالإعدام فى عام ١٨٧٤ .

كل هذه الظروف أدت إلى محاولة الحكومة تصفية المعارضة السياسية وتوقف لفترة مشروع أقامة حياة نيابية حديثة فى اليابان . ولكن لان المناضل الحقيقى لا ييأس فسرعان ما أسس إيتاجاكى فى عام ١٨٧٤ جمعية سياسية عرفت بأسم " جمعية المفكرين الأحرار "Risshisha" لتكوين أداة لتعميق المفاهيم الليبرالية ونشرها فى جميع أنحاء البلاد . وقد عاون إيتاجاكى من أجل إنشاء جمعية المفكرين الأحرار كلا من كاتا أوكا كنكيتشي kataoka kenkichi (١٨٤٣ – ١٩٠٣) وهاياشى يوظو hayashi yuzo (١٨٤٢ – ١٩٢١) . ثم تواصلت جهود هؤلاء الليبراليين ورفقائهم ، ونفذ عن تلك الجهود تجمع ممثلى الجمعيات التى تنادى بالحريات من كل أنحاء البلاد تجمعوا فى أوساكا فى عام ١٨٧٥ ، واستطاع هذا التجمع أن ينشأ فى نفس العام أول حزب سياسي فى اليابان أطلق عليه " جمعية الوطنين " ، ولكن سرعان ما تم حل هذا الحزب ، ثم أعيد تكوينه مرة أخرى فى عام ١٨٧٨ . ثم ولد من رحم هذا الحزب ما أطلق عليه "التحالف من أجل تنفيذ البرلمان" فى عام ١٨٨٠ (١٣ من ميجى) . وقد قام هذا التحالف بحركة نشطة فعاله من أجل المطالبة بإنشاء البرلمان . ثم تغير أسم هذا التحالف مرة أخرى ليصبح أسمه الحزب الحر فى عام ١٨٨١ . ومن الجدير بالذكر هنا أنه

بفضل جهود هذه الجمعيات والأحزاب الحرة اضطرت الحكومة تحت هذه الضغوط أن تعد في عام ١٨٨١ بالقيام بإنشاء البرلمان بعد عشر سنوات وكانت جهود السياسي الشهير إيتوهيروبوس في هذا المضمار واضحة. وبالفعل تقوم حكومة ميجي في فبراير من عام ١٨٨٢ بأرسال إيتو وعدد أخر من السياسيين إلى أوربا لدراسة مختلف النظم الدستورية هناك . وبالفعل قام إيتو وصحبه بدراسة الدساتير الإنجليزية والفرنسية والألمانية وكذلك دستور الولايات المتحدة الأمريكية إلا أن المثير للإعجاب حقا هو تتضافر جهود جميع اليابانيين علي المستويين الرسمي والشعبي من اجل تحقيق هدف ما يصبو إليه الشعب الدعوب فبينما كانت مجموعه العمل بقياده ايتو تواصل دراساتها لمختلف الدساتير الأوربية كانت هناك جهود أخرى يبذلها الجناح المنادى بالحريات والليبرالية ،وعليه ظهرت عدة خطط خاصة لعديد من هؤلاء المفكرين والساسة .

ولكن برز منها الخطة الدستورية التي أعدها عضو الحزب الحر اويكي اموري Ueki Emori (١٨٥٧-١٨٩٢) وهذه الخطة أو المسودة أطلق عليها اسم " مسوده دستور دولة اليابان العظمي الشرقية " ويلاحظ هنا إصرار اليابانيين حتي علي المستوي الشعبي أن يطلقوا علي بلادهم اسم " العظمي " علي أساس أنها لابد وأن تصبح عظمي في التقدم وفي التوسع الإمبريالي الذي سيحدث بالفعل في العقود التالية لميجى علي حساب البلاد المجاورة وسوف يتبلور هذا أكثر وأكثر في الفترة الأولي من عصر شوا (١٩٢٦- ١٩٤٥) . وهناك ملاحظه أخري يمكن أن نكتشف من خلالها مدي الحيوية والنشاط الذي كان عليه شعب اليابان إبان فترة ميجى تلك هي أنه علي الرغم من أن المفكر السياسي اويكي لم يعش أكثر من ٣٥ عاما ،إلا إنه

استطاع إصدار هذه المسودة الدستورية وكذلك أصدر عددا آخر من الكتب والدراسات اشهرها " نظريه حقوق وحريات المواطنين و "حماية الحقوق الطبيعية للإنسان " وغيرها . وهذه الحيوية وذلك النشاط يمكن ملاحظاتهما أيضا عند الحديث عن الحلقات الدراسية التي كان يشكلها عدد من المهتمين بشئون البلاد السياسية والاجتماعية .ولكن يجدر بنا هنا أن نلقي نظرة سريعة علي أهم الأفكار التي احتوتها مسوده اويكي الدستورية لندرك مدي الوعي السياسي الذي وصل إليه مفكري وسياسي الفترة المبكرة من عصر ميجي .

(١) الشعب يجب أن يكون مصدر السلطات .

(٢) الاعتراف بالحقوق الأساسية للمواطنين .

(٣) الاعتراف بحق المواطنين في الاعتراض علي السياسات الخاطئة للحكومة ، وحقهم أيضا في إسقاطها إذا لزم الأمر .

وبذلك يتضح لنا أن اويكي قد درس جيدا كل من الدستورين الفرنسي والأمريكي ، واستعار بوضوح هذين الدستورين اللذين يعتمدان في الأساس علي الشعب وسلطاته من احل أداره دفة حكم البلاد . ولكن لان عهد ميجي يعتبر في الأساس عهدا لاستعادة سلطات وسطوة الإمبراطور الغائبة منذ زمان طويل فقد تم الاستعانة بالدستور الألماني ليكون نموذجا لدستور ميجي أو لدستور دولة اليابان العظمي وهذا ما سيأتي الحديث عنه بالتفصيل فيما بعد .

وعلي النقيض تقريبا من مسودة اويكي جاءت مسوده دستور الساموراي المثقف تشيبا تاكو سابورو والذي يحدثنا عنه وعن مشروعه الدستوري الدكتور رءوف عباس في كتابه " المجتمع الياباني في عصر ميجي " ويذكر أن تشيبا الذي ولد لأسرة من صغار الساموراي ، واشترك

في إسقاط نظام طوكوجاوا ، ثم تنقل بين أرجاء البلاد ، حتي استقربه المطاف في محافظه سايتما ، وأعد دستورا شعبيا قدمت جماهير الإقليم مشروعه إلي الحكومة ، وكان يري ضرورة أن يقوم الدستور علي الأسس ألتاليه حتي يكتب له النجاح .

١- مراعاة العقلانية وقوانين الطبيعة (وهو ما عبرت عنه الكنفوشية بكلمه " الطريق Dori ")

٢- ملاءمته للاتجاهات السائدة في البلاد عند صدوره

٣- أن يكون مناسبا لواقع وأحوال وأوضاع الجماهير ، فلا يكون مجرد اقتباس للدساتير الغربية ، لان التراث الحضاري الياباني يختلف تماما عن التراث الحضاري الغربي

٤- لا يجب أن تظل نصوص الدستور ثابتة دون تغيير ، وإنما يراعي تغييره تبعا لما يطرأ علي البلاد والجماهير من تطور .

وهكذا من خلال استعراضنا لأهم بنود مسودتى كل من أويكى المفكر الشاب الليبرالى و تشيبا المفكر المحافظ التقليدى ، نستطيع أن نلمس مدى النشاط الفكرى والسياسى الذى كان عليه اليابانيون إبان الفترة الأولى من عهد ميجى . فالأول يتبنى فكرا ليبراليا حرا غربيا ، و الثانى و إن طعم فكره بالأفكار الليبرالية الغربية إلا إنه كان لا يزال متمسكا بالتراث اليابانى التقليدى . ولان مسودة تشيبا فى تمسكها بالتقاليد اليابانية وبالفكر الكنفوشى الذى يحترمه إلى حد كبير العقل اليابانى . و كذلك لأنه من خلال فقرته الثانية و التى يقول فيها أن الدستور يجب أن يكون ملائما للاتجاهات السائدة فى البلاد فهو من خلال ذلك يبدو أنه متعاطف و مؤيد لفكرة سيطرة

الإمبراطور من منطلق أنه سليل الالهة و لذلك فهو إله أو شبه إله إذا ذهبنا بعيدا ، أو بمثابة أنه كبير العائلة اليابانية أو أب لليابانيين إذا ما تخففنا في التفكير في الأمر . لتلك الأمور و الأسباب جاء الدستور الياباني الذى صدر في عام ١٨٨٩ قريبا بعض الشيء من مسودة تشيبا .

و لم يكن النشاط السياسي و الاجتماعي مقتصرا فقط على الجهود الفردية ، و إنما نشطت بشكل فعال العديد و العديد من الجمعيات السياسية والتي تكونت في جميع أنحاء البلاد و يتساوى في ذلك منطقه الكانتو أي المنطقة الشرقية و التي تضم طوكيو وما حوليها من مدن و أقاليم ، وكذلك منطقه الكنساي أي المنطقة الغربية التي تضم العاصمة الثانية في اليابان اوساكا و ما حولها من مدن و أقاليم . و يقال أن عدد هذه الجمعيات وصل إلى مائتي جمعية . و من أشهر هذه الجمعيات نجد (جمعيه الوطنيين) التي أنشأها كل من إيتاجاكي و كاتا اوكا و غيرهما و ذلك في مدينه كوتشي kochi التي تقع في جزيرة شيكوكو . و كذلك جمعيه الاستقلال (jijosha) التي كونها كومورو شينوبو komuro shinobu وصحبه في مدينه طوكو شيما كانت ذات نفوذ كبير . و كذلك نشطت جمعيه kyuyusher التي تأسست في مدينه أويتا "Ooita" بجزيرة كيوشو وجمعيه كيوريتسوشا kyoritsusha (البناء المشترك) في مدينه طوطوري tottori و غير ذلك من العديد من الجمعيات .

وكانت هذه الجمعيات تعقد سلسله من الندوات لمناقشة الحكم النيابي ، ووصل عددها في جميع أنحاء البلاد في ما بين يناير ١٨٨١ ويونيو ١٨٨٢ إلى ١٨١٧ ندوة ، ألقى فيها نحو ٧٦٧٥ خطابا سياسيا و هذا يعطينا دليلا واضحا عن مدى قوة و فاعليه النشاط السياسي للجمعيات السياسية التي

نشطت فى عقد السبعينات و الثمانينات من القرن الـ ١٩ والتى ذكرنا بعضا منها توا.

وهكذا ومع تضافر الجهود الفردية و الجمعيات السياسية مع حملة التوقيعات على العرائض التى تطالب بالدستور و بإقامة مجلس نيابى ، والتى بلغ عددها نحو ربع مليون توقيع . هذا إلى جانب رغبه رسميه فى إصدار الدستور و إنشاء البرلمان وذلك من اجل اقتفاء اثر الغرب فى هذا المضمار . أدت كل هذه العوامل و الأسباب مجتمعه إلى صدور بيان امبراطورى فى ١٢ أكتوبر ١٨٨١ يعلن فيه الإمبراطور انه "ينوى إقامة نظام نيابى تدريجيا يعود بالفائدة على الحكومة و الشعب ... وذلك فى السنة الثالثة و العشرين من حكمه (١٨٩٠م) " و حذر البيان جميع طبقات الشعب "أعلاها و أدناها " من التسرع ، و الدعوة إلى الطفرة فى التغيير ، لأن ذلك يؤدى إلى إشاعة الاضطرابات فى البلاد . و يجدر بنا هنا معرفه السبب الذى من أجله أصدر الإمبراطور تحذيره السابق ذكره . وذلك انه شاعت أنذاك نظريتان متنازعتان : الأولى :- تؤيد الإسراع فى إنشاء البرلمان (Sokuji kaisetsuron) أما الثانية :- فكانت تدعو بعدم الإسراع والتريث فى إنشاء البرلمان (Jiki shosoron) على أساس أن إعطاء حق الانتخاب فجأة لن يكون مفيدا ، ولكن يجب تهيئة الجماهير وإعدادهم و تدريبهم بصورة جيدة حتى يكونوا مؤهلين لهذا الأمر كذلك لان الظروف الاجتماعية والسياسية لا تناسب هذه الحرية السياسية و عليه يجب قبل المضى فى إنشاء البرلمان و إصدار الدستور تهيئه كل هذه الظروف للحياة النيابية السليمة ، و بالفعل انتصرت وجهة النظر الثانية و استغرق إصدار الدستور نحو عشر سنوات .

تأسيس النظام الوزارى الحديث :

وفى خضم تصاعد حركه الحريات و المناداة بإنشاء البرلمان وإصدار الدستور قامت حكومة ميجى بثورة فى النظم الحكومية فى ديسمبر ١٨٨٥، فألغت النظام الحكومى القديم الذى كان يطلق عليه دايجو كانسى (daijo kansei) و أسست على أنقاضه النظام الوزارى الحديث المتعارف عليه والمستمر حتى يومنا هذا و لم يستمر النظام القديم الذى سبق النظام الوزارى سوى خمسة عشر عاما حيث بدء العمل به فى عام ١٨٧١ و ألغى فى عام ١٨٨٥ . و كان هذا النظام يعتمد فى تشكيله على المضمون القديم لنبلاء البلاط و الأمراء و حكام الأقاليم . حيث كان على رأس الجهاز الحكومى أمير أو نبيل يأخذ لقب اللورد " kyo " ، وبإلغاء نظام الدايميو كان قد تم إلغاء هذا اللقب و حل محله لقب وزير دولة على رأس كل وزارة أما رئيس الوزراء فأطلق عليه لقب " صورى دايجن Sori daijin " و هى كلمه تعنى الوزير الذى تتوحد و تتجمع لديه كل سلطات الوزارات الأخرى . و قد هدفت حكومة ميجى من إنشاء النظام الجديد للوزارة إلى تقوية السلطات الحكومية من أجل مواكبة النشاط البرلمانى الذى كان مزمعا بدءه مع إعلان الدستور الذى وعدت به الحكومة بحلول عام ١٨٩٠ .

وفى النظام الجديد للوزارة روعى فصل وزارة البلاط الامبراطورى عن مجلس الوزراء و إعطاء وزارة الداخلية سلطه الأشراف على الأمور الخاصة بالبلاط الامبراطورى و استمراراً لاحتلال زعماء مقاطعتى ساتسوما وتشوشو للمناصب القيادية منذ السنوات الأولى من عهد ميجى فقد احتل هؤلاء الزعماء أيضاً المناصب القيادية فى النظام الوزارى الحديث . ويكفى أن نلقى نظرة على أعضاء أول وزارة فى تاريخ اليابان حتى ندرك مدى

قوة وسطوة زعماء سانتسوما وتشوشو . فنحن نجد أن من بين عشر أعضاء فى الوزارة أربعه من ساتوما وأربعة من تشوشو ووزير واحد فقط من طوسا أما الأخير فكان أحد أتباع الباكفو . وهو انوموتو تاكى اكى . Enomoto Takeaki

وليسمح القارىء أن أعود لأذكره أن السبب فى احتلال قادة المقاطعتين السابق ذكرهما لأغلب مقاعد الحكومة الجديدة هو أنهم قاموا بالدور الأكبر فى إسقاط الباكفو و استعادة الامبراطور لسلطته القديمة . وأصبح أول رئيس للوزراء فى اليابان ايتو هيرو يومى ، وقد قام بتشكيل الوزارة أربع مرات من بين أربعة عشر وزارة مشكله خلال عصر ميجى الذى امتد لأربعة و أربعين عاماً . و ثمة ملحوظة أخرى على الوزارات الأربع عشرة التى تشكلت حتى بدء عصر طايشو ، وهى أن خمس رؤساء للوزارة تولوا تشكيل الوزارة لأثنتى عشرة مرة من بين أربع عشرة مرة وكانوا جميعاً من ساتوما (محافظه كاجوشيما) وتشوشو (محافظه ياما جوتشى) ، أما الاثنان الأخران فهما سايئونجى كيمونشى (Saionji kinmochi) ١٨٤٩ – ١٩٤٠ وهو أحد أعضاء البلاط الامبراطورى ، أما الأخر فهو اوكوما شيجى نوبو okuma shige nobu (١٨٣٣– ١٩٢٢) و هو من مدينه ساجا الواقعة فى مقاطعه هيزين heizen .

دستور ميجى :

ذكرنا فيما سبق أن الحكومة اليابانية أخذت تعد العدة لإصدار الدستور وفقا للوعد الامبراطورى بإعلانه فى عام ١٨٩٠ . و بالفعل وفت الحكومة بوعدها و أعلنت الدستور رسمياً فى فبراير ١٩٨٩ أى قبل عام من انقضاء

المدة التى حددتها وهى عشر سنوات . وفى الحقيقة أن هناك سمه يتميز بها الشعب اليابانى منذ القدم و حتى يومنا هذا ألا و هى الإعداد الجيد لما هم مقدمون على إنشائه أو فعله . ولذلك نجدهم قاموا بدراسة جيدة و شاملة لمختلف النظم الدستورية فى العالم وكذلك قام العديد من الباحثين بعمل مسودات بدساتير يرجون أن تكون هى المطبقة بالفعل كما رأينا آنفاً من محاولات عديدة .

وعلى المستوى الرسمى نجد أن الإعداد لإعلان الدستور لم يقل حماسة عما كان عليه الحال فى المستوى الشعبى و الخاص . فنجد مثلاً : ايواكورا تومومى يقدم تقريراً إلى مجلس الشيوخ فى يوليو ١٨٨١ كى يصاغ الدستور اليابانى على نسق الدستور الألمانى و ليس الانجليزى نظراً لما يوفره الدستور الالمانى من ضمانات للطبقة الحاكمة . ثم أوفدت الحكومة اليابانية السياسى الشهير (ايتو هيرو بومى) على رأس بعثه لدراسة مختلف النظم الدستورية فى أوروبا . ولكن ايتو اقتنع فى نهاية الجولة بالنموذج الألماني وكان أحد أسباب اقتناعه بهذا هو إعجابه الشديد بالمستشار الألماني بسمارك . ولذلك نجد أن الحكومة اليابانية قد استعانت بخبرة مستشار ألمانى فى كتابة الدستور و هو الدكتور / كارل فريدريك روسلر Karl Friedich وكان حجة فى الدستور الألماني و الانجليزى أيضاً . ورغم ظهور مشكلات فى وجهات النظر حول كيفيه إعلان الدستور إلا أن اللجوء إلى الحلول الوسط مكن اليابانيين من إصدار الدستور بالفعل فى فبراير ١٨٨٩ .

وقد أطلق على دستور ميجى اسمان آخران هما " الدستور الامبراطورى " Kintei – kenbō وهذة التسمية تعنى أن الدستور صادر عن رغبة إمبراطورية بحتة و ليس عن رغبة و أرادة الشعب . و إن كان

هذا يتناقض بعض الشيء مع ما حدث من ضغوط شعبية من أجل إصـــدار هذا الدستور . أما التسمية الثالثة و الأخيرة فهى دستور إمبراطورية دولـــة اليابان العظمى (Dainippon Teikokukenpo)

جاء دستور ميجى من سبعة أبواب و ٧٦ مادة . و من خلال قـــراءة أول مادة فى الدستور و التى تقول " الامبراطوية اليابانية العظمى يحكمهـــا الامبراطور " و المادة الثالثة التى تنص على " يجب تقـــديس الامبراطـــور وعدم المساس به " يتضح لنا مدى السلطات الواسعة والتقديس الهائل الـــذى يتمتع به الامبراطور من خلال هذا الدستور الامبراطـــورى . ومـــن بـــين الصلاحيات و السلطات الأخرى التى تمتع بهـــا الامبراطـــور مـــن خـــلال الدستور :

(١) دعوة البرلمان للانعقاد و كذلك استطاعة حله.

(٢) أصدار أمر لاستدعاء البرلمان على عجل حتى فى خلال إجازته .

(٣) قيادة الامبراطور لكل من الجيشين البرى والبحرى .

(٤) حق تعيين القضاة و عزلهم من مناصبهم و لا رقيب على الإمبراطور فى سلطته تلك ، وكذلك إجراء كل المحاكمات باسم الإمبراطور .

(٥) منح الألقاب المدنية و الرتب العسكرية .

(٦) إعلان الحرب وإبرام الصلح ، وإعلان الأحكام العرفية .

وهكذا أعطى الدستور الإمبراطور سلطات واسعة لكى يســتطيع حكـــم اليابانيين حكماً مطلقاً . وكان كل شـــىء عـــام و رســـمى يجـــرى باســـم الإمبراطور . إلا أنه على الرغم من هذه السلطات المطلقة للامبراطور فلـــم

يكن يقوم بها بنفسه بل من خلال الهيئات و المؤسسات المساعدة ومن أهمها الاورليجاركية الحاكمة وهى تلك الطبقة التى عرفت باسم جنـرو " Genro" أى كبار المستشارين . وقد أدار هـؤلاء المستشـارين دفـة الحكـم باسـم الامبراطور . وهذا ما يفسر لنا سطوة الهيئات الرسمية أو الحكومية طـوال عصور ميجى وطايشو و النصف الأول من عصر شوا ، أى حتـى عـام ١٩٤٥ ، وذلك لان تلك الهيئات الرسمية و الحكومية كانت تستمد قوتها من قوة وسطوة الامبراطور و الذى كان يعتبره اليابانيون إلهاً و ليس بشراً .

ولان دستور ميجى أعد بطريقه تكاد تكون شبه سريه ، فقد أعلـن و لا أحد يعرف محتواه . و فى هذا المضمون يحكى لنا الطبيب الألماني ارويـن فون بالز Erwin von balz (١٨٤٩ – ١٩١٣) الذى عاش في اليابـان لأكثر من ربع قرن ، يحكى انا فى مذكراته عن مشاهداته و ملحوظاته ، عن اليوم الذى أعلن فيه دستور ميجى فيقول " إن كل أنحاء طوكيو لـتعج فـى صخب تعجز عن وصفه الكلمات و ذلك للإعداد لإعلان الدستور فى الحادى عشر (يقصد ١١ فبراير ١٨٨٩) ، ففى كل مكان أقيمت أقـواس التهنئـة والأضواء و أعدت المواكب . ولكن الشيء المضحك انه لا احد كان يعرف عن محتوى هذا الدستور شيئا " و يتضح لنا من هذا الكلام ان حكومه ميجى قد تجاهلت الأراء الشعبية تماماً و لم يشترك حتى زعماء الحركة الليبراليـة فى الأعداد للدستور . فقد تولى هذه المهمة عدد قليل من المسئولين و كـان على رأسهم ايتو هيرو بومى و هو الذى سافر فى بعثه امتدت لأكثر مـن عام إلى أوروبا من اجل دراسة النظم الدستورية الأوربية و أعجب بالأخص بالدستور الألماني لتشابه ظروف الحكم فى ألمانيا مع اليابان كما أسلفنا تـوآ واستعان ايتو بالعالم القانونى و الاقتصادى الألماني كارل فريدريك روسـلر

karl Friedrich Roesler (١٨٣٤ – ١٨٩٤) .وكان هذا العالم قد حضر إلى اليابان في عام ١٨٧٨ (١١ من ميجى) و عمل كمستشار في وزارة الخارجية اليابانية و لم تقتصر جهود هذا العالم على إعداد الدستور الياباني فقط بل قام بمجهودات بارزة فى إعداد النظم و القوانين الحكومية.

واعد كذلك مسودة للقانون التجارى اليابانى القديم . و عاون ايتو أيضاً كلا من ايتو ميوجي Itō Myōji (١٨٥٧ – ١٩٣٤) وكانكو كنتارو Kaneko(١٨٥٣ – ١٩٤٢) .

وقد أطلق على البرلمان اليابانى اسم" المجلس الامبراطورى " وهو ينقسم إلى مجلس النواب (Shūgiin) الذى يتشكل عن طريق انتخاب أعضائه من قبل المواطنين ، و مجلس النبلاء (Kizokuin) و هو الذى يضم أعضاء البلاط الامبراطورى و النبلاء . و هذا المجلس يتم تعيينه عن طريق الامبراطور . وقد هدفت الطبقة الحاكمة من إنشاء المجلس الثانى إلى تحديد و تقييد سلطات و صلاحيات مجلس النواب .

وقد أقيمت أول انتخابات عامة من أجل تشكيل البرلمان الامبراطورى فى يوليو ١٨٩٠ (٢٣ من ميجى) . إلا إنه وضعت قيود عديدة على المواطنين اليابانيين من أجل الإدلاء بأصواتهم ، و هى أن يزيد سن الناخب من الرجال على ٢٥ عاماً ، و لم تعط النساء حق الانتخاب إلا فى الانتخابات العامة التى أجريت فى عام ١٩٤٦ كذلك لابد و أن يكون الناخب ممن يدفعون أكثر من ١٥ يناً سنويا كضرائب ، وبذلك لا يستطيع من الفلاحين الانتخاب إلا من يملك أرضا يزيد ثمنها عن ٦٠٠ ين أو من البرجوازيين من سكان المدن الذين يزيد دخلهم عن ألف ين سنوياً . و يجب ملاحظه أن هذه المبالغ كانت تعتبر باهظة بمقاييس ذلك العصر حتى إنه لم يتمكن من بين

٤٠ مليون يابانى - هم تعداد اليابان آنذاك - إلا حوالى ٤٥٢ ألف مواطن فقط من الإدلاء بأصواتهم ، أى أكثر قليلاً من ١ % من التعداد الكلى للسكان و كانت نتيجة الانتخابات هى اختيار ٣٠٠ عضو منهم ١٠٩ من الشيزوكو (الساموراى المتقاعدين) و ١٩١ من المواطنين العاديين . و من الطريف أن من بين هؤلاء اختير عضو كان ما يزال محتفظا بضفيرة الشعر التى تعلو الرأس (تشون ماجى) . أما من حيث تصنيف الأعضاء حسب هويتهم الحزبية فقد فاز الحزب الدستورى الحر بـ١٣٠ مقعدا و حصل حزب الإصلاح الدستورى على ٤١ مقعدا ، و هكذا تفوز المعارضة اليابانية المتمثلة فى هذين الحزبين بـ ١٧١ مقعداً و هذا بالطبع عدد كبير يدل على نزاهة الانتخابات على الرغم من الضغوط التى مارستها الحكومة على المعارضين قبل إعلان الدستور أما الأحزاب التى تساند الحكومة أو ما يمكن تسميتها بالأحزاب الرسمية (Rīto) فقد فازت جماعه الإنجاز Taiseiikai بـ ٧٩ مقعداً وفاز حزب الأحرار الوطنيين بخمسة مقاعد فقط . و فاز المستقلين بـ ٤٥ مقعداً .

وبفوز المعارضة و أحزابها - و التى أطلق عليها الأحزاب الوطنية (Mintō) فقد عملت على نقل حلبة كفاحها إلى قاعه البرلمان ، و استمرت فى مهاجمة حكومة المقاطعات (Hanbatsu Seifu) المستبدة و التى يحتل معظم مناصبها وزراء من مقاطعتى تشوشو وساتوما كما ذكرنا آنفاً .

وتحت قيادة وزارة ياماجاتا أريتومو (١٨٣٨ - ١٩٢٢) تم انعقاد أول اجتماع نيابى للبرلمان الجديد وذلك فى ٢٥ نوفمبر من عام ١٩٩٠ . ومع أول جلسة للمجلس الامبراطورى أبدت المعارضة (Minto) مقاومة و بأساً شديدين أمام ما قدمته الحكومة من خطة للموازنة .فطالبت

المعارضة برفع مستوى المواطنين الأقتصادى والحياتى ، وتخفيض الإنفاق الحكومى ، وكذلك تخفيض الضرائب على الأراضى الزراعية ، إلى جانب تخفيض الإنفاق العسكرى . ولما كانت المعارضة تستحوذ على أكثر من نصف مقاعد المجلس فلم تجد الحكومة مناصا من الإذعان لمطالبها وقامت بالفعل بتخفيض الميزانية بنسبة ١٠% وهذا ما يعادل حوالى ثمانية ملايين ين وإذا كنا قد ذكرنا أن من يملك دخلا سنويا يزيد عن الف ين كان يعتبر من الميسورين وبالتالى كان يحق له الانتخاب ، فان مبلغ ٨ ملايين ين الذى أنقصته الحكومة من الميزانية يعتبر باهظا بالطبع . وكان هذا أول انتصار للمعارضة ضد الحكومة .

هكذا وبعد رحلة إعداد اقتربت من عشر سنوات انعقد أخيرا البرلمان الحديث فى اليابان ، وخلال هذه الفترة لم نهدأ المناوشات بين الحكومة والمعارضة . وفى رأينا أن هذه الفترة جعلت فكرة الديمقراطية والحياة النيابية تختمر إلى حد ما فى نفوس المعارضة على الأقل . واستطاعت الجهات الرسمية أن تدرس مختلف النظم الدستورية حتى توصلت إلى اتخاذ الدستور الألمانى نسقا يسير عليه الدستور اليابانى هو أفضل ما يناسب العقلية والتفكير اليابانيين. وفى هذا الصدد أود أن أسجل انطباعا شخصيا على اتخاذ القرارات سواء الرسمية أو الشخصية فى العقلية اليابانية فاليابانى يفكر جليا وطويلا قبل أن يتخذ قراراً يريد العمل به . وقد لاحظت أن اليابانى يفكر طويلا قبل الإجابة على سؤال ما ، وهو ما يخطئ فهمه الأجانب على إنه قلة ذكاء عند اليابانى ، ولكن هذا ليس صحيحا على الإطلاق، فاليابانى يفكر جيدا قبل أن يتكلم . وربما انطباعنا هذا ينطبق على طول فترة الإعداد للدستور اليابانى وافتتاح البرلمان .

ولعل فى الأنتخابات الثانية التى أجريت فى فبراير ١٨٩٢ أقوى دليـــل يدعم رأينا الذى ذكرناه توا من أن الإعداد الجيد والتفكير العميق فى كل شئ يأتى بنتيجة قوية . فقد ولدت المعارضة اليابانية قوية بعد مخـــاض طويـــل. ولذلك استمرت معارضتها قوية ولم تهن . ولما حاول رئيس الوزراء التالى لياماجاتا وهو ماتسو كاتا ماسيوشى ، وهو مهندس سياسة التقشف والأنكماش التى تحدثنا عنها فيما سبق ، عندما حاول إضعاف شوكة المعارضة ، قـــام بحل البرلمان ظنا منه انه سوف يستطيع الفوز بالأنتخابات التى احتكم لها .

ولكن الأنتخابات التى أجريت فى فبراير ١٨٩٢ اعتبرت أقوى انتخابات جرت فى اليابان . وألقت الحكومة بضغوط رهيبة على مرشحى الأحـــزاب الوطنية أو بالاحرى المعارضة . ولذلك حدثت العديد من الحوادث الدمويـــة فى كل أنحاء البلاد . ولقى ٢٥ شخصا مصـــرعهم وجـــرح حـــوالى ٣٨٠ شخصا. وعلى الرغم من ذلك استطاعت المعارضة إحراز الأغلبية بحصولها على ١٦٣ مقعدا ، وبذلك ظل موقف المعارضة فى البرلمان أفضل كثيرا من موقف الحكومة .

وظهر بعد هذه الأنتخابات بطريقة جلية ســـمة المســـئولين اليابـــانيين المشهورة فى تحمل المسئولية . فقد قدم مجلس وزراء ماتســـوكاتا اســـتقالته وذلك لهزيمته فى الانتخابات ، وكذلك تحملا للمسئولية عن تدخله السافر فى عملية الأنتخابات مما أدى إلى حدوث تلك الحوادث الدموية والتى أدت إلـــى وقوع الكثير من الضحايا بين موتى وجرحى .

ثانياً : مجد ميجى الخارجى

ونعنى هنا بالمجد الخارجى انتصار اليابان فى حربها ضد كل من الصين فى عام ١٨٩٥ وروسيا فى عام ١٩٠٥ ثم توسعها الأمبريالى على حساب جاراتها ، حتى كونت إمبراطورية عظمى بالفعل كما نادى بذلك دستور ميجى .

وفى الحقيقة أن هناك خطأ شائعا بين الباحثين فى التاريخ اليابانى ، وذلك أن الأفكار الأستعمارية اليابانية لم تنشأ فى اليابان إلا فى السنوات الأخيرة من عصر طوكو جاوا ، وأن هذه الأفكار تم تطبيقها بالفعل فى عصري ميجى وطايشوا والنصف الأول من عصر شوا حتى غدت اليابان إمبراطورية عظمى تحتل قواتها أراضى العديد من دول الجوار مثل الصين وتايوان وكوريا والفلبين وغيرها . إلا أن الواقع التاريخى يؤكد أن تلك الأفكار الاستعمارية والعدائية عند اليابانيين تمتد جذورها إلى ما قبل عصر طوكو جاوا وبالتحديد إبان فترة حكم القائد طويوتومى هيديوشى Toyotomi-hideyoshi(١٥٣٧_١٥٩٨) عندما قام بمحاولتين لغزو كوريا وهما ما يطلق عليهما غزوه بونروكو Bunrokunoeki (١٥٩٢) وغزوة كيتشو keichonoeki (١٥٩٧_١٥٩٨) وفى المحاولتين كانت أحلام هيديوشى الأستعمارية وضم كوريا هى السبب فى غزوها . وإن تحجج فى المرة الثانية بالخطاب المهين الذى أرسله إليه إمبراطور الصين فى عام ١٥٩٢ الذى أبلغه فيه أنه ، أى الأمبراطور الصينى سوف يقصر نشاط هيديوشى على حكم اليابان فقط . فما كان منه إلا تحدى هذه الإهانة وقام بغزوته الثانية لكوريا فى عامي ١٥٩٧ ، ١٥٩٨ وانتهت هذه الحملة بالفشل بسبب موت هيديوشى .

أول حملة عسكرية فى عصر ميجى

وفى عام ١٨٧١ حدث أن ضلت سفينة اوكيناوية طريقها إلى السواحل التايوانية ، فقام التيوانيون بقتل عدد من البحارة اليابانيين . وبعد مفاوضات فاشلة مع الصين ، قررت الحكومة اليابانية فى عام ١٨٧٤ غـزو تـايوان (seitai no eki) وأسست من أجل ذلـك إدارة خاصـة برئاسـة سـايجو توجوميتشى Saigo Tsugumichi (١٨٤٣-١٩٠٢) والذى أصبح فيمـا بعد وزيرا للبحرية ولكن بسبب معارضة كل من الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا ، وكذلك المعارضة من بعض المسئولين فى الحكومة اليابانية فقد تم وقف هذه الحملة مؤقتا . ولكن لإصرار سيجو على القيام بهذا الهجـوم تـم بالفعل أنفاذ هذه الحملة إلى تايوان ثم أجريت مفاوضات بين الحكومة اليابانية والصين ، انتهت إلى أن تدفع الصين تعويضا قيمته نصف مليون ريو صينى أى ما يعادل ٦٧٠٠٠٠ ين يابانى لان اليابان قامت بهذا الغزو من منطلـق واجبها نحو حماية رعاياها . وكان هذا الغزو اليابانى لتايوان هو أول خروج للجيش اليابانى خارج حدود بلاده فى العصر الحديث . وواضح من مجريات الأحداث فى هذا الغزو أن اليابان اتخذت حادثة مقتل عـدد مـن البحـارة اليابانيين ذريعة لغزو تايوان . وهنا يمكن أن نضع عدة أسباب غير ذريعـة مقتل البحارة على أيدى سكان جزيرة تايوان . أولا محاولة اليابـان علـى الرغم من وجود معارضة داخل الأوسـاط الحكوميـة لهـذا الغـزو _ أن تستعرض عضلاتها وتظهر مدى ما لديها من قوة حتى يخشـى الأخـرون بأسها . وثانيا أن اليابان قامت بهذا الغزو من منطلق مفاهيم قديمـة ترجـع لعهود سحيقة مفادها أن الأمبراطور اليابانى يجب أن يكون سيدا وحاكما لما حوله من البلاد وأن هذه البلاد يجب أن تدخل فى وحدة تحت راية اليابان .

وهذا المفهوم ظهر أول ما ظهر في كتاب قديم اسمه نيهونشوكى كتب عام ٧٢٠م وأطلق اليابانيون على هذا المفهوم اسم هاكو اينشي او Hakko Ichiu. ويمكن للقارئ أن يعود لكتابنا السابق " تاريخ اليابان الحديث والمعاصر –عصرى طايشو -شوا " ليعرف المزيد من التفاصيل عن هذا المفهوم ص١٨٠ .

على أن اليابانيين لم يقتصروا فى تطبيق هذا المفهوم العدوانى على محاوله غزو تايوان فقط ، بل إن هذا المفهوم سوف يطبق فى محاولات عديدة وسوف يعانى من جرائه جيران اليابان لفترة طويلة امتدت لنحو ٧٠عاما .

والغريب إننا نجد فى تاريخ ميجى ساسة ومفكرين عارضوا فى البداية أن توظف اليابان ذلك المفهوم من اجل الاعتداء على جيرانها ، فمثلا نجد هذه المعارضة عند السياسى الكبير ياماتاجا اريتومو عندما حذر فى بداية عصر ميجى من مغبة التورط فى مغامرات عسكرية ، ولكنه عاد ليضع بنفسه – فى منتصف الثمانينات استراتيجية التوسع الخارجى . وكذلك كان حال المفكر الشهير فوكو ذاوا يوكتشى ، فقد كانت نظرته نحو بلاد شرق اسيا فى مطلع عصر ميجى نظرة مثالية فرأى أن الأمم يجب أن تتعلم من تجارب بعضها البعض ، وان تصلى من اجل رفاهية بعضها البعض ، وان تتعاون مع بعضها البعض فى إطار قوانين الطبيعة الإنسانية . هكذا كان فوكوزاوا يؤمن بالتعايش السلمى والمحبة بين الشعوب . إلا انه غير من تلك الأفكار بدرجة كبيرة عندما اشتد عود نهضة ميجى وأخذ اليابانيون يحاولون محاكات الغرب فى تقدمهم العلمى والاستعمارى على السواء . فقد كانت معطيات ذلك الزمن تؤمن بأن الدولة مادامت متقدمة ماديا وعسكريا فهذا

يعطيها الحق فى احتلال واستعمار البلدان الأخرى سواء كانت قريبة منها أو بعيده عنها . فها هى انجلترا تحتل الهند منذ زمان بعيد ،وها هى فرنسا تحتل الجزائر منذ عام١٨٣٠ . بل أن بلدا عظيم المساحة عتيد الحضارة مثل الصين عندما وهنت وانهزمت أمام الدول الغربية إضطرت الى توقيع عدة معاهدات غير متكافئة على الإطلاق مع بريطانيا وفرنسا وغيرهما من الدول الغربية فى الفترة ما بين عامى ١٨٤٢ – ١٨٦٠ .

وبالطبع أدرك مفكر فى حجم فوكوزاوا مثل تلك التجارب المريرة التى مرت بها إن لم يكن كل بلاد الشرق فمعظمها . وعليه آمن بأن قانون الغاب هو الذى يحكم العلاقات الدولية . وإذا لم تصبح اليابان ذئبا فسوف تأكلها الذئاب . وصحيح انه كانت هناك أصوات داخل الحكومة ذاتها تظهر من وقت لأخر تنادى لتقييد مثل تلك الأفكار التوسعية والاستعمارية كما سنرى عند محاولة اليابان إخضاع كوريا والضغط عليها فى عام ١٨٧٦ . إلا انه سرعان ما كانت هذه الأصوات المسالمة تتوارى تحت ضغط الصقور الذين تكاثرت أعدادهم داخل وخارج الحكومة . وسوف تكون الكلمة العليا فى صنع القرارات المصيرية لليابان فى أيدى هؤلاء الصقور حتى نهاية الحرب العالمية الثانية أى نحو سبعين عاما كما ذكرنا توا .

نظرية إخضاع كوريا (Seikanron)

ذكرنا فيما سبق أن سياسة العزلة التى اتخذتها اليابان طوال عصر طوكوجاوا كانت ايجابية إلى حد كبير فى نتائجها لليابان . فقد حمت تلك السياسة اليابان من وقوعها فى براثن الأستعمار . وعلى هذا المنوال حاولت كوريا أن تكرر نفس التجربة ، وبالفعل حاولت تطبيق سياسة العزلة عن الدول الأجنبية سواء كانت غربية أو شرقية . فتساوت فى ذلك الدولة

المجاورة وهى اليابان مع الدولة الغربية وهى أمريكــا ، محدثــة صــداما عسكريا بين كوريا وكل من الدولتين بسبب سياسة العزلــة التــى حاولــت تطبيقها. إلا أن هذه السياسة جاءت متأخرة عن حركة التاريخ . فقد اضطرت اليابان التى مارست عزلة شديدة وطويلة إلى كسر هذه السياسة أمام الضغوط الغربية وذلك قبل بضع عشرات من السنين قبل أن تحاول كوريا تطبيقها .

وقد حاولت اليابان منذ بداية عصر ميجى أن تقيم علاقات دبلوماسية مع كوريا التى كانت قد ضربت عزلة على نفسها منذ نهاية عصر التوكوجــاوا فى اليابان ، ولكن كوريا دائما ما كانت تبدى الأستياء نحــو ثــلاث مــرات طالبت اليابان فيها إقامة العلاقات معها ورفضت بالفعــل هــذه المطالــب . ولذلك استقرت فكرة اخضاع كوريا بالقوة العسكرية فى اليابان بشكل يكــاد يشمل كل الأتجاهات . وفى داخل الحكومة اليابانية تبنى كــل مــن ســايجو تاكاموري و ايتاجاكي‌تايسوكى وجوطوشوجيرو وايتوشنبى واجيما تانو اومى فكرة إخضاع كوريا والغريب أن أربعا من الخمس شخصيات المذكورة هــم زعمى ومؤسسى جماعة الوطنيين اليمينية الليبرالية والتــى كانــت تــدعو لحصول المواطنين على حقوقهم وحرياتهم . وعلى الرغم من ذلك أرتضــوا أن يسلبوا الكوريين حقهم فى تقدير سياسة بلادهم .

على أى حال قرر مؤيدو فكرة إخضاع كوريــا فــى أغســطس ١٨٧٣ إرسال سايجوتاكاموري على رأس بعثة للتفاوض مع الكوريين ومطــالبتهم بإقامة العلاقات مع اليابان ، وإذا تم رفض هذا الطلب فأن اليابــان ســوف ترسل قوات عسكرية لمحاولة إرغام كوريا على هذا الأمر .

والذى زاد من إمكانية تنفيذ هذه الفكرة هى محاولات الحكومة إرضــاء طبقة الشيزوكو (الساموراى المتقاعدين) والذين كانوا يكنون روحــا مــن

الاستياء نحو الحكومة ، حيث كان هؤلاء الشيزوكو يطالبون باتخاذ موقف ايجابي ضد كوريا ووجدت الحكومة فى الموافقة على فكرة سايجو وصحبه فرصة لإرضاء هؤلاء المحاربين وكذلك توجيه عنفوانهم إلى خارج اليابان ، أى إلى كوريا .

إلا أن كل تلك النوايا والقرارات أوقف تنفيذها بسبب عودة ايواكورا طومومى وصحبه من رحلتهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا ، وذلك فى سبتمبر ١٨٧٣ أى بعد شهر واحد فقط من قرار سايجو ورفاقه ، وكان مساعدو ايواكورا وعلى الأخص اوكوبو طوشيمنتشى وكيدو تاكايوشى قد تأثروا بدرجة كبيرة لمدى التقدم والتطور الذين حققهما الغرب ، وأن اليابان يجب عليها قبل أى شيء تثبيت دعائم سياستها الداخلية أولاً . وعليه رفضوا بشدة نظرية إخضاع كوريا وبالفعل تم فى شهر أكتوبر ١٨٧٣ إلغاء تلك الخطة فغضبت مجموعه سايجو لذلك اشد الغضب ، واستقالوا جميعا من مناصبهم السياسية وعادوا إلى مواطن رؤوسهم ، وتلك الحادثة هى ما تعرف فى التاريخ اليابانى الحديث باسم (التغيير السياسى للعام السادس من ميجى Meijirokunen No Seihen)

وبعد ذلك ازدادت مشكلة كوريا تعقيدا وظلت الحكومة اليابانية تتحين الفرص من اجل فتح أبواب كوريا أمامها وبالفعل فى عمل يمكن أن يوصف بإنه استعراض للقوة أرسلت اليابان سفينة حربية فى أغسطس ١٨٧٥ إلى السواحل الكورية واقتحمت بالفعل خليج كانجهوا Kanghua بحجة إجراء مسح بحرى وطبقا للمصادر اليابانية انه عندما حاولت قوارب صغيرة تابعة للبارجة الحربية اليابانية الاقتراب من الجزيرة الكورية كانجهوا القريبة من العاصمة الكورية لطلب المياه والمؤن فما كان من طابية الجزيرة إلا أن

أطلقت النيران على هذه القوارب اليابانية مما جعل السفينة الحربية اليابانيــة ترد على هذه النيران بالمثل فحطمت الطابية الكورية ثم تم إنــزال الجنــود اليابانيين على ارض الجزيرة القريبة من مسرح العمليات وقــاموا بــاحتلال قلعة الجزيرة .

ولم تفوت الحكومه اليابانية هذه الفرصة واتخذت من هذه الحادثة ذريعة لكى تضغط على كوريا لإرغامها على إقامة علاقات دبلوماســية وتجاريــة معها تحت تأثير التهديد باستخدام الردع العسكرى وبالفعل تم توقيع معاهــدة غير متكافئة على الإطلاق لصالح اليابان على حساب كوريا فى ٢٦ فبراير ١٨٧٦ ، وأطلق على تلك المعاهدة اسم (قواعد الصداقة اليابانية الكورية) وهنا أحب أن أوجه سؤالا إلى القارىء الكريم ألم يجر أمام عينيك مثل هــذا المشهد فى كتابنا هذا أو أى كتاب يتحدث عن تاريخ اليابان وخاصـــة عــن الفترة الأخيرة من عصر الطوكوجاوا اعتقد إننا جميعا استرجعنا سويا ذلــك المشهد التاريخى الذى حدث فى يوم ٣ يونيو من عام ١٨٥٣ عندما جــاءت سفن بيرى إلى السواحل اليابانية تهدد اليابانيين بعواقب الأمور إذا لم تفــتح أبوابها أمام العلاقات مع أمريكا وتم بالفعل إبرام معاهدات ظالمة لليابان مع الولايات المتحدة الأمريكية وبعد ذلك مع العديد من الدول الأوربية . أما فى هذه المرة فإن اليابان تقوم بدور بيرى فى ظلم كوريا ولتشابه الحدثين إلــى درجة التطابق فان وزير خارجية اليابان آنــذاك تراجيمــا مــونى نــورى (١٨٣٢ - ١٨٩٣) والذى كان مسئولا عن إبرام معاهدة الصداقة اليابانية الكورية أرسل إلى الوزير المفوض الأمريكي بينجهام يطلب منه إمداده بمــا لدى المفوضية الأمريكية من التقارير التى كان يرسلها الكومودور بيرى إلى

الحكومة الأمريكية شارحا له بان ما تقوم به اليابان نحو كوريا هو نفس ما قام به بيرى عندما جاء الى شيمودا .

وعندما نطلع على بعض بنود قواعد الصداقة اليابانية الكورية سوف تدرك كيف أن اليابان كررت الظلم الذى وقع عليها بل ويفوقه من الدول الغربية على جارتها كوريا وان كان هذا الظلم اليابانى سوف يتطور فيما بعد ليصبح عدوانا وحشيا على جاراتها ، وذلك ما لم تستطع تلك الدول نسيانه حتى يومنا هذا وحتى بعد مرور عشرات السنوات ربما لفظاعة هذا الظلم على أية حال فلنلق نظره على بعض بنود تلك المعاهدة التى أبرمت فى فبراير عام ١٨٧٦ .

(١) على كوريا فتح موانئ بوسان ونتسان واينتشون أمام التجارة الحرة لليابان .

(٢) تتمتع اليابان فقط بحق القضاء الخارجى (وجود قضاء يابانى فى كوريا خاص لليابانيين) .

(٣) عدم تمتع كوريا بحق الاستقلال الجمركى ، وكذلك لا تستطيع كوريا لفترة طويلة فرض ضرائب على الواردات والصادرات الخاصة باليابان.

وهكذا قامت اليابان بدور البطولة فى إنهاء العزلة الكورية الطويلة وبدأت عقد سلسلة المعاهدات غير المتكافئة مع كوريا ثم تبعتها فى ذلك الدول الغربية مثل أمريكا وانجلترا والمانيا وايطاليا التى عقدت معاهدات مماثلة مع كوريا .

إلا أن أكثر ما يهمنا فى المسالة الكورية أن تدخل اليابان فى الأمور الكورية أدى رويدا رويدا إلى انحلال الرابطة التى كانت بين كوريا والصين

منذ زمن طويل تلك الرابطة التى كانت تجعل من كوريا بلدا تابعا للصـين ، ثم بدأ اليابانيون والصينيون يتنافسون على أخذ أفضـل الصـلاحيات فـى كوريا ، مما تسبب فى إيذاء الكوريين وتذمرهم نحو كلا البلدين المتنافسين .

وقد أدى الصراع بين الصين واليابان فى كوريا إلى ازديـاد التـدخل العسكرى للبلدين فيها وقامت ثورة فى عام ١٨٨٢ احتجاجا علـى الأسـرة المالكة الكورية وعلى الوجود اليابانى فى كوريا ، ثم تطورت لتحتج علـى الأجانب بمختلف جنسياتهم وكان للصين اليد العليا فى إخماد الثورة قبـل أن تأتى القوة العسكرية التى أرسلتها اليابان لنفس الغرض .

وبعد ثورة ١٨٨٢ فى كوريا تواترت الأحداث بين الهـدوء والثـورة وتارة أخرى تستقر الأمور ويمارس التجار الصينيون واليابانيون نشاطهم فى كوريا وكان هذا النشاط يسبب معاناة للشعب الكورى نظرا لاحتكار هـؤلاء التجار الأجانب التجارة فى مختلف أنواع السلع فيـؤدى ذلـك إلـى تـذمر المواطنين الكوريين وذلك لانتشار الفقر بينهم ومع ازدياد سـخط الجمـاهير الكورية ازدادت شعبية جمعية (طوجاكو طو أى Togaku Toai جمعيـة التعاليم الشرقية) التى كانت معروفة بعدائها للأجانب بصفة عامة ولليابانيين بصفة خاصة ، وفى عام ١٨٩٤ نظمت هذه الجمعية انتفاضات شعبية فـى المناطق الجنوبية من البلاد ساهم فيها الفلاحون المعـدمون لينتقمـوا مـن موظفى الدولة الذين لاحقوهم بالضرائب الفادحة ، ولم تجد الحكومة الكورية الضعيفة سوى طلب العون من الصين ، أما الصين فلم تأل جهدا من اجـل تلبيه نداء الحكومة الكورية وبعثت على الفور قواتها الى كوريا وهـذا مـا سوف يصبح السبب الرئيسى فى اندلاع الحرب اليابانيـة الصـينية عـامى ١٨٩٤ – ١٨٩٥ .

الحرب اليابانية الصينية (١٨٩٤ - ١٨٩٥)

كانت الحرب اليابانية الصينية هى الحلقة الثالثة فى تاريخ الصراع اليابانى الصينى فى العصر الحديث أو بالأحرى بعد بزوغ نهضة ميجى فى عام ١٨٦٨ فقد كان الصراع الأول عندما قامت اليابان بإرسال قواتها إلى تايوان فى عام ١٨٧٤ ، واستطاعت فى نهاية هذه الحملة الحصول على تعويضات كبيرة من الصين كما أسلفنا القول ثم كان الصراع من أجل انتزاع أى حق للصين فى جزيرة ريوكيو (اوكيناوا) فقد كانت ريوكيو Ryūkyū منذ مطلع القرن السابع عشر تتبع من الناحية الفعلية لمقاطعة ساتسوما اليابانية ومن الناحية الاسمية فقط كانت تابعه للصين وحتى تنتفي أية تبعية لريوكيو للصين فإن حكومة ميجى قررت رسميا إطلاق اسم مقاطعه ريوكيو ، وأن تجعل من حاكم ريوكيو ضمن النبلاء اليابانيين وذلك فى عام ١٨٧٢ ثم فى عام ١٨٧٩ أرسلت حكومة ميجى قوات عسكرية إلى ريوكيو وحولت اسم (مقاطعه ريوكيو) لتصبح محافظة اوكيناوا . لكن الصين احتجت بشدة على هذا الإجراء لأنها كانت من رأيها تمتلك حق السيادة على اوكيناوا .

وحاول الرئيس الأمريكى انذاك جرانت التدخل بين الدولتين ، وصرح بخطة للتوسط تنتزع على إثرها ثلاث جزر تدخل ضمن حيز جزيرة اوكيناوا لصالح الصين ، إلا أن الصين رفضت هذه الخطة أيضا ، وعليه استمر النزاع بين البلدين حول جزيرة اوكيناوا حتى تم حل هذه المشكلة تماما لصالح اليابان بعد انتصارها الكبير فى حربها ضد الصين فى عام ١٨٩٥ والتى سوف يأتى الحديث عنها تفصيلا فيما بعد .

ثم كانت الحلقة الثالثة من هذا الصراع بسبب كوريا والتى انتهت باندلاع الحرب بين البلدين فيما بين عامى ١٨٩٤ و ١٨٩٥ على أثر إرسال

الصين لقواتها إلى كوريا والغريب أن كل هذه السلسلة من الصراعات حدثت على الرغم من أن البلدين كانا قد وقعا على معاهدة يطلق عليها (قواعد الصداقة اليابانية - الصينية Nisshin shuk ojoki) وذلك في عام ١٨٧١ وهى تنص على التبادل الدبلوماسي والتجارى بطريقة متساوية بين البلدين إلا أن هذه المعاهدة ألغيت باندلاع الحرب بين البلدين فى عام ١٨٩٤

نعود مرة أخرى إلى السبب الرئيسي والمباشر الذى اندلعت الحرب اليابانية الصينية من أجله ، ذلك أن الصين عندما تلقت طلب الحكومة الكورية من اجل التدخل بقواتها لإخضاع الثوار ، سارعت الصين إلى تلبية طلب الحكومة الكورية وتذرعت الصين فى ذلك أنها تطبق معاهدة تيان تشن (تنشين حسب المصادر اليابانية) التى وقعت بين اليابان والصين فى عام ١٨٨٤ وهى تنص على انسحاب قوات الدولتين من كوريا على انه يمكن إرسال قوات أحد البلدين عند ظهور الحاجة إلى ذلك بعد أن تعلم البلدان كلاهما الاخر بالأمر .

وعندما وصل إلى أسماع الحكومة اليابانية خبر إرسال الصين لقواتها إلى كوريا لإخماد الفوضى والثورة هناك ، اضطربت لذلك اشد الاضطراب ، وعملت على إلهاب حماس المواطنين ، وتوجيه أنظارهم واهتماماتهم نحو الأوضاع فى كوريا .

وبالطبع لم تكن اليابان لتسكت عما يحدث فى كوريا فان استحواذ الصين على مقاليد الأمور فى كوريا سوف يكون له أسوأ الأثر على أحلام اليابان فى مد نفوذها السياسي والاقتصادى نحو القارة الاسيوية حيث تعتبر اليابان كوريا بمثابة المعبر والجسر نحوها وهى أيضا تعتبر كوريا بمثابة العمق الدفاعي والأمنى لليابان إلا أن رئيس الوزراء ايتو هيروبومى حينما

أعلن عن إرسال القوات العسكرية اليابانية لكوريـا ارجـع ذلـك لحمايـة المستوطنين اليابانيين فى كوريا وحماية المصالح الاقتصادية اليابانية هناك .

وفى يونيو ١٨٩٤ تلاحقت الأحداث سريعا ، ففى بدايته قررت اليابـان إرسال قواتها إلى كوريا وفى منتصفه عرضت اليابان على الصين أن يقـوم الطرفان بإخضاع جماعة التعاليم الشرقية وتسيير دفة سياسة كوريا الداخلية عن طريق الإدارة المشتركة بين البلدين ولكن الصين رفضت هذا العـرض فى يوم ٢٢ يونيو وفى اليوم التالى أعلمت اليابان الصـين أن قواتهـا لـن تنسحب من كوريا إذا لم يتحقق الإصلاح الداخلى فى كوريا ثـم لـم تلبـث اليابان بالفعل أن تقدمت بخطة للإصلاح للحكومة الكورية فى العاشـر مـن يوليو ، ثم كانت الخطوة الهامة عندما استطاعت اليابان تعديل معاهداتها مع انجلترا لصالحها ، وعليه استطاعت التحرك بحرية فى المنطقة .

وفى ٢٥ من يوليو ١٨٩٤ قامت القـوات اليابانيـة بـالهجوم علـى الأسطول الصينى الراسى فى خليج هوجو الكورى دون إعلان الحرب وهذا المسلك للأسف سوف يكون طبيعة القرارات الحربية اليابانية حتـى نهايـة الحرب العالمية الثانية فهى دائما ما كانت تهاجم الدول المعاديـة ثـم تعلـن الحرب بعد ذلك والقانون الدولى يفرض إعلان الحرب أولاً ثم الدخول فـى العمليات الحربية إذا لزم الأمر وليس العكس ثم أخيراً أعلنت اليابان الحرب على الصين فى الأول من أغسطس ١٨٩٤ وفى الأيام الأوائل من الهجـوم استطاعت القوات اليابانية احتلال الأجزاء الجنوبية من العاصـمة الكوريـة وكان هذا الهجوم اليابانى هو الشرارة الأولى فى الحرب اليابانية – الصينية.

ولأن تسليح الجيش الصينى كان فى معظمه لا يزيد عن بنادق صغيرة يمكن أن تتسلح بها العصابات المسلحة فلم يستطع الصـمود أمـام الجـيش

الياباني الذى عملت حكومة ميجى منذ فترة طويلة على تحديثه وتسليحه بأحدث الأسلحة ، ولذلك سرعان ما سقطت العاصمة القديمة لكوريا بيونج يانج فى ١٦ سبتمبر .

وأثناء المعارك الحربية أجبرت اليابان الحكومة الكورية على التعاون معها فى تحركاتها العسكرية وإمدادها بالمؤن والمياه ، وذلك بعد أن أقنعتها بضرورة إجراء إصلاحات فى السياسة الداخلية لكوريا بمعاونة اليابان ولذلك سرعان ما تم تحطيم الأسطول الصينى الذى كانت تتفاخر به ، وكذلك تم طرد الجيوش الصينية تماما من الأراضى الكورية بل واختراق الأراضى الصينية ذاتها واحتلال شبه جزيرة لياوتونج وبورت أرثر وعندما تحققت هذه الانتصارات لليابانيين جعلت روح القتال عند جنودهم تصل إلى عنان السماء ، وبالتالى تقدمت الجيوش اليابانية نحو أماكن ومدن عديدة أخرى ولكن كانت الضربة الكبرى للجيش اليابانى هى عندما استطاع تحطيم الأسطول الصينى فى ميناء واى – هاى – واى الواقع فى شانتونج ، ثم تقدم اليابانيون نحو تايوان وتم احتلالها فى بداية عام ١٨٩٥ ، ثم بدأت بعد ذلك الجيوش اليابانية تزحف نحو العاصمة الصينية بكين .

ونظرا للانتصارات السريعة والساحقة التى حققتها اليابان ، فقد تغيرت نظرة الدول الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية نحوها لتصبح أكثر تقديرا واحتراما إلا أن هذا لم يمنع تلك الدول من محاولة التدخل من اجل إنهاء الصراع المسلح ، ومن أجل أن توقف زحف الجيوش اليابانية نحو الأراضى الصينية خوفا على مصالحها فى الصين ، ولذلك تقدمت بريطانيا بخطة للصلح بين البلدين فى أكتوبر ١٨٩٤ وسرعان ما تدخلت أمريكا أيضا ولان الصينيين كانوا قد فقدوا الروح القتالية إلى ابعد الحدود ، ولان اليابان لم

ترغب فى التقدم فى الأراضى الصينية أكثر من ذلك خوفا من التدخل الغربى فقد وافق البلدان على البدء فى الدخول فى المفاوضات وذلك منذ فبراير ١٨٩٥ ، ولكن لعدم إعداد الوفد الصينى لخطاب التفويض فقد تم إيقاف المحادثات لتستأنف مرة أخرى فى العشرين من مارس وأخيرا تم التوقيع على اتفاقية الهدنة اليابانية – الصينية فى الثلاثين من نفس الشهر ثم استأنفت المحادثات للوصول إلى معاهدة سلام بين البلدين فى مدينة شيمونوسيكى Shimonoscki الواقعه فى محافظة ياماجوتشى اليابانية ومن الجدير بالذكر أن اليابان اشتركت فى محادثات شيمونوسيكى بوفد على أعلى مستوى ضم رئيس الوزراء اليابانى انذاك ايتوهيروبومى ووزير الخارجية موتسو مونى ميتسو ومن الجانب الصينى حضر المفاوضات (لى) نائب الإمبراطور الصينى وبالطبع حصلت اليابان لكونها الدولة المنتصرة على مزايا عديدة من وراء عقد معاهدة شيمونوسيكى .

وكأننا نطالع صفحة قديمة من تاريخ حروب محمد على ضد الدولة العثمانية والتشابه يكاد يكون متطابقا فى المقدمات وصلب الموضوع إلا أن المحصلة النهائية كانت مختلفة ما بين ما حدث فى يونيو عام ١٨٣٩ عندما انتصر الجيش المصرى بقيادة إبراهيم باشا على الجيش التركى فى موقعة نصيبين وذلك أيضا بعد سلسلة انتصارات حققها الجيش المصرى وما بين ما حدث عندما انتصر الجيش اليابانى أمام الصين التى كانت تتباهى بقوتها دون الأخذ بأسباب التحديث سواء المدنى أو العسكرى وهى فى ذلك تشبه إلى حد كبير الدولة العثمانية وكلا الجيشين سواء المصرى أو اليابانى كانا على مسافة قريبة من العاصمتين استانبول فى تركيا وبكين فى الصين ، إلا أن تدخل الدول الأوربية فى حالة محمد على أبخسه كثيرا حق المنتصر فى

فرض شروطه ولم تفعل الدول الغربية هذا بالنسبة لليابان بـل اسـتطاعت اليابان أن تحوز على مزايا عديدة سوف نتناولها فيما بعد .

أما الملحوظة الثانية على الحرب اليابانيـة – الصـينية فهـى موقـف الأحزاب الوطنية الليبرالية فى اليابان ، إذ لم نجد معارضة تذكر مـن هـذه الأحزاب ومن مفكريها وساساتها بل إن معظم آراء اليابانيين أتت إيجابية بل وحماسية من اجل الحرب ضد الصين ومن اجل الانتصار عليها ويكفينا هنا أن نتعرف على رأى اثنين من كبار المفكرين والسياسيين اليابانيين الأول هو المفكر الاشتراكى وأحد أقطاب الحركة الاشتراكية اليابانية – اووى كينتارو Ooi-Kentaro (١٨٤٣ – ١٩٢٢) والثانى هو المفكر المسيحى وداعيـة السلام ونبذ الحروب اوتشى مورا كانظوه Uchi Mura Kanzō (١٨٦١ – ١٩٣٠) أما الأول فيقول (لابد من إفقاد الصين لثقتها وعزتها بنفسها لو مرة واحدة وإذا لم نصبح فى المقدمة فلن نسـتطيع التعامـل مـع المسـالة الشرقية ...... ولابد أيضا من أن نجعل كوريا حائط صد يحمينا) أما الثانى فيصرح قائلا (إن هدفى هو إيقاظ الصين وجعلها تنخرط مع اليابان وتتعاون معها من اجل إصلاح الشرق إذن فلنقاتل من اجل تحقيق السلام الدائم) .

وبالطبع إذا كان رأى مفكرين كانا من المفروض أن يدعوا للسلام مثل هـذا الرأى من تدعيم الحرب وتشجيعها ، فنحن نستطيع تصـور مـدى حمـاس العسكريين وكذلك المواطن العادى من أجل الحرب ، ومن الجدير بالذكر هنا انه لم يكن المفكران اللذان ذكرناهما توا هما فقط المؤيـدين للحـرب ضـد الصين ، بل إننا نجد مفكرين وسياسيين فى وزن المفكر الكبيـر فوكـوزاوا يوكيتشى وللسياسى انوموتو تاكى اكى (١٨٣٦ – ١٩٠٨) وصونجيما تانى اومى (١٨٢٨ – ١٩٠٥) وغيرهم يؤيدون تلك الحرب التى كانـت

البداية فى اعتبار اليابان من عداد الدول المتقدمة ، وسوف يأتى انتصارها فى حربها ضد روسيا فى عامى ١٩٠٤ - ١٩٠٥ تأكيدا لهذا الدور الدولى.

نتائج انتصار اليابان : -

نستطيع ان نحصر نتائج انتصار اليابان فى حربها ضد الصين فى ثلاث محاور . الأول امتيازات كبيرة حازتها اليابان ، الثانى التدخل الثلاثى ضد اليابان ، والثالث اندفاع مختلف القوى القريبة نحو الصين تنتهك استقلالها تماما .

ولنبدأ بالمحور الأول والذى تمثل فى عقد معاهدة شيمونوسيكى بين الدولتين المتحاربتين ، اليابان المنتصرة ، والصين المنهزمة ، وقد نصت هذه المعاهدة على التالى :

(١) اعتراف الصين باستقلال كوريا التام .

(٢) تتخلى الصين لليابان عن شبه جزيرة لياوتونج وجزيرة فورموزا (تايوان) وجزر البسكادو (بينجو ليادو) .

(٣) تدفع الصين لليابان تعويضات قيمتها ٢٠٠ مليون تايل من الفضة (تعادل ٣٠٠ مليون ين يابانى) .

(٤) تقوم الصين بفتح أربعة موانىء ومدن هى شاش وتشونج كنج وسوتشاو وهانج تشاو أمام التجارة والصناعة اليابانية ، على أن يكون النشاط اليابانى فى هذه المدن حرا تماما .

وبذلك انتقل النفوذ اليابانى داخل كوريا وحل محل النفوذ الصينى الذى تم إبعاده تماما وكان هدف اليابان إنعاش المستعمرات الصينية وان تجعل

منها نقطة انطلاق نحو الصين ثم تمد نفوذها السياسي والاقتصادي في الصين ذاتها و لكن هذه الفرحة بالانتصار في الحرب و ذلك الهدف في السيطرة على المنطقة تم إفسادهما بسبب التدخل الثلاثي وهو المحور الثاني أو النتيجة الثانية لانتصار اليابان على الصين .

وهذه النتيجة الثانية ظهرت بسبب القلق المباشر لروسيا من الانتصار الياباني فقد أوعزت إلى كل من فرنسا و ألمانيا أن امتلاك اليابان لشبه جزيرة لياوتونج سوف يشكل خطرا كبيرا على العاصمة الصينية ، و سوف يفسد الاستقلال الكوري و كذلك سوف يدمر السلام في الشرق الاقصى وعليه طلبت روسيا أن تتدخل الدول الثلاث من اجل إعادة لياوتونج إلى الصين . والحقيقة أن روسيا كانت تهدف و تفكر قبل اليابان في مد نفوذها إلى شبه جزيرة لياوتونج عبر منشوريا إلا أنها فوجئت بالاجتياح الياباني لكوريا و أراضي الصين و لذلك عارضت هذا الاجتياح الياباني لتلك المناطق . و لكن على أية حال لم يكن أمام اليابان إلا أن توافق على طلب تقدمت به دولة عظمى مثل روسيا و لكن أدت هذه الموافقة إلى إرجاع منطقة هامة مثل لياوتونج حصلت عليها اليابان بدماء أبنائها إلى نقمة اليابانيين و كرههم لروسيا بسبب تدخلها و إقناع الدول الأخرى على إجبار اليابان على ذلك . ولكن و لأن اليابانيين قوم لا ينسون ببساطة الإهانة فقد اضمروا الكراهية في نفوسهم نحو روسيا و صمموا على الانتقام منها يوما ما و لذلك فقد تحملوا الضرائب الباهظة لأجل الإعداد العسكري الجيد، انتظارا ليوم تتقابل فيه اليابان مع روسيا في ساحة القتال .

أما النتيجة الثالثة فهي تعتبر الأسوأ بالنسبة للصين فمهما قلنا عن حزن اليابانيين على إرجاعهم لشبه جزيرة لياوتونج للصين و كراهيتهم لروسيا فان

اليابان على أية حال قد حازت على الكثير من المزايا الضخام فقد وسعت من مستعمراتها و حصلت على مزايا اقتصادية كبيرة وإذا كانت اليابان قد أنفقت على حربها ضد الصين ما يقرب من مائتي مليون ين إلا أنها حصلت بعد انتصارها على ثلاثمائة مليون ين.

لكن اليابان بحربها ضد الصين جرت على الصين العديد من الويلات فقد حولت هذه الحرب الصين من كونها فقط " الأسد النائم " لتصبح " الأسد المتوفى " و للأسف دعت اليابان دون أن تقصد الجوارح من الدول الاستعمارية لكي يتجمعوا حول جثمان هذا الأسد المقضى عليه لكي يأخذ كل منهم ما يستطيع أخذه من الوليمة التي أعدتها لهم اليابان فاجتاحت القوى الغربية كل أنحاء الصين تقريبا و تحولت مناطق عديدة من الصين إلى أسواق استعمارية لمختلف الدول الغربية. فمثلا حصلت انجلترا على حق ايجار مينائي كولون kowloonو هاى واى هاى الصينيين لمدة ٩٩ عاما . وكذلك حصلت على حق مد خطوط السكك الحديدية في كل أنحاء منطقة وسط الصين و كذلك على حق حفر المناجم - أما فرنسا فقد حصلت على حق ايجار كل منطقة خليج كوانتشو الواقع فى اقليم كانتون و ذلك لمدة ٩٩ عاما و بالتالي أصبح هذا الخليج منطقة انتداب فرنسية حتى أعيد للصين في عام ١٩٤٥ و كذلك ألمانيا فقد حصلت هى أيضا على حق ايجار كل منطقة خليج تشاوتشو الواقع فى اقليم شانتونج و ذلك لمدة ٩٩ عاما أيضا لتصبح هذه المنطقة منطقة انتداب ألمانية . وإلى جانب ذلك حصلت ألمانيا على حق مد الخطوط الحديدية فى كل أنحاء إقليم شانتونج و كذلك حفر المناجم بها . ثم نأتى إلى روسيا التى كانت السبب فى بدء تلك السلسلة الطويلة من التدخلات الغربية فى الصين المسكينة التى كانت مثل المريض المخدر الذى

لا نعي ماذا يحدث له. فقد حصلت روسيا على حق الانتداب على منطقتي لوشون و داليان الواقعتان في شبه جزيرة لياوتونج لمدة ٢٥ عاما وحصلت على حق التعدين في منشوريا و مد خطوط السكك الحديدية التي تسمى خط سكك حديد شرق الصين و هذا الخط هو الذي مكن روسيا من توفير و سائل الاتصال السريع لكي تصل إلى المحيط الهادى أى إمكانية الوصول إلى ميناء " فيلاديفستك " مباشرة دون الانحناءة الطويلة عن طريق نهر أمور .

والغريب في الأمر أن كل تلك الامتيازات و الحقوق التي حصلت عليها الدول الأوربية تمت في فترة وجيزة من الزمن لا تتعدى أربع سنوات بعيد الحرب اليابانية الصينية و هي كذلك تمت في غاية السهولة و اليسر دون أدنى مقاومة أو معارضة من الصينيين مما يدل على غياب الوعي عندهم ويجدر بنا أن نقص على القارىء تلك الواقعة التي لا تخلو من الطرافة والتي يذكرها لنا الدكتور فوزي درويش في كتابه " الشرق الاقصى – الصين و اليابان – ١٨٥٣- ١٩٧٢) ومن الطريف أن الصينيين لم يتخيلوا أن هذا يمثل نوعا من الهجوم على أراضيهم إذ دخلت هذه القوات بشكل درامي على هيئة طوابير في مقدمتها فرقة موسيقية يحف بها السكان الصينيون و قد هزتهم نشوة هذا المنظر الغريب عليهم و كانت الحامية الصينية تعتقد و هي منهمكة في تأدية بعض التدريبات أن الألمان إنما يرغبون في استخدام أرض التدريب لأداء بعض المناورات المماثلة فتركوا لهم ارض التدريب بكل مجاملة و أدب و انسحبت الحامية الصينية بهدوء وطمأنينة و لما أفاق الصينيون إلى حقيقة ما جرى كان عليهم ان يقبلوا الأمر الواقع الذى وجدوا أنفسهم فيه باحتلال الألمان لمقاطعة شانتونج .

والآن وبعد كل هذا الطرح الطويل نسبيا للحرب اليابانية الصينية ومسيرتها ونتائجها هل لنا أن نعقد مقارنة بين حروب محمد على في المنطقة العربية واستيلائه على بلاد عديدة مجاورة ضمها إلى إمبراطوريته ، وبين حرب ميجى ضد الصين (إذا جاز التعبير) وما أفرزته من نتائج على البلدان المجاوران كوريا و الصين من نتائج وخيمة ؟

عرفنا من طرحنا لطبيعة الصراع اليابانى-الصينى فى المنطقة أن اليابان كانت ترغب بشدة فى مد نفوذها فى كوريا المجاورة وحتى إلى الصين تلك الدولة العريقة أيضا.ولذلك بدأت باستعراض لقوتها و عضلاتها بحملة تايوان التى كانت عام ١٨٧٤ ، وتوالت بعد ذلك تهديداتها لدول الجوار فى حين أن مشروع محمد على وإن انتهى إمبرياليا فإنه بدا استقلاليا ،أي الاستقلال عن الاحتلال العثمانى .فمنذ عام ١٨١٠ كان الاستقلال واحدا من المشروعات الأثيرة لدى الوالى ، ففى هذا العام عرض محمد على أن يعقد حلفا مع الفرنسيين إذا ما أيدوه فى الحصول على الاستقلال ، وكان السبب الصورى الذى أبداه هو أنه يريد الاتجار فى البحر الأحمر وفى البحر المتوسط فوق سفن تحمل علما محايدا ، أى لا تحمل العلم العثمانى بل تحمل علما مصريا ، وعندما لم يتعاون معه الفرنسيون وخذلوه ، توجه بنفس العرض إلى البريطانيين الذين رفضوا هم أيضا وفى نهاية الأمر التجأ إلى الديوان في استانبول . وقد حاول محمد علي عن طريق وكيله في استانبول العمل على أن تعلن مصر مستقلة سياسياً وغير مقيدة مثل الجزائر وفي الحقيقة أن محمد علي حاول خداع الدولة العثمانية مصوراً لها أنه إذا ما نشبت حرب بين الإمبراطورية العثمانية والبريطانيين ، فان مصر بوصفها محايدة ومستقلة سوف تظل على علاقة صداقة مع بريطانيا ، كما يمكنها أن تستخدم سفنها

لإمداد الإمبراطورية بما ينقصها حينما تكون سفن الإمبراطورية محاصرة بواسطة الأسطول البريطاني . ثم إذا ما انتهت الأزمة فانه يمكن للحكومة العثمانية أن تنزل بمصر إلى مرتبة الايالة مرة أخرى . إلا إن هذه الحيلة يبدو أنها لم تخدع العثمانيين ومن ثم فقد رفضوا ذلك المطلب من محمد علي .

وحاول محمد علي أيضا إقناع الدولة العثمانية أن تمنحه الاستقلال اعترافاً له بالجميل إذا ما قضي على الحركة الوهابية في الحجاز . إلا إننا لابد وان نذكر أن انخراط محمد علي في الحرب على الوهابيين جاء بعد ضغط شديد ومستمر من الدولة العثمانية عليه . ومن أجل الوصول بسهولة إلى الحجاز استولى محمد علي على الشام أيضاً . وحاول محمد علي تطبيق الإصلاحات الاقتصادية التي قام بها في مصر ، ولكنه لم يحقق النجاح المأمول نظراً لاختلاف الظروف الاقتصادية في الشام عنها في مصر . إلا انه على العموم فقد أمكن لمحمد علي أن يسهم بعمق في بناء نهضة عربية شاملة في القرن التاسع عشر انطلاقاً من مصر ، وذلك لان مصر استقطبت أعداداً كبيرة من أبناء الجاليات العربية . وهؤلاء نقلوا تجربة مصر النهضوية قدر استطاعتهم إلي بلادهم . هذا بالطبع إلي جانب نشاط المصريين في هذا المضمار . وليس الذي فعله المصريون في السودان من إقامة مختلف مظاهر الحضارة بقليل . ويكفي فقط أن نذكر أن عاصمة السودان "الخرطوم" قد أقامها محمد علي بعد فتحه للسودان . صحيح انه كانت هناك بعض التجاوزات في أوقات الحروب ، إلا إن المحصلة النهائية كانت لصالح البلاد المجاورة لمصر ، وكانت في معظمها ايجابية .

أما في الشرق الأقصى وعلى الرغم من النهضة الكبرى التي أقامها اليابانيون محاكين فيها الحضارة الغربية فقد كان تأثير أطماعها على بلدان

الحوار شديد القتامة . استنزاف للموارد ، وإزهاق للأرواح ، وإسالة لعاب الغرب نحو الصين للاستفادة من مواردها والحصول على امتيازات لم تكن بلاد الغرب تحلم بها كما رأينا . بل إن الأمر تطور في الصين إلى حد التصادم مع قوات الغرب على الرغم من دخولها بسلام وهدوء تام إلى الأراضي الصينية . فلما أفاق الصينيون من غفوتهم ووجدوا الأجانب يعبثون بمقدرات بلادهم ، فثاروا واصطدموا بالأجانب وقواتهم كما أسلفنا . وقد كلف الصدام الذي حدث في عام ١٩٠٠ بين الصينيين وبين قوات ثماني دول أجنبية من أهمها اليابان وانجلترا وأمريكا وروسيا وفرنسا كلفهم آلاف الضحايا . وبالطبع انتهى هذا الصدام المسلح لصالح جيوش دول الحلفاء الثماني والتي كانت تتسلح بأحدث أنواع الأسلحة في مقابل أسلحة قديمة في يد الصينيين ، وذلك على الرغم من دعم الحكومة الصينية لهم . ومن الجدير بالذكر أن اليابان كان لها النصيب الأكبر من عدد القوات المتحالفة حتى إن الكتيبة اليابانية التي توجهت إلى بكين لإنقاذ البعثات الدبلوماسية التي حاصرتها قوات الثوار ، مثلت نصف القوة الدولية المرسلة لتلك المهمة . وقد أظهرت هذه الكتيبة مهارة ومقدرة قتالية عالية لدرجة جذبت إعجاب ممثلي الدول الغربية . وكان هذا ما يبغيه اليابانيون منذ بداية نهضتهم ، وهو أن يبزوا الغرب في كل المجالات ، وبالطبع وبمعطيات ذلك الزمان ، كان المجال العسكري هو أهم المجالات التي تهم الدول الامبريالية .

ولكن الصين التي كانت قد دفعت فاتورة انهزامها غالياً منذ خمس سنوات فقط لليابان عادت لتدفع فاتورة انهزامها مرة أخرى في عام ١٩٠٠ ، ولكن هذه المرة كانت لدول الغرب المتحالفة ضدها ومعهم اليابان التي دخلت النادي الامبريالي . وأجبرت الصين على دفع تعويضات باهظة وصلت إلى

٤٥٠ مليون تايل صيني تعادل ٧٠٠ مليون ين ياباني . كذلك وافقت الصين على وضع قوات للدول المتحالفة ضدها في بكين وتيان جن(Tain jin) حتى تستطيع هذه الدول ضمان أمن رعاياهم المستوطنين في الصين .

هكذا كانت غفوة الصينيين الطويلة وبالاً على بلادهم . ولكن على الرغم من غفوة الصينيين هذه فلا يمكن إعفاء اليابان وأطماعها من جلب الوبال على الصين وشعبها . وللأسف فان دور اليابان الاستعماري والاستغلالي في الصين استمر حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية . فقد مارست اليابان العديد من الضغوط الرهيبة على الصين حتى بعد انتهاء عصر ميجي . ففي بداية عصر طايشو – وهو العصر التالي لعهد ميجي – وفي بداية عام ١٩١٥ فرضت اليابان على الصين المطالب الإحدى والعشرين ، وهي كلها مطالب مجحفة للصين . ثم تدخلت عسكريا في الصين عدة مرات بعد الحرب العالمية الأولى كانت في عام ١٩٢٧ وهو ما يطلق عليه "التدخل العسكري الأول في شانتونج" ثم توالت التدخلات العسكرية اليابانية في الصين حتى كان التوغل العسكري الأكبر في عام ١٩٣٧ والذي كان بداية للحرب الصينية اليابانية الثانية والتي امتدت بنيرانها حتى التحمت بنيران الحرب العالمية الثانية ، والتي اعتبرت كالمستنقع لم تستطيع اليابان الخروج منه إلا بهزيمتها في الحرب العالمية الثانية على يد الحلفاء . وقد عالجنا هذه المواضيع بالتفصيل في كتابنا السابق "تاريخ اليابان الحديث والمعاصر – عصري طايشو – شوا" .

الحرب اليابانية – الروسية ١٩٠٤ – ١٩٠٥

مما لا شك فيه أن انتصار اليابان في حربها ضد الصين غير من شكل الأوضاع السياسية والعسكرية وكذلك الاقتصادية في منطقة الشرق الأقصى .

ومن بين هذه الأوضاع الجديدة تغلغل النفوذ الروسي في الصين بعد فـرض سطوتها على مدن هامه مثل لوشن وداليان ، ثم ما لبثت أن تطلعـت لحكـم منطقة المانشو (منشوريا) بأكملها . وهذا ما اقلق كلا من انجلترا وأمريكا . إلا أن أحلام الروس لم تتوقف عند الصين فقط ولكنها امتدت لتصـل إلـى كوريا . وهنا لم تكن اليابان لتسكت فوصل قلقها إلى عنان السماء .

ووسط هذه الأجواء من التنافس الروسي الياباني عقدت اليابان في عـام ١٩٠٢ تحالفا مع انجلترا كان هدفه الأساسي هو وقف النفوذ الروسي مـن التغلغل نحو الصين وكوريا وكذلك الحفاظ على الامتيازات البريطانية فـي الصين والإمتيازات اليابانية في كل من الصين وكوريـا . وهكـذا مـدت بريطانيا أخيرا يدها لعقد تحالف مع دولة أخرى بعد فترة طويلة من الأخـذ بسياسة عدم الانخراط في تحالفات . وهذا بالطبع اعتراف من دولة كبـرى مثل انجلترا بمكانة اليابان الدولية الجديدة . وفي رأينا أن هذا التحالف يعتبر من أمجاد ميجي . تماما كما كان انتصار اليابان على الصين مجدا – يحتسب لعصر ميجي .

ولكن روسيا من جانبها لم تقف مكتوفة اليدين تجاه التحالف اليابـانى الانجليزى فعملـ على أن تمتد فعالية و مدى التحالف الروسى الألمانى حتى يصلا إلى الشرق الأقصى و كذلك زادت من حجم قواتها . إلى جانب ذلـك قامت بعمل تحصينات قويه فى مدينه لوشون الواقعـة فـى شـبه جزيـرة لياوتونج .

ومن ناحية أخرى كانت الحكومة اليابانية لا تـزال تخشـى المواجهـة العسكرية مع دولة عظمى فى حجم روسيا ، وكذلك كانت تنتظر حتى تتهيـأ الظروف تماماً لتلك المواجهة . ولكن هذا الصبر الحكومى كـان يواجهـه

عجالة من المواطنين . من ناحية فهم كانوا يودون لو استطاعت اليابان الثأر من التدخل الثلاثي الذى وجه إهانه إلى اليابان و من ناحية أخرى كانوا يعتقدون أن الأمور أصبحت خطيرة فى كوريا و لا يمكن الصبر عليها أكثر من ذلك . والأكثر من ذلك أن الجماهير الغاضبة من الموقف الروسى تعاملت بايجابية مع الأحداث فأصدر مجموعة من أساتذة جامعة طوكيو الامبراطورية عدة تقارير توضح وجهات نظرهم تجاه هذه المشكلة. ونظمت كذلك العديد من الندوات و اللقاءات الخطابية التى كانت مزدهرة آنذاك – فى جميع أنحاء البلاد تنادى جميعها بالحرب ضد روسيا و الثأر منها .

وهنا لابد لنا من وقفة عند الشعور العام لدى الجماهير اليابانية والذى كان متجها بل ويحث على الدخول فى حرب ضد روسيا لدرجة أن أحد الأطباء الألمان الذين عاشوا فى اليابان فى تلك الفترة كتب فى مذكراته فى ديسمبر ١٩٠٣ أن (حدة المشاعر بين المواطنين ضد روسيا لا يمكن التحكم فيها . و إن الحكومة إذا لم تعلن الحرب ضد روسيا فان هناك خوفا من اندلاع الحرب الأهلية فى البلاد . والحقيقة أن الوضع وصل لدرجه تهدد عرش الإمبراطور نفسه) .

صحيح انه كانت هناك أصواتا تنادى بعدم الدخول فى حرب ضد روسيا مثل الحركات الاشتراكية و المسيحيين اليابانيين و يمثلهم المفكر والناقد اوتشيمورا كانظو Uchimura-Kanzo (١٨٦١ – ١٩٣٠) وهذا الرجل على الأخص بذل مجهودا كبيرا من أجل معارضة قيام الحرب ضد روسيا . و أعلن أن الحرب خطيئة كبرى فى حق الأفراد و الأمم . و ظل يدافع عن هذا الرأى من خلال مجلة " أبحاث الكتاب المقدس " قبل نشوب الحرب وخلالها . إلا انه على الرغم من ذلك فان الشعور العام لليابانيين كان يؤيد

نشوب الحرب وإن أصوات اوتشيمورا و صحبه كانت نشازاً بين جموع الجماهير .

وهكذا أغلقت سنه ١٩٠٣ أبوابها و أصوات الجماهير تنادى بالحرب . ولذلك لم تلبث الحكومة اليابانية أن قطعت المحادثات التى كانت جاريه مع روسيا فى فبراير ١٩٠٤ وقررت التحرك فى تجاه الحل العسكرى .

وأخيرا و فى الثامن من فبراير ١٩٠٤ هاجمت القوات اليابانية القوات البحرية الروسية المتمركزه فى ميناء بورت آرثر (اينتشون) الواقع فى الساحل الغربى من شبه الجزيرة الكورية . و كان لسرعة و مفاجأة الهجوم اليابانى أثره الكبير فى إحراز اليابانيين لنصر كبير فى هذه المعركة . وعلى عادة اليابانيين فقد أعلنوا الحرب على روسيا بعد هذا الهجوم بيومين أي فى ١٠ فبراير ١٩٠٤وفى اليوم التالى لإعلان الحرب على روسيا جاءت عناوين الجرائد تعلن أن اليابان أحرزت نصرا عظيما فى أول معركة لها ضد روسيا .

ولكن على الرغم من ذلك لم يكن الجيش الروسى صيداً سهلاً بالنسبة لليابانيين فقد حاول اليابانيون غلق بوغاز ميناء لوشون بإغراق السفن القديمة فيه وحصار الأسطول الروسى فى هذا الميناء الصينى إلا أن الخطة الحربية اليابانية فشلت فى تحقيق ذلك الهدف . وقد اشتهر فى هذه العملية العسكرية أسم الملازم بحرى هيروسى تاكى أو Hirose Takeo (١٨٦٨ — ١٩٠٤) حيث أظهر شجاعة نادرة عندما حاول إنقاذ جندى كان تحت قيادته إلا أنه أستشهد أثناء هذه المحاولة . وأعتبره اليابانيون الإله الحامى للجيش (Gunshin) بل إن وزارة التعليم اليابانية آنذاك أدمجت أسمه ضمن الأغنية الوطنية التى كان يغنيها التلاميذ فى المدارس .

على أية حال فأن روح القتال العالية عند اليابانيين جعلتهم يتجاوزون أية عقبات تواجههم فى سبيل تحقيق النصر على الروس . ولذلك فسرعان ما حققت قوات اليابان الزاحفة من سيول صوب الشمال ، إنتصاراً على القوات الروسية عند بيونج يانج . وفى مايو إستطاعت تلك القوات عبور نهر يالو ، وسقطت فى المعارك التى دارت على طول مجرى هذا النهر العديد من المواقع الروسية . ثم اندفعت القوات اليابانية نحو منشوريا ، واستطاعت قوات أخرى أن تخترق الأراضى الصينية فى شبة جزيرة لياوتونج .

واتسع نطاق العمليات الحربية بشكل فاق ما كان يعتقده أو يتصوره اليابانيون . ولذلك كانت المصروفات العسكرية باهظة ، واضطرت اليابان أن تلجأ للاقتراض من إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية . وفى الحقيقة كانت القوى الصناعية والحربية لليابان أقل من تلك عند الروس ، ولكن ايمان اليابانيين بأنهم لابد وأن يقاتلوا بكل قواهم من أجل حماية امتيازاتهم فى كوريا جعلهم يقاتلون بضراوة . فقد كان هذا موصوعاً لا يقبل المناقشة عندهم انذاك . كذلك كان طموحهم من أجل مد نفوذهم إلى منشوريا كبيرا جعلهم يبذلون من أجله كل غالى ونفيس .

والواقع أن اليابانيين حاولوا قدر طاقتهم أن يزيدوا من قواتهم المسلحة إلى حد كبير بالمقارنة مع قدراتهم وقت الحرب ضد الصين قبل نحو عشر سنوات . فمثلاً كانت القوات البرية تملك ٧ كتائب أيام الحرب مع الصين فأصبحت قبيل الحرب ضد الروس ١٣ كتيبة . أما القوات البحرية فأن حمولة أسطولها كانت أكثر قليلا من ٦٠ ألف طن عام ١٨٩٦ ، أرتفعت لتصبح ١٥٠ ألف طن فى عام ١٩٠٢ . وبالطبع أرتفعت قيمة الميزانية العسكرية ، ففى عام ١٨٩٣ كانت نسبة الميزانية العسكرية إلى الميزانية

العامه هى ٣٢% ، ثم إرتفعت تلك النسبة لتصح ٤٨ % فى عام ١٨٩٦ ، وأخيراً أصبحت هذه الميزانية العسكرية تمثل ٥٥,٦% من مجموع الميزانية العامة . وإلى جانب هذا فقد أدمجت الحكومة اليابانية قيمة التعويضات الكبيرة التى حصلت عليها من الصين بعد انتصارها فى الحرب عليها ضمن النفقات العسكرية .

هكذا يمكننا تصور مدى اهتمام اليابان بالإعداد لحربها ضد روسيا . والتى كانت تدرك تمام الادراك أنها لن تكون سهلة على الإطلاق كما حدث فى حربها ضد الصين . ولكن ولأن اليابانيين قوم لايبدأون عملاً إلا إذا أنهوه ، إما بالنصر كما حدث فى الحرب ضد الصين وكما حدث فى حربهم ضد الروس كما سوف نرى ، أو أن يهلكوا دونه كما حدث لهم فى نهاية الحرب العالمية الثانية وقد إنهزموا أمام القوة العظمى الجديدة التى ظهرت آنذاك ونقصد بها الولايات المتحدة الأمريكية وأمام قنابلها الذرية . وهذا ما سوف نراه من مواصلة اليابان للمعارك المميتة أمام الجيش الروسى الذى لا يستهان به .

فقد استخدمت روسيا خطوط سكك حديد سيبريا العملاقة والتى كانت إنتهت من مدها للتو وذلك فى نقل وإرسال جيشها الكبير نحو منشوريا وصمم القائد الأعلى للقوات المسلحة الروسية آنذاك كوروبا تكين Aleksei Nikolaevich Kuroptkin (١٨٤٨ ــ ١٩٢٥) على سحق اليابان تلك الدولة الجزرية الصغيرة ــ على حد تصوره ــ بواسطة جيش الإمبراطورية العظمى - أو كما كان يعتقد .

ولا نقلل من قيمة إعتقاد كورباتكين ، فقد كان الجيش الروسى فى الحقيقة يفوق كما وكيفا وعدة وعتادا الجيش اليابانى . وكان على الجيوش اليابانية على الرغم من قيادة عسكريين أفذاذ مثل أوياما إيوائو Ooyama

Iwao(١٨٤٢ ــ ١٩١٦) والذى كان القائد العام للجيوش اليابانيــة فــى منشوريا خلال الحرب . والقائد الفــذ كــذلك كودامــا جنتــارو Kodama Gentarō (١٨٥٢ ــ ١٩٠٦) وكان يشغل مدير غرفة عمليات الجــيش اليابانى فى منشوريا ، كان على تلك الجيوش أن تنخرط فى معارك مميتــة ودامية تواجههم لأول مرة فى تاريخ اليابان . على أية حال تقبــل الجــيش اليابانى التحدى بكل عزيمة ، وزحف نحو جنوب منشوريا و أجبر الجــيش الروسى الكبير على التراجع نحو موكدن . وقد أبلى الجيش اليابانى فى هذه المعارك الضخمة بلاء حسناً وكبد الجيش الروسى ما يزيد عــن ٢٣ ألــف ضحية مابين موتى وجرحى . وإلى جانب ذلك فقد إستسلم القائــد الروســى ومعه ٢٥ ألفاً من رجاله ، وغنم اليابانيون خمسمائة مدفعاً روسياً . ولم تدفع اليابان من الضحايا سوى بعض المئات .

ثم حاولت اليابان إتخاذ هذه الإنتصارات المتوالية كفرصه لإنهاء الحرب لصالحها . فحاولت عبر وزيرها المفوض فى الولايات المتحــدة ، أن تقنــع الرئيس الأمريكى روزلفت بالتدخل لعقد مفاوضات سلام بين البلدين وذلــك فى نهاية مايو ١٩٠٥ . وإذا كانت الأحوال الإقتصادية والمالية التى وصلت إلى درجة حرجة فى اليابان هى التى جعلتها تطلب إجراء المفاوضات . فأن الهزائم العسكرية المتوالية التى لاقاها الروس ــ وآخرها فى ٢٨ مايو عندما إشتبك الاسطول الروسى المنهك من رحلة طويلة شاقة من غرب أوربا إلى الشرق الاقصى هى التى أجبرت الروس على الموافقة على المفاوضات التى جاءت لهم وكأنها طوق النجاة . هذا إلــى جانــب حــدوث الإضــطرابات والثورات فى روسيا إحتجاجاً على الأوضاع السيئة فى البلاد وعلى الهزائم المتوالية أمام اليابانيين .

وهناك العديد من الباحثين يرى أن الحرب لو طالت أكثر قليلاً لربما تغير الوضع حيث وصلت الأوضاع الإقتصادية والمالية فى اليابان إلى وضع حرج للغاية ولكن عندما أعلن عن التوصل لمعاهدة بين البلدين دون حصول اليابان على تعويضات كبيرة من روسيا جعل اليابانيين يتذمرون ويحتجون لدرجة وقوع حوادث عنف بعد التوقيع على معاهدة بورت سموث فى الخامس من سبتمبر ١٩٠٥ . ففى الفتره من ١١ إلى ٢٥ من الشهر نفسه عقدت إجتماعات حاشدة تحتج على توقيع المعاهدة . وكان اكبر حشد هو الذى تجمع فى حديقة هيبيا الكبيرة بطوكيو ، وقد دعى لهذا الحشد الحزب الدستورى الأساسى Kensei Honto وجماعة التنين الأسود (Kokuryu Kai) المعارضين للحكومة . وعلى الرغم من محاولة البوليس ايقاف الاجتماع الحاشد إلا أن المؤتمرين قاموا بعقد اللقاء بالقوة ، وأعلنوا أن على الحكومة إلغاء هذه المعاهدة المهينة لليابان . ولما تعرض المواطنون المشتركون فى اللقاء الحاشد للقمع الشرطى قاموا بمهاجمة الصحف الموالية للحكومة وأكشاك البوليس ، وكذلك هاجموا مقر إقامة وزير الداخلية . وقد استمرت هذه الثورة حتى اليوم التالى ولم تخمد إلا بأعلان حالة الطوارئ وتحريك الجيش ن ءها . وقد راح ضحية هذه الحوادث ١٧ قتيلا و ٥٠٠ جريح ، ودمرت ٧٠% من أكشاك البوليس فى طوكيو . حدث هذا التذمر لأن عامة اليابانيين لم تكن تدرك حقيقة الأوضاع الإقتصادية و المالية البالغة السوء ، وذلك نظراً لفرض رقابة صارمة على الصحف حتى لا تنتشر مثل هذه الأوضاع السيئة .

وكما ذكرنا فإن الأوضاع السيئة فى روسيا ساهمت أيضاً فى إنهاء الحرب بين البلدين . وليس أدل على سوء الحالة فى روسيا من حدوث يوم

الأحد الدامى وكان هذا الحدث الجلل فى يوم ٢٢ يناير ١٩٠٥ ، وفيه توجه عدة آلاف من العمال إلى القصر الإمبراطورى ، وقدموا عريضة يطالبون فيها بالحريات وتحسين أحوال العمال . ولم يجدوا رداً على هذه المطالب إلا رصاص الجيش يطلق عليهم فجأة ويحصد حياة ويجرح حوالى ٣ ألاف عامل . وبعد هذا الحادث الأليم انتشرت الفوضى والاحتجاجات فى كل أنحاء البلاد . وكأن الظروف المحيطة دائماً ما تقف بجانب اليابان وتهيىء لها الفرص لكى تنقذها تارة من الإحتلال وتارة أخرى لتأتى لها بالنصر الصعب أو بالخير والرفاهية . وهذا ما سوف نتناوله فى الفصل التالى .

على أية حال تم عقد معاهدة بورت سموث بين اليابان وروسيا بواسطة الرئيس الأمريكى تيودور روزفلت . وكما أسلفنا القول ، فقد تم التوقيع عليها فى ٢٥ يناير ١٩٠٥ ، وعندما نطالع بنود المعاهدة نكتشف أنها فى معظمها جاءت لصالح اليابان ، إلا أن اليابانيين ومن منطلق طبيعتهم التى لا ترضى عن الكمال بديلاً ، فقد تذمروا كما سبق وأن ذكرنا فقط لأنهم لم يحصلوا على تعويضات ضخمة كما حدث وحصلوا عليها بعد إنتصارهم على الصين . إذن لنلق نظرة على بنود هذه المعاهدة التى ادعى المعارضون لها من اليابانيين أنها معاهدة مشينه لليابان .

(١) تعترف روسيا بالأمتيازات الخاصة السياسية والعسكرية والاقتصادية اليابانية ، وكذلك بحق اليابان فى حماية وقيادة كوريا .

(٢) إنتقال حق الانتداب على كل من لوشون وداليان فى شبه جزيرة لياوتنج من روسيا إلى اليابان .

(٣) التنازل لليابان عن القسم الجنوبى من سكك حديد منشوريا ، وكذلك على المناجم المجاورة لهذه الخطوط .

(٤) يدخل النصف الجنوبى من جزيرة سخالين ضمن الحدود اليابانية (جنوب خط عرض ٥٠) .

(٥) إعطاء حق الصيد لليابان فى السواحل المطلة على منشوريا .

وهكذا أصبحت اليابان الدولة الحامية لكوريا ، وبعد خمس سنوات فقط وفى عام ١٩١٠ سوف تقوم اليابان بضم كوريا تماما لها . كذلك حلت اليابان محل روسيا فى جنوب منشوريا ، وسوف يمكنها ذلك من إقامة عدة مشاريع ضخمة فى تلك المنطقة . وكما أسلفنا فأن كل تلك المزايا لم تستطيع إقناع وإرضاء المواطن اليابانى العادى لدرجة أن بعض الصحف دعت لاستقبال وفد التفاوض بأعلام الحداد وعندما عاد المفاوض الشهير كومورا جوتارو Komura Jutaro (١٨٥٥ ـ ١٩١١) إلى يوكوهاما بعد إنتهاء المفاوضات وتوقيع المعاهدة نزل سراً دون أن يدرى أحد برجوعه وكانت الكئابة تعلو وجهه بسبب استياء الجماهير اليابانية .

وكما رأينا من سرد شروط معاهده بورت سموث فإن أول شروطها أن تحل اليابان محل روسيا فى التحكم فى كوريا ولم تنتظر اليابان كثيراً واتخذت عده خطوات كان من شأنها أن تزيد من قبضتها على كوريا . والحقيقة أنها بدأت تلك الإجراءات منذ اندلاع الحرب ضد روسيا فقد أرسلت عدداً كبيراً من المستشارين اليابانيين إلى الحكومة الكورية ، وذلك من أجل تفعيل التعاون بين اليابان وكوريا فى التحركات العسكرية اللازمة للحرب فى منشوريا . ثم كانت الخطوة التالية وهى انتزاع اليابان للحقوق الدبلوماسية

الكورية ووضع حكومة رقابة يابانية Tokanfu وذلك من أجل فرض الحماية على كوريا ومن الجدير بالذكر أن ايتو هيروبومى الذى كان أول رئيس للوزراء فى اليابان أصبح أيضاً أول مشرف للحكومة اليابانية فى كوريا ورويداً رويداً أصبحت اليابان تقبض على مقاليد الأمور فى كوريا .

وفى الحقيقة أن الكوريين لم يسكتوا على هذه الأوضاع المشينة بالنسبة لبلادهم وهبوا يقاومون الاستعمار اليابانى الجديد بشدة إلا أن الردع اليابانى كان شديداً وقاسياً بدرجة كانت تخمد معها هذه المقاومة الكورية .

وأخيراً وفى أغسطس عام ١٩١٠ (٤٣ من ميجى) وبناء على ضغط رهيب من اليابان وقعت الحكومة الكورية مع اليابان معاهدة ضم كوريا لليابان وعليه تعترف كوريا بتسليم حق التحكم المطلق والابدى فيها لليابان وبذلك اصبحت كوريا جزءا من اليابان وبدلاً من حكومة الإشراف (Tokanfu) تم إنشاء حكومة إدارة (Sōkanfu) تتولى التحكم فى كافة الامور فى البلاد .

وهكذا لم يهدأ لليابانيين بال منذ عام ١٨٧٤ عندما انتشرت فكرة إخضاع كوريا بين عدد من المسئولين فى اليابان ومروراً بالحرب ضد الصين ثم بالحرب ضد روسيا أخيرا استطاع اليابانيون تحقيق حلمهم الذى ظل يراودهم طوال أكثر من خمسة وثلاثين عاماً فى الاستيلاء على كوريا وبصرف النظر عن مشروعية هذا الحلم من عدمه فإن رحلتنا مع أطماع عصر ميجى التوسعية تؤكد على إصرار هؤلاء القوم فى تحقيق هدفهم مهما طال الوقت ومهما تعاظمت التضحيات. وهذا يعد واحداً من أهم أسباب تواصل النهضة اليابانية منذ عهد ميجى وحتى يومنا هذا . وبالطبع هناك أسباب أخرى وسنعالجها فى الفصل القادم .

الفصل التاسع

لماذا تحقق الحلم هناك

وتبدد هنا ؟

الفصل التاسع

لماذا تحقق الحلم هناك وتبدد هنا ؟

و بعد أن استعرضنا من خلال الفصول السابقة مشاهد (و لا نقول تـاريخ) من النهضتين المصرية فى عهد محمد على و اليابانية فى عهد ميجى و مـا قبله من إرهاصات و مقدمات نحاول من خلال هذا الفصل الأخير من كتابنا هذا أن نتناول بطريقة مباشرة أسباب تحقيق الحلم اليابانى فى إقامة النهضة الكبرى و تواصلها طوال ما يقرب من قرن و نصف القرن من الزمان و فى المقابل تعثر هذا الحلم فى حالة النهضة المصرية التى سبقت مثيلتها اليابانية بنحو نصف القرن و للأسف عدم تواصلها حتى يومنا هذا كما حـدث فـى اليابان .

صحيح أن مصر شهدت فى عهد الخديوى إسماعيل – حفيد محمد علـى – نهضة ثقافية معمارية لا تزال أثارها باقية حتى اليوم . إلا أنها لـم تكـن شاملة و قوية مثلما كانت النهضة الكبرى التى استطاع إقامتها محمد على فى مصر ، و يستحق بذلك عن جدارة أن يطلق عليه لقـب " مؤسـس مصـر الحديثة " وسرعان ما وقعت مصر فى براثن استعمار طال بقاؤه بها عشرات السنين و كانت أسباب دخول الاستعمار البريطانى لمصـر تكـاد تكـون متطابقة مع أسباب إخفاق النهضة المصرية أو إننا يمكن أن نعتبر الاحـتلال البريطانى نفسه نتيجة لإخفاق النهضة المصرية و الأسباب متعددة :- موقع جغرافى متميز تسيل له لعاب كل القوى الاستعمارية آنذاك ، حكام أجانب ، قد لا يهمهم مصائب البلاد إلا بقدر طموحاتهم و أطماعهم ، ثم شعب طيـب مغلوب على أمره معظمه من الأميين و الغالبيـة العظمـى مـن أبنائـه لا يتكسبون قوت يومهم إلا بشق الأنفس و حتى العامل الدينى أثر إلى حد كبير

فى إخفاق العرابيين فى درء الهجوم الاستعمارى البريطانى و ذلــك عنــدما صدر عن السلطان العثمانى أو الخليفة كما كان يطلق عليه – منشور يعلــن فيه عصيان عرابى و صحبه له ، ولأن عصيان الخليفة كــان يعــد بمثابــة عصيان لله تعالى – كما كان معظم المصريين يعتقد آنذاك – فقــد انهــارت مقاومة العرابيين لجيش الاحتلال القادم من الغرب .

و إذا استعرضنا أسباب إخفــاق النهضــة المصــرية و عــدم تواصــلها واستمراريتها لوجدنا أن هناك أسبابا عديدة أدت إلــى تلــك النتيجــة غيــر المرضية التى انتهت إليها و الأسباب تنوعت بين جغرافية و دينية و أخرى تتعلق بطبيعة الشخصية المصرية و طرائق تفكيرها و سلوكها . و إلى جانب ذلك وللعجب كانت هناك أيضا أسبابا قدرية قد لا يكون للشعوب تدخلا فيهــا و للحقيقة فإن كل تلك الأسباب تقريباً كانت فى جانب النهضة اليابانية وأرجو هنا أن ننسى قليلاً حكاية الموارد القليلة أو المعدومة فى اليابان و التى على الرغم منها حقق اليابانيون معجزة كل العصور و لكن فى الحقيقة لم تكــن هناك معجزة على الإطلاق . فقط حقائق و مقومات أدت كلها مجتمعه إلــى نجاح تجربه النهضة اليابانيه أو المعجزة كما يحلو للبعض وصفها . و أحب هنا أن أذكر القارىء الكريم انه على الرغم مما يقال عن قله المــوارد فــى اليابان فقد عاشت هذه البلاد فتــرة طويلــة مــن الاســتقرار و الازدهــار الاقتصادى شمل النواحى الزراعية و الصناعية – و إن كانت بدائية بعــض الشىء – وكذلك التجارية وذلك خلال عصر طوكوجاوا ، لدرجه أن عــدد سكان اليابان وصل إلى ٣٠ مليون نسمه وذلك قبل نهضة ميجى التى بــدأت فى عام ١٨٦٨ . أى أن عدد سكان اليابان كان يفوق عدد سكان مصر فــى تلك الفترة نفسها بحوالى ثمانى مرات .

(١) العامل الجغرافى و الحاكم الاجنبى

فلنبدأ بالأسباب الجغرافية ، فهى بطبيعتها أقدم الأسباب ولا شك . و قد أدت هذه الأسباب إلى بقاء اليابان بمعزل إلى حد كبير عن التيارات الاستعمارية المختلفة ، و خصوصاً منذ العصور الوسطى حينما تمادى هذا الخطر الاستعمارى ، بداية من المغول مرورا بالصليبيين ثم بالقوى الاستعمارية الأوروبية المختلفة مثل البرتغال و أسبانيا و بريطانيا و فرنسا وغيرهم . فمثلاً : عندما حاول المغول بالفعل غزو اليابان فى عامى ١٢٧٤ و ١٢٨١ فشلوا فى هاتين المحاولتين فقد كان المغول يريدون إقامة العلاقات مع اليابان و بالفعل فقد أرسلوا بواسطة كوريا رسولاً إلى اليابان فى عام ١٢٦٨ و لكن وعلى عادة المغول السيئة فقد حمل هذا الرسول رسالة مليئة بالوعيد و التهديد .

واعتبر حكام اليابان هذه الرسالة إهانة بالغة لهم ولبلدهم ، ولذلك فلم يردوا على رسالة المغول وطردوا رسلهم ، وبعد ذلك حاول المغول عدة مرات عبر رسلهم إقامة العلاقات مع اليابان إلا أن حكامها كانوا يرفضون بشدة هذا الأمر وتوقع اليابانيون هجوما مغوليا فاعدوا العدة لذلك واستعد فرسان كاماكورا على الأخص لهذا الغزو المتوقع من المغول . وجاء كوبلان خان فى عام ١٢٧٤ على رأس حملة عظيمة مدعما من كوريا وسفنها إلى سواحل جزيرة كيوشو ولكن قبل أن يحدث أى اشتباك حاسم تدخلت الرياح العاتية لتفرق الكثير من سفن المغول ، ولم يجدوا سوى الانسحاب نحو كوريا . وتوقع اليابانيون عودة المغول مرة أخرى وهذا ما حدث بالفعل فى عام ١٢٨١ وذلك بحملة كبيرة جاءوا بها إلى اليابان إلا أن اليابانيين كانوا قد استعدوا بعدد كبير من القوارب الصغيرة التى ناوشت السفن المغولية الكبيرة

الحجم والكثيرة العدد . ولذلك اعد المغول لهجوم برى جامح يضم مائة ألف محارب إلا أن رياحا عاتية جاءت مرة أخرى لتبدد أحلام المغول فى غزو اليابان ، ولذلك أطلق اليابانيون على هذه الرياح اسم (Kami kaze) أى رياح الألهة لتدعم اعتقادهم بان أرض بلادهم أرضا مقدسة تحميها الآلهة .

حدث هذا مع اليابان وأنقذها البحر تارة ورياح البحار تارة أخرى فى حين أن جيوش المغول الرهيبة كانت تنطلق فى البلاد الأخرى وكأنها النار تنتشر فى الهشيم ولا نقلل من شجاعة اليابانيين فى مواجهة الأعداء ولكن كما رأينا فان الموقع الجغرافى والمناخى الذى لم يتوفر فى البلاد الأخرى التى حطمها المغول وفر لليابان حماية طبيعية عبر مرتين وحملتين عظيمتين للمغول عليها .

وبالطبع صعب هذا الموقع الجغرافى والمناخى من مهمة القوى الاستعمارية الأخرى التى كانت تصول وتجول فى كل مكان . فى حين أننا نجد هذا الموقع الجغرافى المتطرف غير متوافر على الإطلاق لمصر ، فهى تقع فى القلب من العالم القديم والحديث على السواء . ولذلك كان من السهل على القوى الاستعمارية فى العصور القديمة والوسطى والحديثة أن تجعل من ارض مصر مرتعا لها . فجاء عبر تاريخ مصر الطويل الغزاة من كل مكان وكل الأجناس ، فجاء الهكسوس فى العصر الفرعونى ما بين الدولة الوسطى والدولة الحديثة قبل حوالى ٣٨٠٠ سنة من الآن . ثم جاء الفرس فى العصر المتأخر وتبعهم الرومان ثم العرب والأتراك ثم الفرنسيين وأخيراً الإنجليز . ومما لا شك فيه أن مصر استطاعت استقطاب معظم هذه القوى الاستعمارية ، إلا أننا كمصريين لابد وان نعترف أيضا بالأثر السيء لقدوم كل هذه القوى الاستعمارية ، حيث تعرض المصريون للعديد والعديد من

صور الاستبداد والظلم والطغيان والسلب والنهب من كافة المستعمرين الأجانب الأمر الذى ترك بصماته السيئة على سلوكيات الشعب المصرى . وهذا ما سوف نتناوله بالتفصيل فيما بعد .

و قد أدى وجود الحاكم الأجنبى إلى ظهور حالة من الظلم فى توزيع ثروات البلاد . وإذا كان حديثنا ينصب على تجربة محمد على ، فانه لم يختلف كثيراً عن باقى الحكام الأجانب فى ظلمه للقاعدة العريضة من المصريين فى توزيع ثروة البلاد الرئيسية وهى بالطبع الأرض الزراعية حيث إن مصر دولة زراعية تعتمد على الزراعة فى الأساس كدعامة للأقتصاد الوطنى .

فقد أحتكر محمد على التجارة فى بعض الحاصلات الزراعية منذ عام ١٨١٦ ، وأصبح هذا الاحتكار يشمل كافة الحاصلات الزراعية تقريباً منذ عام ١٨٢١ كما ذكرنا من قبل وكم عانى الفلاح المصرى أيما معاناة من جراء هذا الاحتكار وأصبحوا كأنهم عمالاً فى مزرعة محمد على . وزاد الأمر سوءاً التهام محمد على لنفسه ولأسرته وحاشيته التركية وخبرائه الأجانب مساحات هائلة من الأرض الزراعية . أما المصريون الذين تمتعوا بمنح الباشا من الأرض الزراعية فكانوا قلائل . واقتصرت نوعياتهم على المثقفين والمشايخ الذين كانت بيدهم العهدة وأيضا العسكريين وهم الذين أعتمد محمد على عليهم فى إقامة الدولة الحديثة .

ومن أشهر أمثلة المثقفين الذين حازوا على مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية نجد رفاعة الطهطاوى وهو فى الحقيقة من أسرة فقيرة انعم عليه محمد على بـ ٢٥٠ فدانا فى طهطا فى بداية الأمر ثم يأتى سعيد باشا ليمنحه ٢٠٠فدانا أخرى ثم يأتى إسماعيل باشا ليمنحه ٢٥٠فداناً ثالثة ثم

يشترى رفاعة الطهطاوى ٩٠٠ فدان ويقيم المبانى والعمائر وفى عام ١٨٨٠ كان ورثته مالكين ٢٥٠٠ فدان .

ومثقف آخر هو إبراهيم بك النبراوى الذى لم يكن إلا مجرد بائع للبطيخ عندما حضر لأول مرة إلى القاهرة ولكنه أجتهد ودرس وأرسل إلى فرنسا يتعلم الطب وعندما عاد إلى مصر أختاره محمد على ليكون طبيبه الخاص وأكثر عليه عزيز مصر من إغداقاته فلما توفى خلف ١٧٠٠ فدان .

وقد أمتلك أيضاً متعهدو الضرائب من المشايخ والعمد المساحات الواسعة من الأراضى ومنهم بل وأشهرهم " على البدراوى" الذى كان مجرد تاجر للعطور. ولكن محمد على جعله متعهداً على سمنود ومكنه ثراؤه بسبب توليه العهدة من شراء مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية فعندما مات فى سنه ١٨٦٧ كان يمتلك أربعة آلاف فدان وفى عام ١٩٥٢ أستولى الإصلاح الزراعى من عائلة البدراوى على ستة عشر ألف فدان .

أما الشواربى هذا الأسم الشهير فى مصر فقد منحه محمد على عمدة قليوب ثم منح الخديوى إسماعيل إبنه محمد بك الشواربى مزيداً من الأراضى وفى نهاية القرن التاسع عشر كانت ٤٠٠٠ فدان من مجموع زمام قليوب البالغ ٧٠٠٠ فدان مملوكة لأسرة الشواربى وحدها وقد لعبت أسرة الشواربى دوراً هاماً ضد الثورة العرابية وكان قصر هذه الأسرة بمثابة مركزا للعمل ضد الثورة العرابية .

وقائمة الأعيان الذين تملكوا المساحات الشاسعة من الأراضى بها الكثير إلا أننا نكتفى بما ذكرناهم توا . هكذا نجد أن أهواء الحاكم الأجنبى هى التى صنعت البرجوازية المصرية وكذلك الإقطاع وعانى بقية الفلاحين الفقر

والشظف مما جعلهم يشعرون بالظلم والضعف وهذا بالتالى أدى بهم إلى السلبية تجاه بلادهم ولم يكن العمال بأفضل حال من الفلاحين وبالطبع فإن الشعور بالغبن والظلم يؤدى بالفلاح والعامل على السواء لعدم بذل المجهود وعدم وجود الطموح من أجل الإرتفاع بشئون بلادهم وكيف يؤدى السواد الأعظم من الفلاحين والعمال واجبهم على أكمل درجة و٧% فقط من الملاك يمتلكون ثلثى مساحة الأراضي كلها. ونظرة واحدة على ما كانت تمتلكه العائلة المالكة وحدها على أيام الخديوى إسماعيل نستطيع أن ندرك مدى الظلم الذى وقع على المصريين.

الأميرة الوالدة	١٤٤,٩٢٧	فداناً
محمد توفيق باشا	٣١,٠٩٧	فداناً
حسين كامل باشا	٢٥,٢١٨	فداناً
الأميرة توحيده هانم	٢٠,٠٩١	فداناً
الأميرة فاطمة هانم	٢٨٧,٤٧٧	فداناً
الزوجة الأولى للخديوى	٢٠,٣٨١	فداناً
الزوجة الثانية للخديوى	٤١,٦٠٥	فداناً
الزوجة الثالثة للخديوى	١٦,٣١٢	فداناً

ويمضى الكشف ليصل المجموع الكلى ٤٢٥,٧٢٩ فداناً فإذا أضيف إليه ٥٠٣,٦٩٩ فدان وهى مساحة الأراضى المملوكة للخديوى إسماعيل نفسه اتضحت ضخامة المساحة التى كانت تملكها الأسرة المالكة وحدها.

وهكذا ولد الفارق الشاسع بين الأغنياء والفقراء . وللأسف فإن هذا الفارق ما زال موجودا بمصر. ومن الجدير بالذكر أن الطبقة الوسطى التى تحتل النسبة الكبرى من مجموع السكان فى اليابان هى التى قامت عليها

أسس وقواعد النهضة اليابانية منذ عصر ميجى وحتى الآن أما هذه الطبقة الوسطى فى مصر فنستها صنيلة منذ بداية نهضة محمد على وحتى الآن فى حين أننا نجد أن ثورة ميجى النهضوية عملت على إلغاء النظام الذى كان يقسم المواطنين إلى أربعه فئات وتدريجياً زالت الفوارق تماماً .

هكذا نستطيع إدراك مدى تأثير العامل الجغرافى فى جلب الإستعمار وبالتالى بالحاكم الأجنبى الذى تلاشى ببزوغ ثور ١٩٥٢ ليظهر أخيراً الحاكم الوطنى بدءاً من محمد نجيب ثم جمال عبد الناصر ثم السادات وأخيراً مبارك. جاء أخيراً الحاكم المصرى ولكن بعد مئات بل وآلاف السنين من وجود الحاكم الأجنبى والاستبداد الخارجى الذى للأسف الشديد ترك اثاره السيئة حتى اليوم فى سلوك المواطن المصرى فى حياته اليومية

(٢) العامل الدينى وتأثيره فى النهضتين :

إن سمه التدين عند المصريين أصيلة وقديمة ، وهى دائما التى كانت تمنحهم القوة لمقاومة كل ما يقابلهم من ظلم وطغيان ، ولكن فى أحيان أخرى كانت مفاهيم عظيمة فى الدين تتحول بسبب الجهل والأمية إلى مفاهيم ومعانى أخرى فصفة التوكل على الله كانت تتحول إلى تواكل يتسبب فى كسل وتكاسل الكثيرين عن العمل ، وظلم الحاكم وما حواليه كان يرد عليه بانتظار وانتقام السماء وبذلك تفشت ظاهرة السلبية ، وصيحة (يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف) كانت ردة فعل العامة من المصريين عندما جاءت الحملة الفرنسية على مصر وللأسف امتدت هذه السلبية فى عهود محمد على وخلفائه وفى حين كنا نرى ثورات الفلاحين اليابانيين متكررة ومتعددة عندما كانت تفرض الضرائب التى تثقل كاهلهم وكما ذكرنا آنفا أن عدد الثورات التى حدثت فى عهد ميجى فاقت بكثير تلك التى حدثت فى عصر الإقطاع

حتى إن عددها وصل إلى ٨٩٢ ثــورة وهوجــة ضــد الأوضــاع الســيئة والضرائب الباهظة وفى مقابل ذلك نجد السلبية واضحة إلى حد كبيــر فــى سلوك الفلاحين المصريين أمام الضرائب الباهظة والأوضاع السيئة ، فكانت قرى بأكملها تهجر ويهرب فلاحوها إلى أماكن بعيدة ، حتى إن بعضهم هرب إلى الشام ويتعرض الفلاحون المساكين للضرب بالكرباج ولا يثورون ربمــا على أمل أن تنتقم لهم السماء ، وفى الحقيقة إن الله لا يغير ما بقــوم حتــى يغيروا ما بأنفسهم .

والفقرة التالية توضح مدى الظلم والاستبداد الذين عانى منهما الفــلاح المصرى وقد ذكرتها السيدة الوس دف جوردن وهى اسكتلندية أرســتقراطية أقامت بمصر العليا خلال العقد السادس من القرن التاسع عشر وفى أثنــاء تولى الخديوى إسماعيل مقاليد الأمور فى مصر ، فهى تقول (أخذ الكربــاج يهوى على ظهور جيرانى وأقدامهم طوال الصباح .. وقد بلغ السلب والنهب بالجملة مدى يصعب تجاوزه ... إننى لمفعمة بالحزن للعذاب اليومى الــذى يعانيه الفلاحون المساكين الذين يضطرون إلى انتزاع لقمة العيش من أفــواه أسرهم التى تتضور جوعا ليتبلغوا بها وهم يكدحون لمصلحة رجــل واحــد (الخديوي إسماعيل) إن مصر عبارة عن مزرعة واسعة لسيد يسخر فيهــا عبيده دون أن يطعمهم ، وتستمر السيدة الاسكتلندية فى سرد انطباعتها عــن أحوال الفلاحين المساكين وهى تذرف الدمع السخي .

والغريب أن هذا الذى ذكرناه عاليه حدث فى عصر كان ولى أمره يريد أن يجعل من القاهرة بالذات قطعة من باريس وقد نجح الخديوى إسماعيل فى ذلك المسعى أيما نجاح ، وهكذا نستطيع أن نقول إنه اســتطاع أن يــنهض بالمكان ولكنه اخفق بشدة فى أن ينهض بالإنسان ، والنهضة الحقيقية تهــتم

بالإنسان قبل المكان وثمة سمة أخرى يتسم بها معظم المصريين منذ القدم وربما حتى الآن وهى ناتجة أيضا عن الفهم غير الصحيح للدين ، وهذه السمة هى الرضا بالقليل .

ويجدر بنا هنا أن نسوق للقارىء ما ذكره الدكتور جمال حمدان فى سفره القيم (شخصية مصر دراسة فى عبقرية المكان) فهو يقول (أما رضا الشعب المصرى بالقليل فهو أساس التخلف ، والرضا بالواقع عجز عن تغيير الواقع وخضوع له بالمثل صرفتنا القناعة عن الطموح الكبير ، القنوع هو زهد العاجز وفلسفة الفضيلة عجز ، وهو ضمان بالخنوع والخضوع والصبر هو الأخر بديل عن الإصرار الطموح وتواكلية لا توكل وقعود لا صمود ، انه تبرير للعجز وحلم بغير اقتدار ، من نتائج ذلك مثلا أن المصريين إذا تركوا الحكم والسيادة وكل الأعمال المشرفة كالحرب والسيطرة للأجانب راحوا يبررون ذلك بذهدهم فيها وانصرافهم إلى بناء الحضارة والعمل المنتج الدءوب ، ولكن الذى حدث بالفعل إنهم أصبحوا رعايا للرعاة بل عبيدا للأجنبى ومن نتائج هذا أن مصر لم تكن صانعة للتاريخ أو سيدته دائما ، وإنما خامته فى كثير من الأحيان ولا نقول خادمته أو سندريللاه أحيانا ، فالشعب المصرى طيب لا باس به أصلا كخامة ، إلا أنه أطيب من اللازم ، طيب بدرجة ساذج أحيانا ، وساذج بدرجة عاجز نوعا ، وعاجز بدرجة مسالم نسبيا ، ومسالم بدرجة خاضع إلى حد ما وعلى الرغم من قسوة تحليل الدكتور جمال حمدان للشخصية المصرية التى تتسم بالقناعة والتى أدت فى النهاية إلى الخضوع إلا أننا نشعر بصدق هذا التحليل .

حسنا إذا كان المصرى بهذه القناعة المتناهية والتى نعتبرها من وجهة نظر شخصية سبب من أسباب عدم قيام النهضة بمفهومها الحقيقى أى نهضة

وتقدم كل نواحي الحياة فى البلاد ويمكن اختصار هذا التعبير بنهضة الإنسان والمكان وليس الإنسان وحده وكذلك ليس المكان وحده لان نهضة أحدهما دون الاخر يفرغ النهضة من محتواها الحقيقى نقول إذا كان هذا هو حال الإنسان المصرى فكيف حال الإنسان اليابانى ؟ إنه على أية حال صبور جدا إلى أبعد الحدود ولكن بغية أن يؤدى به صبره هذا إلى أحسن النتائج ، انه على عكس الإنسان المصرى لا يقنع بالقليل على الإطلاق ولذلك فهو فى تقدم مستمر وقد ذكرنا فى الفصل السابق من حديثنا عن الحرب اليابانية الروسية مدى غضب اليابانيين على بنود معاهدة الصلح بين اليابان وروسيا على الرغم من أن كل بنودها تقريبا جاءت فى صالح اليابان تماما ضد الصين ورأينا كيف انتفضوا وصبوا جام غضبهم على أكشاك البوليس وعلى مبانى الصحف الموالية للحكومة وغيرها من المبانى الحكومية ، وهذا يدلنا عن انتفاء سمة الرضا بالقليل كما الحال عند المصريين ، إلا أن هذه السمة وإن كانت السبب ربما الرئيسى فى تقدم اليابان فقد تطورت لترتبط بسمة أخرى وهى التطرف فى أداء الأعمال فاليابانى يتطرف فى حربه ويذهب فيها إلى ابعد مدى لدرجة قد تصل إلى التوحش واللاإنسانية فى معاملته لأعدائه سواء كانوا عسكريين أو مدنيين ، وهذا ما جعل الشعوب المجاورة تكره هذا إلى حد البغض والذى مازال بعضه مترسبا فى الأعماق ، وعلى النقيض من ذلك فعندما انتهت الحرب وحل السلام نجد أن اليابانى مسالم إلى ابعد الحدود ومن يزور اليابان هذه الأيام ويرى اليابانيين وسلوكهم اليومى يستبعد تماما أن عسكريى ومحاربى هذا البلد قاموا بمثل هذه الأفعال المتوحشة إبان الحرب العالمية الثانية وقبلها ، كذلك تنسحب صفة التطرف فى الأداء على ممارسة الأعمال فاليابانى يعمل أكثر عدد من الساعات فى

العالم ، لدرجة أن هناك الكثير من اليابانيين يموتون من فرط الانشغال فـــى العمل ، إنهم يريدون ليس فقط أن ينتجوا كثيرا ولكن أيضا أن يأتى إنتـــاجهم على أعلى مستوى من الجودة ، باختصار إنهم ينشدون الكمال ، وهذا المبدأ يجعل اليابانى يصرف كل اهتماماته وجهده لما يقوم به من عمل ، فلا عبث فى وقت العمل ، وإذا انتهى العمل وجاء وقت الراحة فلا عمل فيها وهـــم يطبقون مبدأ (لكل مقام مقال) بالأمس واليوم وربما بالغد أيضا .

من المسلم به أن نهضة محمد على قد تراجعت كثيرا بعـــد انحصـــار إمبراطوريته فى مصر فقط ، وانخفاض عدد أفراد الجيش المصـــرى مـــن ٣٠٠ ألف جندى وضابط إلى ١٨ ألف فقط ، ومما لا شـــك فيـــه أن هـــذا انخفاض شديد جدا ومفاجىء أيضا كان بالطبع له تأثير كبير وعميق علـــى مختلف نواحى الحياة فى البلاد فهذا الانخفاض أدى إلى إغلاق مصانع عديدة كانت تعتمد فى تشغيلها على إمداد الجيش بمنتجاتها سواء كان ذلك بطريقـــة مباشرة أو غير مباشرة .

ومن أهم أسباب إخفاق (محمد على) على الصعيد الخارجى هو معاداة الغرب وعلى الأخص انجلترا له ، فقد رأت انجلترا أن توسع محمد على فى الحجاز ونجد ووصول جيشه إلى اليمن ومياه الخليج العربى وكـــذلك لتوســـعه فـــى السودان وسوريا رأت فى ذلك أكبر الأثر فى تشكيل خطر عليهـــا ، وعلـــى مواصلاتها إلى الهند ، ومن ناحية أخرى فان اتحاد هذه الدولة تحـــت رايـــة مصر وهى دولة عربية إسلامية ، كان يهدد بنشأة قومية جديدة تظهـــر فـــى المنطقة ولكن بشكل أقوى كثيرا من الدولة العثمانية والتى كان الضعف قـــد بدأ يدب فى أركانها ، وعلى الرغم من أن محمد على لم يكن يعـــول كثيـــرا على الدين فى سياسته وكان أقرب للعلمانية مـــن أن يكـــون حـــامى حمـــى

الإسلام ، إلا إن الغرب كان يخشى أن تتطور أساليب محمد على السياسية فيستخدم الدين كسلاح يهدد به الغرب .

ولذلك وضعت بريطانيا سياستها لمحاربة هذه الدولة الفتية فى الشرق الأدنى ، خصوصا بعد أن أبدى محمد على رغبته فى الاستقلال بمصر والشام وذلك فى مايو ١٨٣٨ ، بل إنه عرض أن يدفع للباب العالى ثلاثة ملايين جنية ثمناً لهذا الاستقلال .

وهنا ظهرت عداوة انجلترا وكراهية وزير خارجيتها آنذاك بالمرستون بجلاء لمحمد على ، وأصدر التحذير التالى : إن الحكومة البريطانية تجد نفسها ملتزمة بأن تعلن إنه إذا مضى الباشا لسوء الحظ فى تنفيذ نواياه ، وإذا ما نشبت أعمال عدائية (وهى ستنشب لا محالة) تبعا لذلك بين السلطان والباشا ، فإن على الباشا أن يتوقع أن يجد بريطانيا تأخذ جانب السلطان لتصحيح مثل هذا الخطأ الفاحش فى حق السلطان وبغرض الحيلولة دون تفكك الإمبراطورية التركية .

والى جانب الإنذار البريطانى قامت الحكومة الفرنسية أيضا بإنذار محمد على بألا يمضى فى طريق قد يؤدى إلى الأخطار والدمار على الرغم من أن فرنسا كانت تتعاون مع الباشا وتؤيده فى كثير من المواقف ، ولكن موقف الحكومتين وخاصة بريطانيا لابد وان يتغير إذا كان الأمر يتعلق باستقلال محمد على عن الدولة العثمانية وظهور دولة قوية يحكمها والى قوى طموح يمكنه أن يهدد مصالح هذه الدول ، والأهم من ذلك ظهور إمبراطورية إسلامية أخرى تحل محل الدولة العثمانية ، والتى اعتبرت من قبل الغرب بمثابة (الرجل المريض) الذى ليس له حول ولا قوة . فظهور مثل هذه الإمبراطورية الإسلامية الفتية سيكون بالتأكيد مصدر خطر بالنسبة

لأوربا المسيحية ، وهذا ما لا تحمد عقباه ، فكان على بريطانيا بالـذات أن تتخذ عدة سياسات وخطوات تستطيع من خلالها كبح جماح هـذا الـوالى الطموح .

ولم تضيع بريطانيا الوقت وقررت أن تضعف من قوة محمـد علـى ، ولكن عن طريق اتخاذ إجراءات اقتصادية واستراتيجية ، ففى صيف ١٨٣٨ عقدت معاهدة مع الدولة العثمانية أطلق عليها معاهدة (بلطة ليمان) نسـبة إلى المكان الذى عقدت فيه هذه المعاهدة ، ونصـت هـذه المعاهـدة علـى ضرورة تطبيق مبدأ حرية التجارة فى جميع أنحاء الدولة العثمانية ، وهـذا يعنى إجبار (محمد على) على إلغاء نظام الاحتكار الذى كان يطبقـه فـى مصر ، وذلك من منطلق أن مصر قانونا جزء من الدولة العثمانية بل إن هذا الإجراء انسحب أيضا إلى باقى أجزاء الإمبراطورية التى أقامها محمد على ، ثم كانت الخطوة الاستراتيجية الخطيرة لبريطانيا باحتلالها عدن فـى عـام ١٨٣٩ ، ثم أخذت تؤلب العناصر الناقمة على الحكم المصرى فى سـوريا فقامت بتوزيع الأموال والأسلحة على الدروز وشجعتهم على الثـورة علـى محمد على .

ثم كانت الخطوة الأكثر خطورة عندما تدخلت بريطانيا فى حرب الشام الثالثة لإجبار محمد على للعودة إلى حدوده فى داخـل مصـر . وجـاءت الضربة القاضية من انجلترا وحلفائها بعقد معاهدة لندن سنه ١٨٤٠ والتـى أعلنت أن مصر جزء لا يتجزأ من الدولة العثمانية ، ولن القوانين التى يعمل بها فى مصر هى القوانين العثمانية وقد قام برسم هذه السياسة العدوانية ضد النفوذ المصرى العدو اللدود لمحمد على بالمر ستون وزير خارجية انجلترا الذى بلور سياسته ضد محمد على فى الكلمات التالية :

(إن قهر انجلترا لمحمد على إذا ما نشبت الحرب قد يبدو متحيزا وغير عادل ، ولكننا متحيزون ، وتحتم المصالح الأوربية الكبرى علينا أن نكون كذلك ، يجب أن تكون المحافظة على الإمبراطورية التركية أساس سياستنا)

وماذا يمكن أن تكون مصالح أوربا الكبرى ؟ إلا إذا كانت الحفاظ على الهوية الأوربية وديانتها من الخطر القادم على يد محمد على الطموح بدرجة زائدة عن اللازم .

إلا أن أحداث التاريخ في تلك الفترة تخبرنا بأن إبراهيم وليس محمد على هو الذى كان يطمح فى تطوير الهجوم على تركيا وذلك باقتحام (قونية) ومواضع أخرى ، لولا أوامر محمد على الصارمة له بعدم تصعيد الهجوم خشية ردود الفعل الأوربية .

وهناك رأى ذو قيمة كبيرة للدكتورة عفاف لطفى السيد ذكرته فى كتابها (مصر فى عهد محمد على) يقول إن محمد على فى تلك الفترة الحاسمة من حروبه ضد الدولة العثمانية كانت تتنازعه رغبتين : الأولى هى أنه كان يطمح بحماس إلى الأستقلال السياسى والأقتصادى للمناطق التابعة له . والثانية إنه على الرغم من الرغبة الأولى فإنه لم يكن يرغب فى تدمير العرش العثمانى ، لأنه كان لا يزال يعتبر نفسه عثمانيا وهو كذلك ينظر إلى السلطان على انه مولاه وإلى العثمانيين على أنهم قومه . وهذا لاشك كلام فيه الكثير من الحقيقة ولكننا نزيد هنا عنصرا هاما جداً هو أن السلطان العثمانى كان فى نفس الوقت خليفة المسلمين . وربما لم يجد محمد على من اجل تحقيق أحلامه فى الاستقلال غضاضة فى محاربة السلطان أو الخليفة فى الولايات التابعة له إلا أن الأمر إذا وصل لحد إسقاط الخليفة والخلافة فهذا شئ آخر يعتبر حدثا جللا لابد وأن يتوقف عنده محمد على مترددا

كثيراً ، فمهما وصل محمد على فى طموحه فإنه عاش منذ صغره فى الهالة الكبيرة الدينية التى يتمتع بها الخليفة العثمانى .

نخلص من هذا أن العامل الدينى ظل يهيمن على مجريات الأحداث داخل مصر وخارجها . فإذا لم يكن للدولة العثمانية تلك الهيمنة الدينية على أقطار العالم الإسلامى ، وإذا لم تخشى أوروبا من قوة محمد على وإمبراطوريته على أمنها وعقائدها ، لتغير وجه التاريخ الخاص بالنهضة المصرية أما على الجانب الأخر فى أقصى شرق الكرة الأرضية فلم يكن للدين وللمعتقدات مثل ذلك التأثير الذى حدث فى حاله نهضة محمد على وبعدها . وقد رأينا كيف أن الدول الغربية لم تعترض على نشاط اليابان الأستعمارى فى كوريا والصين وحتى الساسة اليابانيين أنفسهم كان الكثير منهم يعتقد أن النهضة اليابانية سوف تتخطى بمراحل نهضة وحضارة الغرب وذلك نظرا لتحرر اليابان من قيود الدين التى تكبل الغرب .

(٣) تأثير طبيعة الشخصية القومية فى النهضتين

رأينا كيف أثرت العوامل الجغرافية والدينية فى شخصية كل من المصرى واليابانى سواء سلبيا أو إيجابيا . فقد حمى موقع اليابان المتطرف فى أقصى الشرق البلاد من موجات الاستعمار ، وفى الوقت نفسه جعل هذا الموقع مصر فى بؤرة هذه الموجات منذ القدم . وكذلك جاء الرحالة والزائرون إلى مصر بالألاف فتفاعل معهم المصريون . جاء هؤلاء جميعا سواء كانوا غازين أو زائرين لأن مصر كانت فى منتصف العالم . وهذه الوسطية فى الموقع أدت إلى وسطية فى المزاج نتيجة للتفاعل مع الأجانب. وهذه الوسطية أدت إلى صفة الاعتدال ، وبمعنى أخر عدم التطرف . ولكن للأسف وفى رأينا فأن هذه الصفة الجميلة من الاعتدال تطورت لتحعل

المصرى شخصية تتجنب الصدام وتتحاشاه لاسيما فى المواقـف العدائيـة ، وبالتالى يؤثر السلامة على المواجهة والسلام على الصراع وفى النهاية السلم على الحرب . كما يذكر لنا الدكتور جمال حمدان فى كتابه "شخصية مصر" ويكمل حمدان (ومن هنا إلى جانب رد فعله السلبى الساكت إزاء قهر الحاكم أو الطغيان الحكومى جاءت التهمة الموجهة إليه منذ أقدم العصور إلى اليوم ابتداء من الإغريق حتى العدو الإسرائيلى بأنه شعب غير محارب ، صحت هذه التهمة أو لم تصح) .

أما على الجانب الأخر فالشخصية اليابانية ونظرا إلى طول فترة الابتعاد عن الأجانب ولعدم التعامل معهم فلذلك فهى شخصية كانت حتى بداية عصر ميجى تتوجس من التعامل مع الأجانب . وإذا كان الاعتدال والوسطية صفتان يميزان الشخصية المصرية فأن تطرف الموقع فى حالة اليابان اثـر بـدوره لتصبح الصلابة وعدم المرونة صفة من أهم صفات الشخصية اليابانية حتى بعد بزوغ النهضة فى اليابان . وصفة عدم المرونة هى الوجه الأخـر مـن صفة التصادمية . وقد رأينا من المشاهد التاريخية القليلة التى أوردناها فـى هذا الكتاب كم تصادم اليابانى ضد نفسه وضد الحكومة والسلطة من خـلال هوجات وثورات الفلاحين ومظاهرات وتصادمات سكان المدن أيضا ثم رأينا التصادم كم كان شديدا مع الصين وروسيا حتى أن اليابان وعلى الرغم مـن إدراكها كم الفرق بين قوتها العسكرية والمادية وبين قوة الولايات المتحـدة العسكرية والمادية - وقد أوردنا هذا الفرق فى كتابنا " تاريخ اليابان الحديث والمعاصر - إلا أنها أقدمت على صدام معها والدخول فى حـرب طويلـة خسرت فيها اليابان آلاف بل ملايين من الضحايا .

رأينا أن صفة التصادم وعدم الليونة عند اليابانى كان لها أثر ايجابي أيضا وهو التحدى الشديد والبأس . فهم يتحدون أقصى الظروف من أجل الوصول إلى أهدافهم . ومن المؤكد أن اليابان وبسبب هذه الصفة المتأصلة فى مواطنيها استطاعت أن تصل إلى كل أهدافها التى حددتها من خلال المرسوم الامبراطورى الذى صدر فى مارس ١٨٦٨ . ألم يقيموا المجلس الإستشاري من خلال البرلمان؟! ألم تتحد جميع طبقات وفصائل الشعب اليابانى ؟! ورفعوا من أسم بلادهم عاليا ألم يتركوا بل وينبذوا عادات قديمة عديدة ويقيموا مجتمعاً حديثاً ينافس كل المجتمعات المتقدمة ؟! ألم يتلمسوا المعرفة من شتى أنحاء الدنيا؟! ، وأصبحو يترجمون عن معظم لغات العالم ويؤلفون الكتب والموسوعات بطريقه فردية وأكثر منها بطريقة جماعية . أنهم لا يخجلون أطلاقاً من تلقى العلم ، ومهما تقدم اليابانى فى العمر وهرم فهو لا يجد غضاضة فى أن يجلس فى مقاعد الطلبة لتلقى العلم . ولذلك تخطت النهضة العلمية اليابانية مثيلتها فى أوربا بعد أن كان اليابانيون يتمنون فقط اللحاق بها وليس تجاوزها .

هكذا استطاعت النهضة اليابانية بإيجابية أبنائها وتحديهم للصعاب أن تتجاوز المعوقات . وكانت روح الوطنية الإيجابية هى الموصل الأساسى من أجل بناء هذه النهضة واستمرارها ،. وكان للدقة وعدم التسامح مع المخطئ أو الرحمة إزاء المخطئين وخاصة إذا كانت أخطاؤهم مقصودة . وفى المقابل فأننا نجد فى مسيرة النهضة المصرية وخاصة فى أوقات كبوتها الكثير من الرحمة والتسامح مع المخطئين يصلان إلى حد التجاوز عن الأخطاء الكبيرة . وهذا بالطبع كان له تأثير سلبي إلى حد كبير فى مسيرة النهضة والحياة فى مصر بشكل عام .

(٤) الچنرال الحظ وأثرة فى نهضة اليابان :

أستطيع أن أؤكد أن هذه الفكرة فى كتابنا هذا لن تعجب الكثير من القراء والباحثين إلا أننا رأينا أن نمضى قدما فى سرد هذه الفكرة على الرغم من إيماننا العميق بمدى أهمية بذل العرق والكفاح ولكننا نؤمن أيضا بدور الحظ فى حياة الأمم كما فى حياة الأشخاص. صحيح أنه لا يلعب دور البطولة ولكنه يظهر فى بعض الأحيان على مسرح التاريخ لكى يغير مجرى الأحداث . بدرجة كبيرة فى مسيرة هذه النهضة لصالحها فى أغلب الأحوال وسوف نذكر بعضا من هذه المشاهد التاريخية حتى ندلل على صحة زعمنا .

ومثال على ذلك ما يعرف فى التاريخ اليابانى الحديث بحادثة تسوشيما (Tsushima Jiken) والتى وقعت والنهضة اليابانية الحديثة ما زالت جنيناً فى رحم عصر طوكوجاوا كان ذلك فى فبراير ١٨٦١ حينما حطت بارجة حربية ضخمة تدعى (بوسادونيك) فى محاولة لاحتلال جزء من اليابان وفى البداية أخذ قائد السفينة فى إصلاح عطب حدث بها ذريعة للهبوط على أرض جزيرة تشوشيما إلا أنه بعد ذلك أقام منشأة دائمة للإقامة بها. ثم لم يلبث أن طلب من حاكم المقاطعة حق الإنتداب الروسى الأبدى على جزء من الجزيرة . ولكن بفضل تدخل بريطانيا الدبلوماسى وممارسة ضغوطها على روسيا غادرت البارجة الروسية سواحل جزيرة تشوشيما وكان من الممكن أن تصبح هذه الحادثة نواة لاحتلال اليابان لولا هذا التدخل الانجليزى .

وفى تلك الفترة تم احتلال العديد من الدول من قبل الدول الإمبريالية بسبب لعبة التوازنات الاستعمارية فمثلا حينما تقوم انجلترا باحتلال بلد معين ترد عليها فرنسا باحتلال بلد آخر وهلم جرا ، إلا أن مجريات الأحداث فى مختلف أصقاع العالم حمت اليابان من الوقوع فريسة للاستعمار ، وذلك كان

لثلاثة أسباب أو أحداث وقعت الفضل في إنقاذ اليابان من هذا المصير الـــذى الت إليه بلاد عديدة ، الأول تراجع أمريكا عن الانخراط في ممارسة العملية الاستعمارية بسبب قيام حرب الشمال والجنوب فيها ، وبالطبع شغلت هـــذه الحرب الطاحنة الولايات المتحدة عن توجيه نظرها نحو احتلال اليابان ، أما الحدث الثانى فهو انشغال روسيا فى حرب القرم وانهزامها فيها ، أما السبب الثالث فهو حدوث ثورتى الجنة الهادئة فى الصين عام ١٨٥١ وسيبوى فـــى الهند فيما بين ١٨٥٧ و ١٨٥٩ ضد النفوذ البريطانى مما جعل أيضا محاولة انجلترا لغزو اليابان من الصعوبة بمكان .

ونستطيع أن نقول أن اندلاع الحرب العالمية الأولى كان بمثابة الغـــوث من السماء بعد فترة ليست قصيرة من الكساد والركـــود . وذلـــك لان هـــذه الحرب شغلت عددا كبيرا من الدول عن كل شيء سوى الحرب والقتـــال ، حتى إن هذه الدول لم تعد قادرة على إنتاج العديد مـــن المنتجـــات اللازمـــة للحياة اليومية أو الملتزمات والمنتجات اللازمة للجيوش أو حتى السفن التى تناقص عددها بسبب الحرب ولم تجد سوى اليابان حتى تمدها بتلك المنتجات والمصنوعات ، ولم تقتصر هذه الطلبات من اليابان على الدول المتحاربـــة فقط بل انسحبت على دول جنوب شرق آسيا والدول الأفريقية المتأخرة والتى كانت تعتمد على المنتجات الأوربية ، وبسبب انشغال أوروبا فـــى الحـــرب امتنعت هذه المنتجات على تلك الدول الآسيوية والأفريقية فاتجهت بالتـــالى للاعتماد على اليابان فى ذلك ، وهكذا أتيحت لليابان فرصـــة ذهبيـــة غيـــر مسبوقة لتطوير اقتصادها معتمدة فى ذلك على الناحيـــة الصـــناعية وبـــذلك ازدهرت أسواق اليابان وأرتفعت أسعار الأسهم بها .

ونسوق مثالا آخر يدلنا على الحظ الوافر لهذا البلد ، وذلك عندما وجدت الولايات المتحدة الأمريكية نفسها مضطرة لمساعدة اليابان في النهوض وعلاج الآثار المدمرة للحرب العالمية الثانية على اليابان وذلك عندما استولى الشيوعيون على مقاليد الأمور فى الصين ، فوجدت أن تجعل من اليابان حائطا لصد الخطر الشيوعي وحتى لا تتحول اليابان نفسها لدولة شيوعية ، وكان لمعونة ومساعدة الولايات المتحدة لليابان الأثر الكبير في استمرار النهضة اليابانية بل ودخولها فى مرحلة أرقى بكثير مما كانت عليه منذ بزوعها فى عهد ميجى وحتى بداية الحرب العالمية الثانية حيث وجه اليابانيون كل هذه الطاقة الجبارة التى يمتلكونها من اجل تنمية اقتصادهم والارتفاع بمستوى معيشتهم بدرجة غير مسبوقة فى تاريخهم سواء قبل نهضة ميجى أو بعدها .

ومثال آخر نسوقه بالنسبة لهذا البلد المحظوظ بموقعه الجغرافى وبأمطاره الغزيرة وبالخضرة الوفيرة وبأبنائه الأوفياء أيضا ، هذا المثال هو قيام الحرب بين كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية فى عام ١٩٥٠ ، وفى هذه الحرب ساندت الولايات المتحدة الأمريكية كوريا الجنوبية وساندت الصين كوريا الشمالية .

وكان لقرب اليابان من مسرح الحرب أثره فى اعتماد أمريكا عليها بشكل واضح فاستخدمت أمريكا الكثير من اليابانيين بشكل مباشر فى جيشها ، واستعانت بالسفن والسكك الحديدية اليابانية من أجل نقل قواتها ، وبالطبع كانت للجيش الامريكى متطلبات خاصة من المصانع اليابانية ، فكانت تلك الصفقات ذى أثر فعال فى إنعاش الاقتصاد الاحتكارى مرة ثانية ، وكان لتلك الحرب الفضل فى تحريك البضائع الراكدة ، فقد وصلت قيمة

النصائع الراكدة الى حوالى ١٥٠ مليون ين يابانى ، وبنشوب الحرب تم نفاذ كل هذه البضائع الراكدة .

ولكننا مع اعتقادنا أن الحظ لعب دورا فى مسيرة النهضة اليابانية فهذا لا يعنى على الإطلاق أننا نقلل من قيمة الجهود التى بذلها ويبذلها اليابانيون حتى يومنا هذا ، ويكفى أن نشير هنا إلى أن عبارة (حظ سعيد) فى الأدبيات الغربية وكذلك العربية تقابلها فى اليابانية عبارة (شد حيلك) أى أن بذل المجهود فى حد ذاته يعتبر هو الحظ السعيد ، فالحظ السعيد لا يأتى من السكون ولكن من الحركة والاجتهاد والعمل المتواصل الدءوب .

﴿ خاتمـــــة ﴾

••••••••••••••••••••••••

لم يكن الهدف من كتابنا هذا هو إستعراض تاريخي لنهضة مصر في عهد محمد علي و نهضة اليابان في عصر ميجي ، وإلا جاء مختلفاً عما كان . ولكننا عرضنا لمشاهدات من كلا النهضتين علنا نصل إلى الإختلاف بينهما و سبب تواصل الثانية و تطورها و إستمرارها و تعثر الأولى ولا نقول فشلها ، فقد أتاحت نهضة محمد علي أساساً لا بأس به كي تنطلق من خلاله مصر حتى تصبح أقوى الدول النامية وفي طليعتها ويكفي محمد علي فخراً أنه عندما أحتفل بمرور مائة عام على وفاته في عام ١٩٤٩ كان قد تم في فرنسا فقط نشر مايزيد على ستين كتاباً عن الانجازات التي قام بها هذا القائد الفذ .

ومهما رأينا من إختلاف بين النهضتين إلا أننا وجدنا أيضاً نقاطا تكاد تتشابه في النهضتين لدرجة التطابق . ولا نجاوز الحقيقة إذا قلنا أن نهضة ميجي حاولت تقليد نهضة مصر في بعض السياسات . فكما رأينا أن محمد علي حاول قدر جهده أن يطبق سياسة تجعل من مصر بلداً اقتصادها قوي وغني وفي نفس الوقت لها جيش قوي . وقد إستطاع إلى حد كبير تحقيق هذه السياسة و ذلك بتطبيق سياسة الإحتكار الذي وضع من خلالها يده على كافة مواضع الإنتاج و إدخال تحسينات ملموسة على الزراعة و الصناعة كما رأينا معاً ، ومن أجل بناء دولة قوية فعل الكثير من أجل الجيش و الذي كان هدفه الأكبر . وجاءت نهضة ميجي و طبقت نفس سياسة محمد علي في بناء دولة غنية و جيش قوي فيما يعرف بفوكوكو كيوهي (Fukoku Kyohei) ونجحت نهضة اليابان في تحقيق هذا الهدف أيما تحقيق كما رأينا .

كذلك أمن محمد على بمبدأ " شريعة الغاب " فى عــالم لا يعتــرف إلا بالقوى . وكان لذلك يُهاجم قبل أن يهاجَم . فإذا تكالبت حوله الذئاب لجأ إلى إستعمال الدهاء و ترك لهم ما يريدونه قبل أن يجهزوا عليه و أبقى لنفســه مصر مستقلة قوية وهذا ما كان يريده . و الطريف أن نهضة وسياسة ميجى طبقتا نفس سياسة محمد على بما عرف بجاكونيكوكيوشــوكو (Jakuniku Kyoshoku) وهى تعنى أيضاً شريعة الغاب . وإذا لم تقف ضد مســيرة محمد على النهضوية التوسعية عدة عوامل ســواء دينيــة أو جغرافيــة أو غيرهما فربما حقق محمد على مالم يحققه ميجى و ساسته من نهضة شاملة .

وعلى الرغم من النجاح الكبير و الإنجازات الكثيرة التى حققها كل من محمد على و ميجى ، إلا أن هناك الكثير من التجاوزات تمت فى عهديهما . فهاهو محمد على لا يتوانى فى التهديد بإعدام التجار الذين يتلاعبــون فــى الأسعار . ففى رسالة إلى حاكم إقليم المنوفية فى عام ١٨٢١ يقــول محمــد على " إنه بخصوص المعاملات بين الناس ، فقد تجاسر البعض فى الــتحكم فى الأسعار مما أدى إلى انقطاع عباد الله و التحصــيلات الأميريــة .... وإننا قد نظمنا الأسعار كما تعلمون .... و إن عامل الأسعار تجرى على هذا المنوال فى البيع و الشراء و الأخذ و العطاء و قبض الأموال .... ومــن الأن فصاعداً كل من تجاسر على زيادة الأسعار لكــم حــالاً تربطونــه ... وترسلون تعلموننا لأجل مجازاته بالإعدام لمخالفته هذا النظام ..... وكل من تجاسر فلايكون جزاؤه إلا الإعدام لعدم تعطيل أسباب عباد الله "

وهنا يطبق محمد على مبدأ الغاية تبرر الوسيلة بكثير من الحزم و القسوة معاً . الغاية هى تحقيق الأستقرار فى الأسواق و الوسيلة وهى قاسية بالطبع كانت حكم الإعدام على المخالفين من التجار . و لم يكن حكم الإعدام جاهزاً

فقط من أجل هؤلاء التجار المخالفين بل أعد أيضاً من أجل موظفى الحكومة المتهمين بالتراخى و الأهمال فى جمع الضرائب ، فقد أصدر محمـــد علـــى أمراً فى عام ١٨٣٣ بهذا الخصوص جاء فيه "إعدام كاشف عثمان مـــأمور المنيا بمناسبة إهماله و بطانته فى تحصيل الأموال و تهديد المشايخ و حكام الأخطاط بمثل هذه العقوبة إذا أظهروا إهمالاً فى تحصيل المال " .

وللأسف فقد أصبح محمد على قدوة لتابعية فى ممارسة التعسف و القسوة مع المصريين المساكين الذين قلما ماكانوا يثورون على الظلم الواقـــع علـــيهم . وأقرب مثال لهؤلاء التابعين أبن محمد على القائد العسكرى الفذ إبـــراهيم . فعلى الرغم من تلك الصفات الكريمة التى اتصف بها إبراهيم إلا أننا نجـــده يستعمل أقسى درجات العنف فى تعامله مع فلاحى صعيد مصر وهـــو مـــا يقصه علينا الجبرتى فى حوادث عام ١٨١٣ ، وهو يشبه أفعال إبراهيم باشا بالفلاحين بأفعال التتار فهو يسلب الفلاحين نعمهم و أموالهم ويأخذ أبقـــارهم وأغنامهم . وعندما يفرض عليهم الضرائب ولا يستطيعون دفعها فكان يجرى عليهم أنواع الآلام من الضرب و التعليق و الكى بالنار و التحريق .

وهناك أمثلة عديدة على تجاوزات السلطة فى عهد محمد على ، ولكـــن كان أقساها و أكثرها عنفاً تلك المذبحة التى نفذها محمد على فـــى أعدائـــه المماليك فى عام ١٨١١ بما يعرف " مذبحة القلعة " و هى مذبحة غنية عـــن التعريف . و مهما قيل من تبرير لمحمد على فى أمر هذه المذبحة إلا أنها تنم عن غدر واضح فى شخصيته . فربما سامحه التاريخ كثيراً لو قتل هـــؤلاء المماليك فى حرب يتقابل معهم فيها وجهاً لوجه .

على أية حال فإنه بقدر إنجازات القادة العظام تأتى أخطائهم أيضاً عظيمة أو جسيمة بمعنى أصح ولنا فى ذلك أدلة و براهين عديدة ، فالأسكندر الأكبر

برغم ما حققه من إمبراطورية عظيمة جمع فيها الغرب مع الشرق ، و في محاولة لتفعيل هذه الوحدة و صهر و مزج لتقاليد الأجناس البشرية بعضها ببعض فقد قام هو و تسعون من قواده و أصدقائه بالزواج من عرائس فارسيات ، فأما هو فقد تزوج بنت دارا عدوه الفارسى ، على الرغم من زواجه من فتاة آسيوية أخرى هى روكسانا أبنة ملك سمرقند . و فى الوقت نفسه قدم هدايا العرس للجنود المقدونيين الذين تزوجوا من عرائس آسيويات ، و الذين كان يبلغ عددهم عدة آلاف . وقد سمى هذا " زواج أوربا و أسيا " وبذلك ارتبطت القارتين على حد قول بلوتارخ برباط زواج شرعى و بجامع الإتصال و الإشتراك عن طريق الذرية و النسل .

نقول إنه برغم هذا التسامح فى التعامل مع نساء و بنات الأعداء ، وهذا الفكر الرائع من محاولة توحيد حضارتى الشرق متمثلة فى الحضارة الفارسية ، و الغرب فى حضارة الإغريق فإن للأسكندر الأكبر حماقات عديدة قد يندهش القارئ الكريم حينما يتعرف عليها . فمثلاً أقدم الأسكندر الأكبر على إعدام كاليسثيز أبن أخت معلمه أرسطو ، وذلك لأنه رفض أن يقدم للأسكندر مراسم التقديس . و هو كذلك يأمر بصلب الطبيب الذى كان يعالج تابعه هيفايستيون بسبب وفاة الأخير ،بل إنه لفرط حزنه أمر بهدم جميع حصون و طوابى المدن المجاورة ، ومنع الموسيقى بتاتاً فى معسكره مدة طويلة ، و لما أستولى على قرى الغوزيين أمر بكل البالغين فيها فذبحوا قرباناً لروح هيفايستيون . إلى هذا الحد من القسوة بلغ حزن الأسكندر ، وبدى غير منطقى على الإطلاق أن يفعل مثل تلك الأفعال فاتح و قائد عظيم مثل الأسكندر .

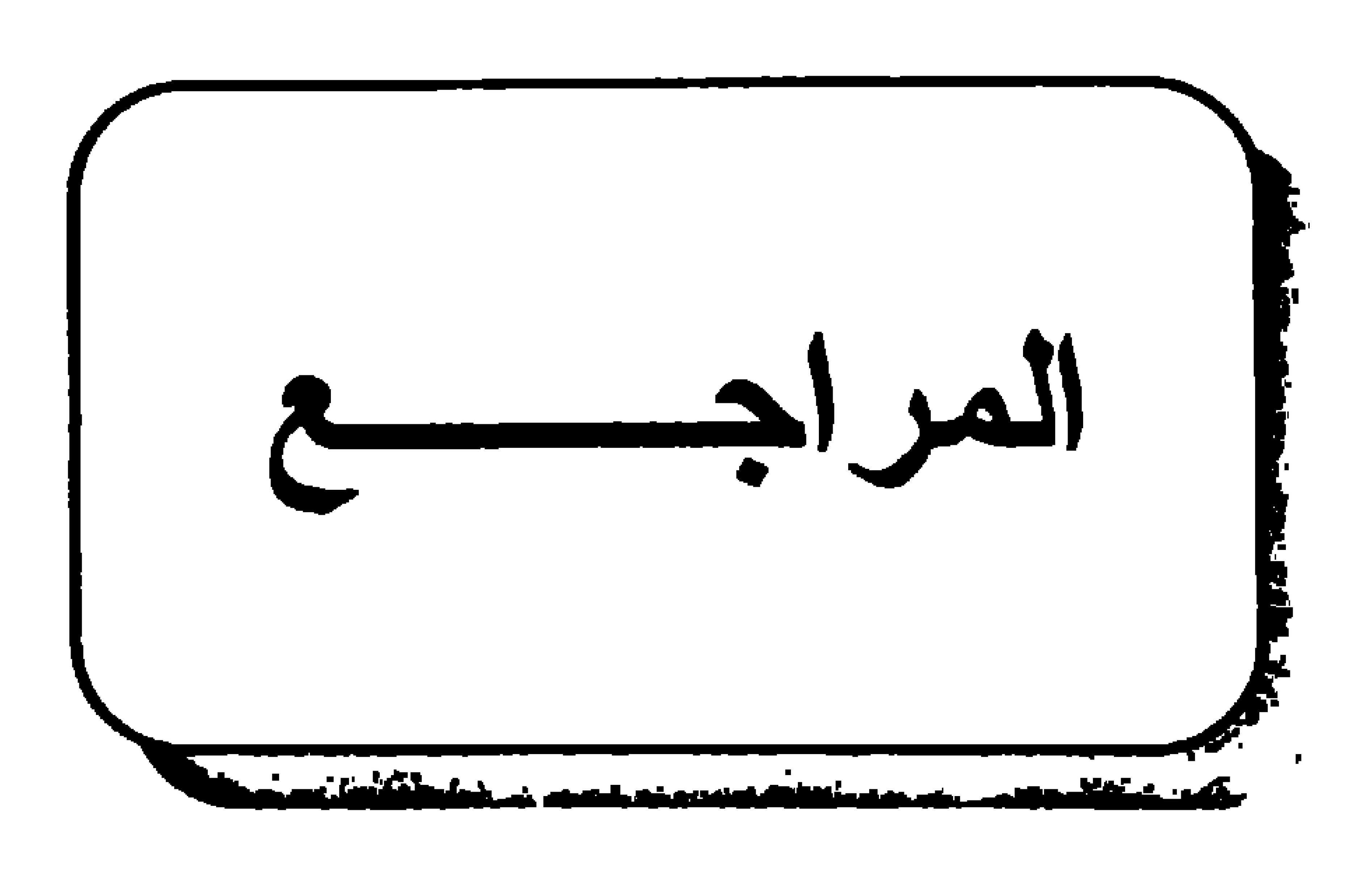
وفى عصرنا الحديث فى مصر ، نجد الزعيم جمال عبد الناصـــر قــد حاز على حب و تقدير من شعبه غير مسبوقين فى تاريخ هذا البلد . ورغــم الإنجازات الكبيرة التى حققها فأنه ترك لهذا الشعب هزيمة ثقيلة ظلت تــؤثر على معنوياته و أدائه لسنوات طويلة فقد احتلت أراضية بطريقه مهينة بل أن عبد الناصر على الرغم من الوطنية الجارفة قد ترك ديون ثقيلة أرهقت كاهل شعبه وبدى فى ذلك الحاكم الأجنبى محمد على أنفع لمصر من عبد الناصر ، على الأقل فأن الأخير ترك مصر بلداً قوياً مستقلاً ليس علية ديون لأحد .

ومن خلال عقد المقارنات بين نهضة محمد على و نهضة ميجى ، فــلا شك أننا وجدنا تفوق الثانية تعليمياً و إقتصـــادياً و كــذلك إســتعمارياً إلا أن امتلاك مصر لإرث حضارى طويل و كذلك ليقظتها و قيامهـــا مــن كبــوة العصور المظلمة خلال العصور الوسطى ، فقد أتاح لها هذا سبقاً حضـــارياً كبيراً إذا ما قورنت بأفريقيا . و يقدر توينبى كما يذكر لنا جمال حمدان فــى سفره العظيم " شخصية مصر"- أن مصر تسبق فى تطورهـــا الحضـــارى الحديث دول العالم العربى بفارق زمنى يختلف من بلد إلى بلد ، ولكنه فــى حده الأقصى قد يصل إلى ١٥٠ سنة .

ومن خلال عقد المقارنات و الظروف المحيطة بكل من نهضتى محمد على و ميجى نجد أن الأول قد بذل مجهوداً خرافيا من أجــل بنـــاء مصـــر الحديثة و أتاح لخلافائه قاعدة قوية لو حاولوا تنميتها و السير على الـــوتيرة نفسها لربما حققت مصر إنطلاقة كبرى ، إلا أننا نرى فى الوقت نفســه أن محمد على أتاح لمصر مرتبة خاصة فى الشرق الأوسط و أفريقيا . و نحب أن نستعير هنا التعبير الذى يصف به الدكتور جمال حمدان مصـــر بأنهـــا " يابان أفريقيا " فهو يقول : فكما كانت اليابان أسرع دول أسيا إلـــى تشـــرب

الحضارة الحديثة و أشدها أخذاً بها فأن مصر هى الأولى فى القارة (أفريقيا) و الشرق الأوسط . و على أية حال ، فإن البعض يعتقد أنه لولا الإستعمار ، و عداؤه لمصر منذ محمد على ثم إحتلاله لها بعد ذلك وإجهاضه لبوادر الثورة الصناعية و مشاريع التحضر ، لكانت مصر قد أخذت خطاً تطورياً كاليابان إلى حد بعيد أو ربما ايطاليا أو سائر دول أوروبا الجنوبية والمتوسطة.

ثم يحار المفكر الكبير جمال حمدان فى أمر مصر. هل يعدها دولة شبه نامية أم شبه متقدمة، هل هى أول الدول النامية أم آخر الدول المتقدمة. ونزعم نحن من ناحيتنا أن هذه الحيرة فى الحقيقة فى صالح مصر. فمجرد الحيرة فى أمر بلد ما يعنى الإعتراف بفاعلية هذا البلد، وأنه لم يكن أبداً ساكناً صامتاً بل كان يحاول كثيراً أن يطرق أبواب التقدم. ولكن للأسف كانت هذه الأبواب موصدة أمامه، إما لأن طرقها لم يكن بالقوة المطلوبة أو لأن أبواب التقدم كانت تغلق أمامه بفعل فاعل.


المراجـــــــع

مصـــــادر الكتـــــاب

اولاً : مراجع باللغة العربية:

١- د. جلال يحيى : مصر الحديثة (١٨٠٥-١٨٤٠)

٢- الأستاذ/ عبد الرحمن الرافع : عصر محمد على

٣- د. محمد صبرى : تاريخ مصر من محمد على إلى العصر الحديث

٤- الأمير عمر طوسون : صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد علـــى- الجيش المصرى البرى والبحرى

٥- نجم الثاقب خان : دروس من اليابان للشرق الأوسط

٦- د. جاد طه : معالم تاريخ مصر الحديث والمعاصر

٧- د. أنور عبد الملاك : "نهضة مصر"

٨- د. على شلبى : الريف المصرى فـــى النصـــف الثـــانى مـــن القـــرن التاسع عشر ١٨٤٧-١٨٩١

٩- د. عصمت محمد حسن : جوانب من الحياة الإجتماعية لمصـــر مـــن خلال كتابات الجبرتى

١٠- أدوين ريشاور : تاريخ اليابان من الجذور حتى هيروشيما

١١- ك.م. بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية

١٢- د. رءوف عباس : التنوير بين مصر واليابان

١٣- الشيخ على أحمد الجرجاوى: تقديم د.رءوف عباس ، الرحلة اليابانية

١٤- د.رءوف عباس : المجتمع اليابانى فى عصر ميْجى

١٥- د. مسعود ضاهر : النهضة العربية والنهضة اليابانية تشابه المقـدمات وإختلاف النتائج

١٦- د. حلمى أحمد شلبى : المجتمع الريفى فى عصر محمد على

١٧- د. عبد المنعم الجميعى : عصر محمد على دراسة وثائقية

١٨- - د. حلمى أحمد شلبى : فصول فى تاريخ تحديث المدن فى مصر

١٩- د. فوزى درويش : اليابان الدولة الحديثة والدور الأمريكى

٢٠- د. فوزى درويش : الشرق الأقصى الصين واليابان (١٨٥٣-١٩٧٢)

٢١- محمد عبد الفتاح أبو الفضل : الصحوة المصرية فى عهد محمد على

٢٢- بإشراف د. أحمد عزت عبد الكريم عبد الرحمن الجبرتى دراسـات وبحوث

٢٣- الهلال ديسمبر ٢٠٠٤ : إبراهيم باشا جزء خاص

٢٤- إعداد: ناجاى متشيو - ترجمة عادل عوض الثورة الإصـلاحية فـى اليابان ميجى ايشن)

٢٥- هشام عبد الرءوف حسن : تاريخ اليابان الحديث والمعاصر عصرى طايشو - شوا

٢٦- د. عفاف لطفى السيد مارسو : مصر فى عهد محمد على

٢٧- د. سمير عمر إبراهيم الحياة الإجتماعية فـى مدينـة القـاهرة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر

٢٨- حافظ عثمان : فى بعث الأمة المصرية

٢٩- هـــ . ج. ولز : معالم تاريخ الإنسانية المجلد الرابع

٣٠- د. جمال حمدان : شخصية مصر المجلد الرابع

٣١- د. يونان لبيب رزق : محمد على الكبير ملف وثائقى

٣٢- عبد الحميد الكاتب : قرأت - كتاب اليوم

ثانياً : مراجع باللغة اليابانية:

1- *Oobunsha Kindai Shakai No Hattatsu Meiji Taisho Showa*

أبونشا تطور المجتمع الحديث - عصر ميجى - طايشو - شوا

2- *Yamiuri Nihon Rekishi (10) Meiji ishin*

يومى أورى تاريخ اليابان (١٠) إصلاح ميجى

3- *Gomi Fumihiko Shosetsu Nihonshi Kenkyu*

جومى فوميهكو المبحث المفسر فى تاريخ اليابان

4- *Owada Tetsuo Nihon No rekishi ga wakuru hon*

أوادا تيتسوأو التاريخ المبسط فى تاريخ اليابان

5- *Yasuda Motohisa Nenpyo Yosetsu Nihon No Rekishi*

ياسودا موطوهيسا قائمة وتحليل تاريخ اليابان

6- *Rekishi gaku Ken Kai Nihonshi neupyo*

لجنة البحث فى علم تاريخ اليابان قائمة تاريخ اليابان

7- *Shogakkan Raiburari Kindai Nihonno SluppATSU*

مكتبة شوجاكوكان إنطلاقة تاريخ اليابان الحديث

8- *Ito Takashi Meiji No Gunzo*

إيتوتاكاشى وجوه من ميجى

9- *Sasaki Takashi Meiji No Rikiryo*

ساساكى تاكاشى حيوية يابانيو عصر ميجى

10- *Matsuo Masahito Meiji Ishin to bumei kaika*

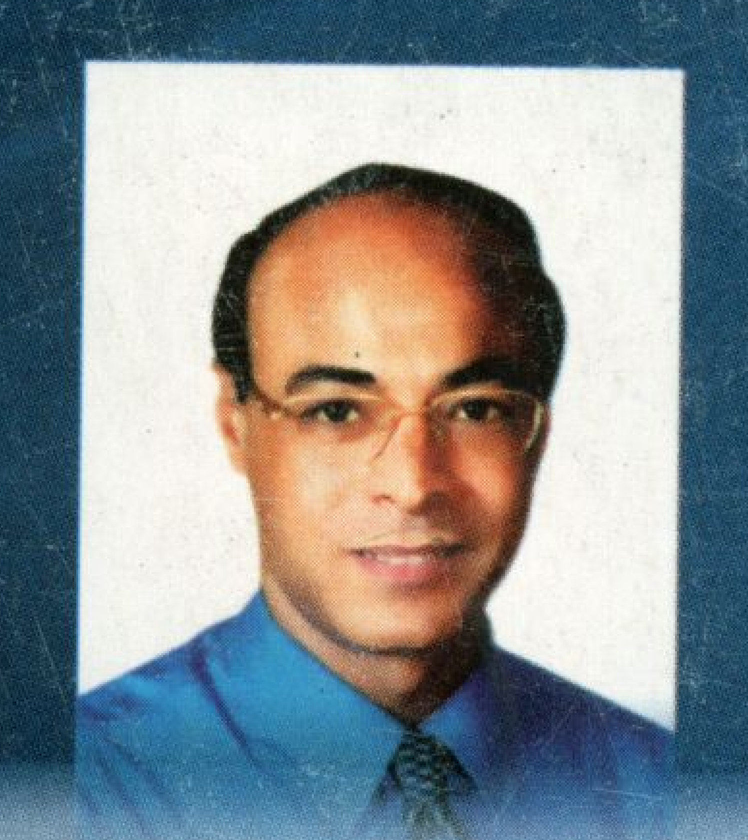
ماتسوأو ماسهيتو إصلاح ميجى وحضارته

11- *Takamura Choji Nisshin Nichiro Senso*

تاكامورا تشوجى الحرب اليابانية الصينية واليابانية الروسية

فهرس الكتاب

الموضـــــوع | الصفحة



هذا الكتاب

عندما نقرأ تاريخ بلدأ ما لا يجب أن تكون قراءتنا له مجرد تسلية ، أو أن يكون التاريخ مجرد حكايات تروى ، بل لابد وأن يكون تاريخ الدول بمثابة عبر ودروس يمكن للأوطان وكذلك الأشخاص أن يتعلموا من خلالها . ففي الحقيقة دائما ما يروي لنا التاريخ تجارب الدول وإخفاقاتها ونجاحاتها في معالجة تلك التجارب .

وهذا الكتاب ربما كان نموذجاً لذلك النوع من الكتب ، فهو يضع أمامنا صورة النهضة المصرية في عهد محمد علي ، وكذلك يعطي القارئ العربي فكرة عامة لا بأس بها عن النهضة اليابانية الحديثة وإرهاصاتها وقد يدهش القارئ عندما يعلم أن النهضة المصرية في عهد محمد علي ولدت فتية قوية ربما أقوى واشد من نهضة اليابان في عهد الإمبراطور ميجي . إلا أن ظروفا محلية ودولية أحاطت بالأولى فكبلتها وأعاقت حركتها ، في حين أن الظروف المحلية والدولية التي أحاطت بالنهضة اليابانية كانت إلى حد كبير إيجابية من أجل استمرارية هذه النهضة ورفعتها .

ومن خلال الحديث عن مختلف نواحي النهضتين من تعليمية واقتصادية وعسكرية وغيرها ، سوف نكتشف معاً كيف كانت عظمة الوالي محمد علي وعبقريته وذلك على الرغم من بعض السلبيات التي اتسم بها أداءه من عنف وقسوة . وسوف نكتشف عند الحديث عن النهضة اليابانية مدى فاعلية وحيوية الإنسان الياباني وكذلك مدى الحب الذي يكنه لبلده ، وفي اعتقاد الكاتب أن هذا الحب كان في الماضي والحاضر هو الوقود الأهم لإدارة عجلة النهضة اليابانية .

أما المؤلف هشام عبد الرؤوف فهو يعمل منذ عودته من الدراسة في اليابان في مج... حي وذلك منذ عام ١٩٩٠ ، ونظراً لأنه حاصل على الماجستير في الأدب الياباني فهو ي... لعام في الأدب والتاريخ اليابانيين في عدة جامعات ، وقد صدر له فيما قبل كتاب " تا... ديث والمعاصر ، عصري طايشو - شوا " وفي هذا يحاول الكاتب قدر استطاعته - تعريف ا... ريخ اليابان الذي يلفه الكثير من الغموض نظراً لندرة الكتب المؤلفة عنه باللغة العربية

الناشر

